الإمام الصادق عليه السلام

والمذاهب الأربعة

الجزء الثامن

تأليف

الأستاذ أسد حيدر

تحقيق

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الصادق (عليه السلام)

والمذاهب الأربعة

الجزء الثاني

تأليف

الأستاذ أسد حيدر

هدية . هدية . هدية
المجمع العالمي لأهل البيت (ع)
The Ahl - ul -Bait(a) World Assembly
www.ahl - ul - bait.org

تحقيق

المجمع العالمي لأهل البيت (ع)

اسم الكتاب: الإمام الصادق عليه السلام و المذاهب الأربعة (ج٨)
المؤلف: أسد حيدر
المحقق: لجنة التحقيق
الموضوع: كلام و تاريخ
الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
الطبعة: الاولى ١٤٢٥ هـ.ق
المطبعة: ليلى
الكمية: ٢٠٠٠
شابك: ٨-٧٩-٧٧٥٦-٩٦٤ ISBN: 964-7756-79-8

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

www.ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين

كتاب الله وعترتي أهل بيتي

ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا

« الصحاح والمسانيد »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً﴾ الكهف : ١

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾ الكهف : ٢٩

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ طه : ٧٥

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ النساء : ١٥٢

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ المائدة : ٥٦

مُقَدَّمَةٌ وَتَمْهِيدٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على هدايته لدينه ، والتوفيق لما دعا إليه من سبيله ، وأصلّي على محمد خاتم الأنبياء وخير الخلق ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ومن اتبعه ووالاه .

هذا هو الجزء الثامن من كتاب «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» وقد أكملته وأنا في سنٍّ ألمّت بي الأعراض والأمراض ، وفي حال من الغربة يزيد من موانع التواصل بالكتابة والتأليف ، ولكنّي تحاملت على الأيام ، وتاجرتها بقوى واهنة وذهن مكدود ، وأنا مؤمن بأن ضعف البدن وفتور البال يتحولان بالإيمان إلى طاقة خلّاقة ، وقد قال الإمام الصادق ﷺ : «ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة»[1] .

ولم يكن الجزء الثامن وحده هو ما انعقدت عليه النية ، وإنما بين يدي كتبي الأخرى التي لم ترَ النور بعد ، وأمامي تنقيح وإضافة بعض الزيادات إلى ما طبع منها ككتابنا : «مع الحسين في نهضته» . وأنا في ظرف اقتضى أن اتجه فيه إلى مهمات الإرشاد وواجبات العمل الديني ، فقد واجهت صعيداً يستلزم الجهد الذي يضني ، وفيه كل ما تضمّه القربة إلى الله دون بهارج الدنيا ومنافع المادة التي تؤثر في قوة العمل .

وإذا ما استراح الذهن من الأفكار التي تلح عليه ، تعلّق بماضي الأيام حيث

(١) بحار الأنوار ج٦٧ ص٢٠٥ ح١٤ .

كان الوقت مستغرقاً في البحث والكتابة ، وما هي إلّا أيام تفرغ وفترات تخصص يركض طالب العلم فيها بنهم وراء المعرفة ، ويسعى كل يوم للحصول على المادة التي يحتاجها في بحثه ، فإن عدمت في داره ؛ اتّجه إلى مجامع الفكر ومؤسسات العلم . فسلام على مدينة العلم ، وتحية مقرونة بآهة ودمعة وحسرة ، وصلوات الله على أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين ، صلوات دائمة حتى يتشرّف جسدي بتراب أرضه ، فإن الأيام تمرّ ، والعوارض تزداد ، والعمر إلى نفاد ، ولم تتحقق بعدُ أُمنية العودة .

ولقد عانيت كثيراً وأنا أعمل على إكمال الجزء الثامن من كتاب الإمام الصادق عليه السلام فقد رأيت أنّ ما أكملته من كتب وبحوث ـ على شدّة حرصي وكثرة متابعتي في إنجازها ـ قد ضمّت بعض الأخطاء الإملائية وغيرها التي لا تخلّ بالسياق . فبذلت جهدي في التصحيح كما حدث في كتابنا المخطوط : «الجريمة بين الشرع والقانون» وكتاب «العلوي الثائر» وقد كنت أتمتع ببقايا البصر ، فكيف الآن وقد أصبحت أُعاني من الزرقاء معاناة شديدة مما اضطرني إلى الاعتماد على الإملاء على الأحبة والأصدقاء ، وإذا ما أمسكت بالقلم لأكتب ، فإنّ القدرة لا تتجاوز بضع كلمات . وقد نظرت فيما لفت نظري من تلك الأخطاء ، فوجدتها بسبب النقل والجمع والتصنيف ونسخها بأكثر من يد . فأرجو مراعاة ما فاق الطاقة وهي في أواخرها ، والنظر فيما عجزت عنه القدرة وهي في ضعفها ، والله ولي التوفيق .

وتصبح الكتابة صعبة وشاقة عند التحوّل إلى طريقة الإملاء على الغير ، والبحث في المصادر بواسطة وعون ، أضف إلى ذلك أنّ ما معي من الكتب والمصادر قليل جداً ، ولم يتيسّر في نطاق العلاقات هنا ما يسدّ الحاجة ، فألجأ إلى الذهاب إلى المكتبات للاستعارة ، ولم أجد في هذا المجال ما يقتضي

التنويه أو يستحق الشكر إلّا ما قدّم لي من يد في النسخ والكتابة ، أضرع إلى الله أن يسدّد ويوفق كل من قدّم يد العون من الأهل والأصدقاء .

والقصد ، فإنّ هذا الجزء الذي أُقدّمه إلى القرّاء كان من أكثر الأجزاء تطلباً للجهد والمعاناة ، وكنت عندما أجد في نفسي الضعف ـ بفعل عوامل السن ومقتضيات العمر ـ اتجه إلى الأعمال الأُخرى ، فأبحث فيها ، وأُدوّن مادّتها؛ لأن هاجس الأجل وانقضاء العمر يحملاني على أن أُوزّع ما استشعره من إمكانية على كتبي ، ويعلم الله أني أنظر إلى فراقها كما أنظر إلى فراق الأهل ، وأرجو لها كما أرجو لهم أن أتركها على حال يمكنها من تحقق الغرض وتحقيق الأمل .

وفي الجزء الثامن من «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» تناولنا أهم المواضيع التي تتعلق بحياة الإمام الصادق ، وبحثنا حياة الإمام مالك والإمام الشافعي ، بعد أن عدنا إلى الحديث عن حياة الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد في الجزء السابع ، وتناولنا بعض الأُمور التي لم نبحثها عن أئمة المذاهب الأربعة في الأجزاء السابقة من الكتاب .

ولأنّ امتداد حياة الإمام الصادق عليه السلام كان عبر عهدين ونظامين للحكم ، فقد كانت حياته غنيّة بالأحداث والتحوّلات والمواقف ، كما أنّ حياته عليه السلام قد امتدت عبر سيرتين ومرحلتين لنظام الإمامة وتاريخ أهل البيت النبوي عليهم أفضل الصلاة والسلام . فتعلّق جزء منها بحياة جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام ، كما تعلق شطر منها بحياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام ، فكانت حياته عليه السلام من هذا الجانب زاخرة بالمواقف والأفعال والمبادئ ، حتى جاءت شخصيته عليه السلام وأفكاره وتعاليمه على مستوى من التكامل والنضج ، ومن العمق والغنى ، ما جعلها مكافئة للأخطار والمهالك التي تحيط بالإمامة وتهدّد الأُمة والمجتمع

الإسلامي ، فقد تسلّم الزعامة الروحية وتولى الإمامة في مرحلة شديدة الصعوبة ، ولولا آثار الإمام الصادق ﷺ وما نتج عن نهجه الفكري ونشاطه العلمي؛ لكانت آثار النظامين الحاكمين ، ونتائج أعمال الطغاة ، وما وجّه إلى الأُمة الإسلامية من ضربات تستهدف عقيدتها وسلوكها من قبل أعداء الدين ، قد أسلمت الكيان الإسلامي بكل جوانب وجوده ووجوه بقائه إلى أزمة حادّة أو مشكلة مستديمة . لكن جهد الإمامة ، وحكمة استمرار الرسالة في وصاية الولاية ، أبقت جذور العقيدة راسخة ، وحفظت أركان الدين قائمة برغم انشغال حكّام الزمان بحماية سلطانهم ، واتهاجهم البطش والقسوة ، حتى كانت صورة المجتمع الإسلامي محاطة من جهة بظلم الحكّام وجبروتهم ، ومن جهة أُخرى بأعداء الإسلام وأفكارهم ، ومن جهة ثالثة بألوان ضعف الإيمان والبعد عن الدين . ويبرز في قلب هذه الصورة شخصية المصلح الفذ والقائد المخلص ، فيحيل ظلمات الجهل إلى مشارق أنوار ، ويخلق تلك النهضة الفكرية والحياة العقلية التي نهل منها أئمة المذاهب وعلماء المسلمين ، والتي حصّنت الأُمة ضد حركات الأعداء ، وحفظت الفكرة من تيارات الإلحاد والزندقة .

وقد رأيت أن أبدأ الكتاب بشيء من سيرته يلخّص ما بسطنا به القول في الجزئين : الأول والثاني من الكتاب ، وقدّمت عرضاً للفترة السياسية الزمنية وأسماء الملوك الحكّام الذين عاصرهم الإمام الصادق ﷺ حتى تكون أمام القارئ الذي لم يتهيأ له قراءة أجزاء الكتاب التي ضمّت تفاصيل القول في هذه الفترة الزمنية السياسية ، صورة عن الأحداث والتحولات التي عاشها الإمام الصادق . ثم سقنا نظرة إلى حوادث عصره لتكون عقب الشيء الذي قدّمناه من سيرته متكاملة في إطار الصورة التي نريد .

ولمّا كنت قد أنهيت كتاب «حياة الإمام الصادق»[1] فقد نهجت في هذا الجزء على عرض المواضيع التي تتصل بإبراز شخصية الإمام الصادق في إطار المقارنة أو في سياق المرحلة السياسية مما لم يدخل في أغراض الكتابة عن حياة الإمام بشكل منفرد . ولهذا ضمّ الجزء الثامن عرضاً لمنهج العمل عند الإمام الصادق في مواجهة الطغاة ، والمسلك الذي اتبعه عليه السلام في تجنيب الأُمة المآسي ، وإبعاد أنياب الحكّام ومخالبهم عن جسد المجتمع الإسلامي ، والاتجاه إلى المستقبل ببناء النفوس وعمارة الأذهان بذكر الله والتمسّك بتعاليم الدين ، وهو ما ميّزه ليس على صعيد الأُمة الإسلامية ، بل وفي داخل الدوحة المحمدية والشجرة العلوية؛ حتى استطاع أن يقيم صرحاً فكرياً شامخاً تمثّل في مدرسته التي انتسب إليها علماء الأُمة ورجالها ، وأن يجعل من الدعوة الصامتة التي وضع بذرتها جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام منهجاً ونظاماً .

كما تضمّن الجزء الثامن بحثاً في الدعوة الإسماعيلية؛ وقد كان ذلك مما تفرّع عن البحث في أبناء الإمام الصادق عليه السلام حيث تناولنا موضوع الإمامة بعد الإمام الصادق عليه السلام ، ودلائل النص على إمامة ابنه موسى بن جعفر . إلى غيرها من الأُمور التي قامت الإسماعيلية على إنكارها ، والمواضيع التي تطورت منها ، وقد حرصنا على تجنب الخوض فيما يمكن أن يستغني البحث عنه ، واقتصرنا على القضايا الأساسية في ابتعاد الدعوة الإسماعيلية عن مذهب الإمام جعفر الصادق عليه السلام وعقائد الشيعة الإمامية ، ولم ندخل في تفاصيل

---

(١) ستقدّمه للطبع إن شاء الله بعد الفراغ من طبع الجزئين السابع والثامن من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة .

ودقائق ذلك لظرف قدّرناه ، فأهملنا الكثير ، ولكن لم نقف دون ذكر الحقائق أو الإتيان بالوقائع .

وأخيراً ، فلا بد من كلمة سبق أن نوهت بمعناها في أكثر من مورد في ثنايا البحث عن حياة الإمام الصادق ، فإنّ شخصية الإمام الصادق تبقى بحاجة إلى مزيد ومزيد من البحوث والتصانيف ، وخاصة أفكاره وتعاليمه التي تضمّ ثروة كبرى .

كما لا بد من القول أنّ سموّ منزلته العلمية وعلو مكانته الدينية لا تؤثر فيهما دواعي التعصب أو بواعث الإساءة ، فلقد عفى التاريخ ما أراد له أعداؤه من صورة ، وأتت الأيام على محاولات الحكّام وأنصار الظلمة ، وبقيت صورة الإمام الصادق التي يُجمع العلماء على إشراقها ونورها . فهو أعلم زمانه ، وإمام علماء عصره ، وسيّد أُمة جده .

وأرجو من الله أن لا يكون هذا آخر العهد بخدمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام ، وأن يمنّ عليّ بالقوة والطاقة لإكمال المسيرة وتحقيق الآمال ، والله من وراء القصد .

الكويت / محرم الحرام / ١٤٠٤

الإمام الصّادق (ع)

شيء من سيرته

ونظرة إلى حوادث عصره

شيء من سيرته

الإمام الصادق ﷺ هو أعظم شخصية في عصره وبعد عصره ، وسيبقى مثالاً للعالم الذي استطاع أن يؤدي للأُمة خدمات لم يمحُها بُعد الزمن وتقلّب الحوادث واختلاف الظروف . فقد واجه ﷺ مسؤوليات جسام ومخاطر عظيمة تهدّد مبادىء العقيدة الإسلامية ووجود المجتمع الإسلامي ، وتتجلى عظمة الإمام الصادق ﷺ في تصدّيه لتلك الأخطار على تعدد مصادرها واختلاف عناصرها ، فلم يهدأ في صد هجمات الأفكار وموجات التشكيك والإلحاد .

ولم يقعده الضغط السياسي الذي استعمله أُولئك الحكّام الذين حاولوا أن يُخضعوا لسلطانهم الروح المعنوية التي يتصف بها علماء الإسلام ، فيربطوا العلم بعجلة مسيرتهم ، ويسخّروا الدّين لأغراضهم .

وقد حفظ التاريخ لنا ملامح شخصية الإمام الصادق واضحة جلية وهو في خضم ذلك المعترك القاسي . ويبرز دوره ﷺ في الحفاظ على أصالة الفكر الإسلامي ، وفي الذود عن كيان الأُمة ، وفي حماية الرعية من ظلم الحكّام والطغاة ، إلى غير ذلك من جوانب الحياة الإسلامية ، وهو في ذاته هدف السياسة وغاية الحكم ، حيث كان الطغاة على اختلافهم يسعون إلى القضاء على شخصيته لما تمثله من قوة روحية وسلطة دينية .

ومن عظيم الآثار والمفاخر الفكرية ، أن يتمكّن عظيم كالإمام الصادق ـ وهو على مثل تلك الأخطار ومواجهة سياسة الحكّام ـ من تأسيس مدرسة إسلامية استطاعت أن تطلق الفكر الإسلامي من عقال الجمود ، وتوسع دائرة

المعرفة بنشر العلوم الإسلامية ، والدعوة إلى التمسك بتعاليم الدين وأفكار العقيدة الإسلامية حتى سارت بذكره الركبان ، وازدحمت على مجلسه الوفود من شتى الأقطار ، فكان بحق أعلم أهل عصره ، ولم يكن هناك أعلم منه . وقد أعلن ﷺ للملأ بقوله : «سلوني قبل أن تفقدوني فإنكم لن تجدوا أحداً مثلي»[1] .

وقد شهد له علماء عصره من تلامذته وروّاد مجلسه كمالك بن أنس وأبي حنيفة والسفياني[2] .

وكان عصره يتصف بمفارقات أوجدت مشاكل عديدة أثقلت كاهل كل مسلم يحسّ بواجبه تجاه أُمته عندما اصطدمت بأمور مُحدَثة يغلب عليها طابع المصالح الذاتية ، وشاعت مظاهر الفساد وترسّخت اتجاهات الشذوذ عن العقيدة والابتعاد عن الإسلام ، رغم أبراد التديّن التي لبسها الحكام ورسوخ دعائم سلطانهم باسم الدعوة إلى الإسلام والقيام بأمر الخلافة وشؤون النظام .

وكان للتحول السياسي الذي شهده عصر الإمام الصادق ﷺ أثر في تعقيد الأوضاع وقيام موجة من الاضطراب ، هدّدت أمن المجتمع الإسلامي ، ورمت به إلى معترك هام قضى على بقايا استقراره .

وعندماظهرت الدعوات المختلفة ، وقامت الثورات المتلاحقة ؛ وكلّ يدعي المحاماة عن الدين والدفاع عن شريعة محمدﷺ وقف الإمام الصادقﷺ وسط تراكم الأحداث وانعطاف الأسباب وحدوث التطورات موقف مسؤولية كبرى من حيث التصرف الذي تقتضيه المرحلة والمسؤوليات التي تطرحها الظروف القائمة على أهل بيت النبوة ، والعمل

---

(١) و (٢) الذهبي تذكرة الحفاظ ج١ ص١٥٧ ومناقب أبي حنيفة للموفق المكي ج١ ص١٧٣، وانظر الجزء الأول ص٦٨ ـ ٨٣، والثاني ص ٤٩ ـ ٥٢ من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة .

المطلوب أمام تلك المشاكل . فهم رجال رضعوا لبن الفضيلة ، وتشرّبت دماؤهم العقيدة الإسلامية ، وقدّموا في ميادين الفداء أعظم التضحيات ، وبذلوا كل إمكانياتهم في سبيل نشر الدعوة الإسلامية .فقد واكبوا تلك الدعوة في يومها الأول ، وعاصروها على مرّ الزمن ، حتى باتت لباسهم الحق وسمتهم الأصيلة .

والإمام الصادق وُلِدَ في مهبط الوحي ، وترعرع في مهد الرسالة ، وتدرّج في ربوع النبوة يتفيأ ظلال الإيمان ، ويتغذّى تعاليم الإسلام من مصدرها الأول ومنبعها الطاهر ، ولما قام بأعباء الإمامة كانت الأُمة الإسلامية تمرّ في هذا المنعطف ، وتنحدر إلى التفرّق والتمزّق . فوقف الإمام الصادق عليه السلام موقف المصلح العظيم والزعيم المحنك ، ونظر إلى واقع الأُمة وما يحيط بها من مشاكل وأخطار نظرة متفحصة وعميقة ، فأخذ نفسه بمنهج فكري وعملي يتعاهد المسلمين بالرعاية ويتكفّلهم بالحماية . ولولا العناية الإلهية التي تتجلى في سرّ الإمامة واختيار صاحب نصها وولايتها؛ لما تمكن بشر من النهوض بتلك الأعباء والمسؤوليات التي تترتب على الزعامة الدينية والمنزلة الروحية . ويمكننا القول أن عصر الإمام الصادق كان حلقة التواصل في حياة الأُمة الإسلامية .

وهنا نقدم أضواءً من سيرته وحياته .

ولادته عليه السلام :

فهو أبو عبدالله جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ـ سبط رسول الله ـ بن علي بن أبي طالب عليهم السلام . ولد بالمدينة المنورة يوم الجمعة أو الاثنين عندطلوع الفجر يوم ١٧ ربيع‌الأول سنة (٨٣ هـ) وقيل:

سنة (٨٠ هـ) وقيل: غرّة رجب أو غرة شهر رمضان . والمعتمد الأول هو يوم ١٧ ربيع الأول يوم ولادة رسول الله كما عليه عمل كثير من المسلمين .

أمّه عليها السلام :

أُم فروة ، وقيل: أُم القاسم ، واسمها قريبة أو فاطمة بنت القاسم بن محمّدبن أبي بكر .

أمها : أسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر . وكانت أم فروة قد ولدت للإمام الباقر ولدين هما : الإمام الصادق وعبدالله أو عبيدالله . وأم فروة كانت امرأة ذات معرفة وعلم بأمور الدين ، أخذت عن الإمام الباقر ما أهّلها لمكانة سامية ودراية كبيرة بالعقيدة والرسالة ، وقد تلقّت عنه أحاديث متنوعة ، وروتها عنه .

روى عبدالأعلى حادثة تدلّ على مكانتها وعلمها ، قال : رأيت أم فروة تطوف بالكعبة عليها كساء متنكرة ، فاستلمت الحجر بيدها اليسرى ، فقال لها رجل ممن يطوفون : يا أمة الله، أخطأت السنّة؟

فقالت : إنّا لأغنياء عن علمك[1] .

أبوها : القاسم بن محمّد بن أبي بكر .كان من الفقهاء السبعة ، وقد روى له أصحاب الصحاح الستة ،كان قريباً من الإمام زين العابدين ومن ثقاته . أما جدّها فهو ربيب أمير المؤمنين الإمام علي . وكان منه بمنزلة أحد أولاده ، اتصف بالثورة على الانحراف ، ولعب دوراً مهماً في إبعاد الأذى عن المسلمين .

(١) الكافي ج٤ ص٤٢٨ ح٦.

كنيته وألقابه عليه السلام :

يكنّى عليه السلام بأبي عبدالله ، ويلقّب بالصابر والفاضل والطاهر[١] . والسالم[٢] وأشهر ألقابه الصادق لصدق حديثه ، وعرف بذلك ، واشتهر بين علماء عصره وبعده؛ لأنه ما جرى عليه قط زلل ، ولم يتوقف أحد عن رواية حديثه والأخذ بقوله ، ولم يستطع أحد الطعن في أقواله وروايته . وأما قول البخاري: في النفس منه شيء ، فلم يخرج حديثه ، فذلك يعود لنفسية البخاري وما فيها ، ولا يؤثر ذلك على ما أطبق عليه العلماء ، ويكاد يكون العصر كله شاهداً ، وقد تعرضنا للبخاري فلا حاجة إلى العودة إليه مرة أُخرى . فالإمام الصادق عليه السلام نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن غيره ، وكان إماماً في الحديث[٣] .

صفته عليه السلام :

ووصفوه عليه السلام بأنه ربع القامة ، أزهر الوجه ، حالك الشعر ، أشم الأنف ، تكسوه الهيبة ، ويعلوه الوقار ، حسن المجالسة ،كثير النوال . ولم يَخْلُ عن ذكر الله والثناء عليه ، وكان لا يخلو من ثلاث خصال : إما قائماً وإما صائماً وإما ذاكراً .كان من أكابر العبّاد وعظماء الزهّاد الذين يخشون ربهم ؛كثير الحديث عن رسول الله ،كثير العواد .كان نقش خاتمه «ما شاء الله لا قوة إلّا بالله» .

(١) تذكرة سبط ابن الجوزي ص ٣٥١.

(٢) تاريخ اليعقوبي لابن واضح ج٢ ص ٣٨١.

(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص٧١.

وكما أشرنا ، نشأ ﷺ في المدينة المنورة عاصمة الإسلام وموطن الصحابة والتابعين . وقد شهدت هذه المدينة أوج عظمة النظام الإسلامي ، فهي مهبط الوحي والتنزيل ، تقصدها الوفود من جميع الأقطار ، وينتهل منها علماء الأمة .

كان الإمام الصادق ﷺ يحظى برعاية جدّه لأبيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين ، وهو معلّمه الأول حيث لازمه مدة ثماني عشرة سنة ، فترعرع في ذلك الجو الذي يفيض بعبق النبوة ، ويستلهم دروس التضحية الكبرى ، حيث يهزّ الناس أثر الفجيعة والمأساة ، يرتسم على كل وجه ألم المصاب عندما تطوف ذكرى استشهاد الحسين وخروجه من المدينة ، وذكرى يوم الحرّة وإباحتها ، فتلتهب النفوس وترتبط برابطة الاتصال بآل محمد كلما أوغل الحكّام في الظلم وسفك الدماء ومطاردة الأحرار من المسلمين ، وهدم دور الصلحاء والمتعبدين ، وذلك في العهد الأُموي الأسود .

توفي جده الإمام زين العابدين سنة (٩٤ هـ) فعاش مع أبيه الإمام الباقر الذي كان موضع اهتمام العلماء وموئل الفقهاء ، وكانت حلقة درسه تعقد بالمسجد النبوي ـ وهي المدرسة الكبرى لطلّاب العلم ورجال الحديث ـ فلا تعقد هناك حلقة إلّا بعد انتهاء الباقر من حديثه .

وحضر عنده جمع من الفقهاء أمثال : عمرو بن دينار الجمحي ، وعبدالرحمن الأوزاعي ، وابن جريج ، ومحمد بن المنكدر ، ويحيى بن كثير ، وزيد بن علي .

وخلال تلك الفترة كان الإمام الصادق ﷺ على اتّصال مباشر بالحركة الثورية والنهضة العلمية ، وإليه تتّجه الأنظار من بعد أبيه لنبوغه وتضلّعه في الفقه وتبحّره في الدين ، ولكثرة ملازمته لأبيه في حلّه وترحاله ؛ إذ دخل

معه الشام ومكة المكرمة ، وظهرت عليه علائم الفضل وشرف العلم ، وعزة النفس وصدق اللهجة ، والمهابة والجود وكرم الأخلاق .

ويقول عمرو بن المقدام : إذا نظرت إلى جعفر بن محمّد ، علمت أنه من سلالة النبيين[١] حتى إذا وافى أباه الباقر الأجل ، وانتقل إلى جوار ربه؛ قام بأعباء الإمامة وتفرّد بالزعامة ، وكانت مدة إمامته أربعاً وثلاثين سنة .

وقد كابد مرارة النكبات الواحدة تلو الأُخرى ، وعاصر آثار الفجيعة التي منيت بها الأُمة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وإباحة المدينة ثلاثة أيام في وقعة الحرة ، ورمي الكعبة والاستهانة بحرمة الحرم ، كما شاهد موقف عمّه زيد ونهايته المفجعة التي انتهت إليها ثورته .

لقد جزب الإمام الصادق عليه السلام شراسة السلطة وعنفها واضطهاد الأُمة والاستهانة بحقوقها وعدم المبالاة بالدماء ، فسلك طريقاً لمحاربتها والوقوف بوجهها يحول بين الحكّام وبين ما يعملون من أجله في سياستهم وسلوكهم .

أكّد الإمام على نشر الوعي ، وحثّ الأُمة على التسلح بسلاح العقيدة ، فكان رائداً صادقاً ، ودليلاً خبيراً في مجال العمل وحفظ التراث الإسلامي في عصر تطور الحركة الفكرية ، والتحولات السياسية الحديثة ، وأنّ المكانة الحيوية التي يتبوأها بمزاياه العالية وغزارة علمه ، قد جعل الكثير من الناس يتوقعون منه أن يسهم في المعترك السياسي الذي اشتد في عصره والذي تمخض عن ثورات متتالية .

وظنّوا أنّه سيشارك في أحداث ذلك المعترك ، وتعدى موقف الكثيرين من

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج٢ ص٩٤ ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص٤٥٧، وتهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

الصمت إلى المصارحة ، فحرضوه على الثورة والبدء بالانتفاضة ، ظناً منهم بأن الزمن قد حان لقيام حكومة عادلة ودولة تسير وفق نظام الإسلام وقوانينه ، بعد أن تجردت الدولة الأموية من كل المقومات الروحية ، فعبثت بمقدرات الأمة ، وهتكت مقدسات الإسلام وحرماته ، ولا يزال يوم الحسين ماثلاً لا يمحى أثره ، وصرخته مدوية على مرّ الزمن ؛ ووقعة يوم الحرة لا زالت شاخصة أمام الأعين ، وحوادثه تحدث عاصفة غضب وهزة استنكار ، ولا تخلو جدران المدينة ولا الحرم الشريف من قطرات الدماء الزكية .

ولكن الإمام الصادق عليه السلام لم يمل إلى جانب من استماله ؛ فهو لم يخدع بالآمال البراقة ، ولقد عرف نزعات الناس وميولهم ، وطبيعة الموقف الذي يتخذونه ، والغايات التي من أجلها كان تحريضه ، وقد زودته تجربته الكبرى وعلمه بما وراء الحوادث بالقدرة على تمييز بواعث تلك التحركات ، ومعرفة مقتضيات الحال ، والتي كان يجهلها الكثيرون ممن راحت تضطرب نفوسهم بمشاعر صادقة تتأثر بالأحداث وتنفعل .

فكانت نظرته جوهرية مبنية على استيعاب تام لدور الدين في الحياة ، ومقدار تأثر تلك الجموع به وخضوعهم له .

وقد شخّص خطورة الموقف ، وعرف غايات الدعوة وأهداف القادة ، فكان رفضه لطلباتهم من أهم ما يحتمه عليه واجب الدعوة لمصالح الأمة .

فقد أدت غلبة المصالح وتنازع الأسر إلى ضياع الناس ، وارتباطهم بما قام في المجتمع من تيارات منحرفة ومبادئ نفعية تستخدم الإسلام تعدياً وظلماً ، فكان لا بد من أن يهيء الله لهذه الأمة قائداً يمثل المبادئ الحقة ؛ ويكشف من خلال الالتزام المطلق والنهج الروحي القويم ، عقم الحركات التي لا ترى أبعد من المصالح القريبة ، وتعجز عن استشفاف الآفاق ، وتمثل النتائج

البعيدة . فكان الإمام الصادق في نظرته العميقة وتحسسه لضرورات الدعوة ومتطلبات استمرار الرسالة يدعو إلى عدم الإسهام في الاضطرابات ، وحماية المجتمع ، وتجنيبه خطر الحروب التي يجني ثمارها أعداء الدين . ولما عهد عنه من علم ومكانة دينية ، فهو مرهوب الجانب يحسب لرأيه ألف حساب . وقد كان تحركه ونشاطه يلقي رعباً في قلوب أولئك الحكّام كما عبر المنصور عنه بقوله: بأنه الشّجى المعترض حَلْقه[1] لموقفه المؤثر الحساس ، ولميل الناس إليه .

وقف الإمام الصادق عليه السلام في تلك الظروف القاسية موقف الصلابة في إيمانه ، والثبات في عقيدته ، والإخلاص في أداء رسالته ، فكان رائداً كبيراً في مجال مواجهته الفعلية ضد السياسة التي تأخذ آفاقاً جديدة ، وتلجأ إلى أساليب بعيدة عن روح الإسلام ومبادئه . وقد امتدت حياته عَبْرَ عصرين متناحرين سياسياً وفكرياً ، فقد عاش في آخر خلافة عبد الملك بن مروان إلى وسط خلافة المنصور الدوانيقي ـ العصر العباسي ـ أي من سنة (٨٣ هـ) إلى سنة (١٤٨ هـ) إذ أدرك من خلافة الأول ثلاث سنين أو ست سنين أي من سنة (٨٠ هـ أو ٨٣ هـ) إلى سنة (٨٦ هـ) وفي السنة التي توفي فيها عبدالملك بن مروان ، ومدة خلافته ثلاث عشرة سنة وأشهر ، ثم مَلَكَ الوليد بن عبدالملك سنة (٨٦ هـ) وتوفي سنة (٩٦ هـ) وكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر؛ ثم ملك أخوه سليمان بن عبدالملك ، وتوفي سنة (٩٩ هـ) وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر ؛ ثم ملك بعده عمر بن عبدالعزيز بن مروان المتوفى سنة (١٠١ هـ) وكانت مدة خلافته سنتين وستة أشهر ؛ وملك بعده

---

(١) بحار الأنوار ج٤٧ ص١٦٩.

يزيد بن عبدالملك بن مروان المتوفى سنة (١٠٥ هـ) وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً . وملك بعده هشام بن عبدالملك المتوفى سنة (١٢٥ هـ) وكانت مدة خلافته عشرين سنة إلّا شهراً . وملك بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك الفاسق المتوفى سنة (١٢٦ هـ) ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر . وملك من بعده يزيد بن الوليد بن عبدالملك المتوفى سنة (١٢٦ هـ). وملك بعده أخوه إبراهيم ، ولم تطل أيامه ، وتنازل لمروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم سنة (١٢٧ هـ) وكان مروان آخر خلفاء بني أُمية ، وقتل سنة (١٣٢ هـ) وكانت مدته خمس سنين وعشرة أشهر ، وهي فترة الانحدار والسقوط التي شهدت حروباً متوالية وثورات متعددة لتنتهي الدولة الأُموية بنهاية مروان .

كانت المدة التي عاصر الإمام فيها هؤلاء الحكّام ـ الذين سبق ذكرهم من الأُمويين ـ لا تقل عن ثمان وأربعين سنة وهي بأشخاصها وزمانها تكشفي لكشف المراحل التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام ، وهي حافلة بالمآسي والويلات التي منيت بها الأُمة؛ إذ انجرف الأُمويون وراء شهوات الحكم ، وراحوا يسخرون الدولة لأغراضهم وتوطيد نظامهم ، فعمّ الظلم جميع الطبقات وكل المسلمين ، ولم يسلم من شرّهم إلّا من سار في ركابهم ، وجار عن سواء السبيل .

لقد كانت لغة الدم هي السائدة وكانت وسيلة العنف هي المتبعة ، وكم من إمام وعالم وفقيه قتل على أيديهم واستشهد في عهدهم . وأولى الحكم الأُموي أهمية بالغة للطالبيين ، فرصدوا حركاتهم ، وقمعوا كل موقف بينهم لصد العدوان ومواجهة الظلم ، وخز الشهيد منهم تلو الشهيد ، وكان همّهم قتل أعيان العلويين وسحقهم ، والنيل من الإمام عليّ ، إلّا الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي منع سب علي عليه السلام بعد أن كان قد أدخل في مناهج التعليم ،

وأعلنوا به على المنابر في الأندية والمجتمعات : ليـنشئوا جـيلاً تـربّى عـلى بغض علي وأولاده .

قال أبو يحيى السكري : دخلت مسجد دمشق فقلت : هذا بلد دخله جماعة من الصحابة ، فمنت إلى حلقة فيهاشيخ جالس ، فجلست إليه . فقال له رجل جالس أمامه : من هو علي بن أبي طالب ؟ فقال الشيخ : خفّاق كان بالعراق ، اجتمعت عليه جماعة ، فقصد أمير المؤمنين ـ يـعني مـعاوية ـ أن يـحاربه ، فنصره الله عليه .

قال يحيى : فاستعظمت ذلك ، وقمت فرأيت في جـانب المسـجد شيخاً يصلّي إلى سارية وهو حسن السمت والصلاة والهيئة ، فقلت له : يا شيخ ، أنا رجل من أهل العراق جلست إلى تلك الحلقة ثم قصصـت عليه القصة ، فـقال الشيخ : في هذا المسـجد عجائب ، بلغني أن بعضهم يطعن عـلى أبـي مـحمد الحجّاج بن يوسف. فعلي بن أبي طالب من هو؟(١) .

وإذا كان لنا من تعليق على هذه الحـادثة ، فـهو لا يـتعدّى الصـمت الذي يكشف ما فعلته السلطة ، ومبلغ الجهل والعداء التي جنّدت له أجهزتها للنيل من الإمام علي عليه السلام ، حيث لم يكن الأمر مقصوراً عـلى ضـرب القـوى التـي يـدفعها إيـمانها إلى الوقـوف بـوجه الظـلم ، بـل راح الأُمـويون خـلال ذلك يذهبون إلى ارتكاب الجرائـم وخـلق الأهـوال . ولقـد عـانى النـاس الضـيم والعوز ، إذ عملوا على زيادة الخراج ، واتباع الطرق الظالمة ، وأخـذ الجـزية ممن لا تجب عليهم الجزية .

لقد كان الأُمويون يرون في العلويين منافسين أقـوياء لهـم ، يسـتأثرون

---

(١) المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل ص٥ .

بقلوب الناس وحبهم ، وقد حاول جهازهم الديني والتشريعي والجنائي أن يعمل على إضفاء صفة التكامل والنضوج والقسوة على الحكم الأُموي دون هوادة وبمختلف الأساليب .

وكان العلويون ـ عبر نشاطهم العلمي وموقعهم الديني ـ يتوغلون في نفوس الناس ، وتنشدّ إليهم الجموع ، وتدين لهم بالولاء؛ إذ تمتعوا بقوة دون دولة ، وعاشوا في منعة دون عنف ، بل كان سلاحهم الإيمان ، ودرعهم التقوى ، ورغم انتهاء السلطة إلى الأُمويين وتمتعهم بالقوة ، لم يستطيعوا أن يغيّروا من الموقع الذي يحتله العلويون في نفوس الناس ، فكانت حركاتهم وثوراتهم المستمرة ـ رغم نهاياتها المفجعة ـ تزيد من تقرّب الناس إليهم ، ودنوّ المسلمين منهم .

نظرة إلى حوادث عصره

ولا بد للباحث عن حياة الإمام الصادق عليه السلام من مواجهة عدّة مشاكل تعترض سير البحث وتقف في طريق المؤرخ لحياة هذا الإمام العظيم . وهي مشاكل كثيرة متشابكة ، تكتنف البحث وتحيط بالموضوع ، كما أن هناك عدة أسئلة تفرض نفسها على الباحث ، وتحتاج منها إلى إجابة تكشف عما استتر وراءها من أُمور .

المشاكل ـ كما قلنا ـ كثيرة ، منها : مشكلة الثوار الذين يرمقونه بأبصارهم من بعيد ويأملون إسناد الحكم إليه ، ومشكلة النزعات الفكرية والصراع العقائدي ، ومشكلة الغلاة ، ولعلها أهم مشكلة تقف في طريق الباحث ، بل أهم مشكلة تعترض سير الحقائق التاريخية ، حيث استطاع التلاعب السياسي أن يوجد منها عوامل يتمكن من خلالها تحقيق أغراضه وأهدافه . وسنأتي لعرض موجز في البيان هنا لأنا قد أوضحنا في بحثنا الموسع ما يتعلق بهذه المشكلة[1] .

وعصر الإمام الصادق يتصف ـ دون غيره من عصور الأئمة ـ بعوامل كثيرة ، أهمها : التحول السياسي الذي حصل في أيامه ، بل خلال أهم أدوار حياته ، وذلك بانتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين بعد أن انتصرت ثورتهم باسم أهل البيت عليهم السلام ذلك التحول الذي أحدث تغييراً جذرياً في

---

(١) انظر الجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص١٣٥ .

المجتمع الإسلامي ، وفتح أمام المسلمين آفاقاً بعيدة المدى .

ولم تكن نتائج الثورة مجرد انتقال الحكم من أسرة إلى أسرة ، بل هي في الواقع ثورة لها أثرها في تاريخ الإسلام ، تعني نقطة فاصلة فيها لفعاليتها وآثارها ، حيث أحدثت في المجتمع تغيّراً عميقاً وتحولاً سياسياً واجتماعياً اتسعت آثاره .

ولم يكن الإمام الصادق عليه السلام بالرجل الذي تهمل الأحداث موقفه ، أو بمعزل عن ذلك المجتمع أو في منأى عن التأثر بتلك الحوادث المحيطة به ؛ فهو كفرد يشمله ما يشمل سائر الناس ، يعيش مع الأُمة ويشاطرها آلامها ويتعرف على أحوالها . وقد كانت الأحداث تنتهي إليه لمكانته الاجتماعية والسياسية ، فالثورة قامت على أساس دعوة دينية نظمت تنظيماً دقيقاً يضمن لها النجاح ، ويمكّن جذورها من النمو في أرض زرعت بجثث الأبرياء وسقيت بدماء الشهداء . والدعوة قامت تحت شعار أخذ الثأر من مرتكبي المجازر والمظالم بحق العلويين ، وكان يقوم ذلك على تنظيم سرّي يعمل بتكتم شديد ، وهو يدور حول الدعوة لأهل البيت عليهم السلام ، وإسناد الحكم إليهم لأنهم أصحابه الشرعيون ؛ ولا بد من الأخذ بثأرهم والانتصار لمظلوميتهم، لأنّ الدولة الأُموية عمدت إلى تصفية الحركات العلوية والقضاء على زعمائها بكل وسيلة . وقد جعل السواد لباس الدعاة ، وشعاراً يرفع العرب إعلاناً للحداد على الحسين عليه السلام ، فاندفع الناس لخوض تلك المعارك ، لأنّها معارك تهدف إلى القضاء على معاقل الظلم ورموز الضلالة والبدع ، فانتشرت الدعوة ، وكان أبناؤها على اتصال بالإمام الصادق عليه السلام ، ودعاتها أكثرهم يأملون بإسناد الحكم للعلويين . فالعباسيون أنصار دعوة وجنود حركة وليسوا رؤساء .

فالدعوة إسلامية المبدأ ، شيعيّة النّزعة ، لم يتمكّن العباسيون من الإعلان عن نواياهم العدائية تجاه أهل البيت عليهم السلام ، بل عرفوا كيف يستغلون مشاعر الناس وتعاطفهم مع العلويين ، وتستروا بدعوة الرضا من آل محمد . فسارت الجموع بحماس شديد سعياً وراء هدف سام هو جعل الإمامة في أهلها الذين يستحقونها بجدارة من أهل بيت النبوة ، حتى يصلح الله بهم ما فسد من الأُمور وما اختلف فيه الناس .

وفي البيت العلوي رجال يصلحون لتولّي الإمامة بظاهرها من حيث الدين والتقوى ، ولكن ليس فيهم النص ، ولم تكن إليهم الوصية ، وإنما كانت لمن شملته العصمة وفاقهم في الخصال . وكلهم لا ينازع الإمام الصادق موقعه أو مكانته ، وعندما بلغت الأُمور من الجانب السياسي حداً يساعد على التغيير والتحول في السلطان ، كان الإمام الصادق يمد ببصره إلى ما وراء الأحداث والمصالح القريبة ، فما كان من أبناء عمّه ممن نظروا إلى التحول والتغيير في حدوده المحسوسة ، إلّا أن طلبوا منه الدخول في ما عزموا عليه من إعلان الثورة وإسناد الثوّار منهم ، ولكنه عليه السلام رفض رفضاً باتاً .

وقد ذكرنا آنفاً أنه طلب من الثوار العلويين التريث في الأمر ـ ولأهمية هذا الموضوع سنخصّص له باباً آخر نبحث فيه الدقائق والتفاصيل ـ لأن قضية التفريق بين دواعي الموقفين واختلاف النظرتين قضية هي من الأهمية بمكان لا تنتهي بانتهاء ظرفها ، ولأنّ الإمام الصادق دفع بجوهرها إلى آفاق واسعة ما زلنا حتى اليوم نعيش حقيقة ذلك الجوهر وواقع تلك النظرة ، وسيأتي بحث ذلك قريباً .

ومن ملامح النظرة التي اتّسم بها الإمام الصادق . أنّ الأُمة تحتاج إلى الرجال في مجال الإصلاح والدعوة ، وأنّ المسلمين يواجهون حكّاماً عتاة

وسلاطين متجبرين ، فما كان في عهد الأمويين سيتكرر لأنه ﷺ لمس من العباسين مذهبهم في توسّل كل الطرق إلى سدّة الحكم وعملهم على الصعود إلى السلطان بوسائل تضمن لهم ذلك ما دام النظام الأُموي قد انحدر إلى نهايته. وفي عهد العباسيين ، فقد رأى الإمام الصادق أنّ قوة النظام الجديد ، ووحشية الحكّام الجدد ستدفع بالأمة إلى أوضاع سيئة . وستعود على أهل البيت بفظائع أُخرى ومجازر تزهق فيها أرواحهم وتهرق دماؤهم .

أمّا في بدء الأمر ، وقبل قيام حكم العباسيين : فإنّ الأوضاع التي ستؤول إليها الأحداث واضحة ، فلا بد من انتهاء حكم الأُمويين وزوال ظلمهم ، والتحول آتٍ بكل الأحوال ، وقد رأى الإمام الصادق ﷺ مبلغ الاستجابة للدعوة ، وتعاطف الناس مع الثورة ، والكل في عينيه مرأى مظالم آل محمّد ، ومناظر المصائب والمآسي التي حلّت بهم على يد الأُمويين ، فراح الناس يؤيدون الثوار . بيد أن علم الإمامة قد عين هذه الفترات ، وقسّم هذه الأدوار . فليس الأمر كما يظنّ ذوو الأنظار القصيرة من الناس مهما اتّسعت تجاربهم ونمت مداركهم ، كما أنّ الثورة ضمت في تنظيماتها عناصر بعيدة كل البعد عن الأهداف التي من أجلها نظمت الدعوة ، وأعلنت الثورة ، وقد تستر وراءها كثير من النزعات المختلفة والآراء المنحرفة ، وهتافاتهم للرضا من آل محمد لم تندفع به إلى تعريض المجتمع الديني لخطر السياسة الغاشمة ، فقد كان أبعد نظراً مما يرى في النتائج ، فهو ينظر بالفكر الثاقب والنظر الدقيق المسدّد من الله تعالى لعواقب الأمور ، والعلم الشامل ، ومراعاة المصلحة العامة ، والسير وفق الخطط المحكمة والآراء السديدة في تقدير الظروف ومناسباتها .

وهو رأس الأُمة وإمام الناس وزعيم العلويين ، يرى آيات رعاية الله ،

ويلمس وجوه كلاءته له ، ليسلّمه من بطش الطغاة ومحاولات الظالمين . عليه دور القيادة ، وتوجيه دفة السفينة ، وليس العكس .

وهو عليه السلام لم يندفع وراء تيار الأقوال البراقة ، ولم يجرِ في ميدان السياسة ومخاتلتها ، وقد حاول الكثير من أتباعه وغيرهم وخلّص أصحابه والمنتمين إليه أن يثيروا عواطفه عندما استعرت نار الثورة في البلاد الإسلامية ، وانتشرت تلك الشعارات التي تدعو للرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله . وسعى بعضهم بكل جهده إلى أن يحمل الإمام وأنصاره على الثورة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى الأُمور نظرة سطحية ، فتغلب عليهم سلامة النيّة وسرعة التصديق بالأُمور الظاهرة كبشر يحكمهم الواقع والتأثير بمجريات الأحداث ، وليس كما يرى الإمام وهو صاحب الولاية الشرعية وقد خصته العناية الإلهية بالأمر ، وجعلت في شخصه الإمامة ، والوقائع عنده كما قضت بها الحكمة الإلهية وقدّرتها المصلحة الدينية .

دخل عليه سهل بن الحسن الخراساني فسلّم عليه وقال له : يا ابن رسول الله ، لكم الرأفة والرحمة ، وأنتم أهل بيت الإمامة ، ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف؟

ودخل عليه سدير الصيرفي فقال : يا أبا عبدالله ما يَسَعُكَ القعود؟

فقال عليه السلام : «ولِمَ يا سدير؟» .

فقال: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك .

فقال : «يا سدير ، وكم عسى أن يكونوا؟» .

قال : مائة ألف .

فقال الإمام الصادق : «مائة ألف ؟!!» .

قال : نعم[١] .

فكان جوابه عليه السلام من باب الامتناع عن ذلك ، وأشار إلى أنّ تلك الكثرة التي يتخيّل أنها تحقق الأهداف التي يتطلبها واقع الثورة والنهضة بالمسلمين ليست كذلك، لأنّ أُولئك لم يكونوا من الرجال المخلصين الذين تمكنت العقيدة من نفوسهم ، اللهم إلّا نفر قليل ، فلا يمكنه أن يخوض معركة حاسمة كما يريد أُولئك الذين حاولوا إثارة حفيظته مع عدم وجود العدة الكافية من المخلصين الذين يمكن الركون إليهم والتعويل عليهم .كما أن أهل البيت الكرام لهم في كل عصر دور ورسالة ، فلقد كانت ثورة الإمام الحسين من أكبر العوامل التي فضحت الردة وعرّت الأُمويين ،كما أنّها أصبحت ينبوع وعي ومعين هدى يحمل الناس على الاقتداء بتعاليم الرسالة والاهتداء بمبادئ العقيدة ، وكان من بعد مأساة الطف وما أثارته في النفوس أن تجد الأمة من يعزّز في كيانها ذلك التحوّل ويرسّخ نتائج الثورة ، فكانت دعوة الإصلاح ومنهج الإرشاد .

وقد بلغ منهج الإصلاح الديني والفكري والاجتماعي على يد الإمام الصادق درجة من النمو والتكامل ، فامتلك قدرة التأثير في النفوس ، واتصف بالروحانية والحس الديني الذي يجتذبها .

وكان عليه السلام في الوقت الذي يحاور فيه دعاة الثورة ، يمارس مسؤولياته في وجه السلطة وانحراف الحكّام ، ويقاوم نزعات الهدم وموجات القمع وتيارات التشويه والانحراف .

وكان نهج الحوار طريقة العمل الفكري لدى الإمام الصادق عليه السلام ، تتّسم

(١) الكافي ج٢ ص٢٤٣ .

بالشمول وسعة الرأي ، وقوة الإقناع التي تقوم على علم ثابت ، ورأي سديد؛ لذا فقد تولّى رد تلك الهجمات ، فكان دفاعه عن الإسلام في درء شُبَه الزنادقة والدهرية من أهل الأديان الأُخرى قد خلّف ثورة فكرية مهمّة ضمّنها عشرات من الكتب .

وكان قد بدأ التنازع في ذلك العصر بين الفلسفة وبين الإسلام والعقائد التي جاء الإسلام لمحاربتها ، وظهرت بوادر الجدل العقلي ، واتّخذ علم الكلام كوسيلة للحجاج .

وكان موقف الإمام الصادق عليه السلام من تلك التيارات ووسط ذلك الجدال والنزاع موقف العالم المنافح عن الدين والمدافع القوي عن العقيدة الذي لا يغلب في مناظرة ولا ينقطع في محاورة ، وكان لحجّته ووضوح برهانه ورجاحة عقله وقوة استدلاله الأثر الحاسم في أن يخضع له العقل السليم ويرتاح له الضمير ، وتفنيد آراء الأعداء ودحض أفكارهم ، وتوفير أسس يركن إليها المسلم ويعتمد عليها في الدفاع عن دينه وعقيدته . وكان يدلي بآرائه أمام خصومه بمنطق يدخل إلى آذان سامعيه فينفذ إلى قلوبهم ، فلا يجدون بُدّاً من التسليم لقوله الحق ومنطقه الصائب . وقد حفظ لنا التاريخ خصائص منهج الإمام وميزات منطقه الذي لا يجارى في استدلالاته ، ولا يُغلب في براهينه؛ بل كان هو المتفوّق والسابق في كل مضمار .

وبهذه المواقف ، وبتلك الشهرة التي نالتها مدرسته ، والمهمة التي قام بها أصحابه في محاربة الإلحاد والملحدين كان لزاماً على دعاة تلك المبادئ الذين دخلوا الإسلام أن يتستروا باعتناقه لبث سمومهم ، وشعروا بخطر موقف الإمام الصادق عليه السلام ومحاربته لكل فكرة من طريق العلم والمنطق ، فنظروا إليه نظرة ملؤها الحقد على الإسلام وانتصاره على عقائدهم الفاسدة

وأديانهم الباطلة ، ولما وجدوا أنفسهم عاجزين عن المجاهرة بما في نفوسهم من أضغان وعداوة ، وأنّ انتصارات الإسلام دائمة لأنّ عقيدته هي مصدر هذه الانتصارات؛ لجأوا إلى التلبُّس ، واستخدموا أساليب التستر والادعاء ، واختطّوا لأنفسهم طريقاً يقوم على وسائل وشعارات لا حقّ لها من الصحة ولا نصيب ، يمنّون أنفسهم باستعادة أمجادهم والوقوف بوجه الإسلام .

وكيف يجديهم ذلك وينطلي على المؤمنين خداعهم بعد أن ظهرت آثاره في حربهم وانتشرت أخباره في صدودهم؟ فحاولوا عن طريق الدسّ أن ينتصروا لمبادئهم الإلحادية ، وتوصلوا إلى ما توهموه حلاً ناجحاً وانتقاماً سريعاً، وذلك عن طريقين :

الأول : انضمام بعض دعاة الإلحاد إلى مدرسة الصادق ﷺ ظاهراً ، وادعاء حب أهل البيت نفاقاً ، لكي يعملوا من الداخل على الفساد والإفساد .

الثاني: استعمال الكذب والدسّ على أهل البيت ﷺ . ومن هذا وذاك كوّنوا طريقاً ، وصلوا من خلاله إلى غاية في نفوسهم ، وهي إظهار الغلو في أهل البيت ﷺ ، والغلو كما قدمنا هو أعظم مشكلة اصطدمت بها قافلة التشيع ، وأدهى مصيبة نكبت بها هذه الطائفة ، وحركة الغلو هي حركة إلحادية منشأها معارضة الإسلام من جهة ، وتشويه مذهب أهل البيت من جهة أُخرى ، لذلك ربط كثير من المؤرخين والكتّاب بين التشيع وبين الغلو؛ بل ذهب بعضهم إلى وصف التشيع بالغلو . والسبب في ذلك قصور نظرتهم وعجزهم عن التحلّي بالموضوعية التي تقتضي جهداً لسير تفاصيل وأحداث تلك المرحلة . فليس بين الشيعة وبين الغلاة ما يجمعهم ،كيف ذلك؟ وقد كان ظهور دعوات الغلاة وتسللهم قد سبّب لأئمة أهل البيت وقادة الشيعة

قلقاً وإزعاجاً لم يهدأ ، حتى أُحبطت حركاتهم وفشلت مخططاتهم ، وقد تناولنا في الجزء الرابع من الكتاب جوانب قيام هذه الحركة واعتبارها مشكلة .ولا غرابة في وصفها بالمصيبة التي عولجت بجهود الأئمة - أهل البيت عليهم السلام - . وبمزيد الأسف أن يتغاضى البعض عن هذه الحقائق وينكروا الوقائع ويتلذذوا بالطعن على الشيعة ، وهم بذلك ضحايا دعاوى الحكّام والمناهضين لأهل البيت سواء من جهة تلقي الدين أو من جهة الأغراض السياسية العمياء التي تريد تشويه الحقائق وقلب الأوضاع واتهام الأبرياء لإضعاف أثر أهل البيت عليهم السلام في المجتمع والنيل من مكانتهم السامية في النفوس .

كان دخول الغلاة في صفوف الشيعة خطوة سياسية أوجدتها عوامل متعددة كما أشرنا إلى ذلك ، وفي مقدمتها : النيل من الإسلام . وقد عالج أهل البيت هذه المشكلة الخطرة ، فرفعوا الدوافع التي دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة ، كما اتضحت لهم غايات خصومهم . فكانوا يعلنون للملأ البراءة من الغلو والغلاة ، وجاهروا بلعنهم ، وأمروا شيعتهم بالتبرؤ منهم . وتلقى الشيعة تلك الأوامر بالقبول والامتثال ، فأعلنوا البراءة منهم ، وملأوا كتبهم بلعن الغلاة والتبرؤ منهم . وأفتوا بحرمة مخالطتهم ، وأجمعوا على نجاستهم ، وعدم جواز تغسيل ودفن موتاهم ، وتحريم إعطائهم الزكاة ، ولم يجوّزوا لمن يقول بالغلو أن يتزوج بالمسلمة ، ولا المسلم أن يتزوج بالمغالية ، ولم يورثهم من المسلمين ، وهم لا يرثون منهم .

ولكن يأبى بعض الكتّاب المعاصرين إلاّ الإصرار على الخطأ ، والاستسلام للروح الطائفية ، والسير في ركاب العصبية ، فيتّبعون أهواءهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في حقائق التاريخ ، والاطلاع على

وقائعه من مصادرها الصافية .

وهناك قضية أُخرى أهملت براهين وضعها ، وغضّوا الطرف عن أدلة اختلافها ، فتمسكوا بها ، وهي : قضية عبدالله بن سبأ التي شهدت الوقائع التاريخية بأنّها لا تعرف حادثاً من تلك الحوادث التي أسندها المؤرخون لعبد الله بن سبأ . وقد بسطنا القول فيه في عدة مناسبات ، في بحثنا الموسع عن الإمام الصادق في موارد عديدة من الأجزاء السابقة ، ومواضع كثيرة سقنا خلالها الحجج والأدلة على اختلاق شخصية عبدالله بن سبأ .

لقد نسبوا مبدأ التشيع إلى شخصية وهمية رسمتها السياسة في عصور التطاحن بريشة مصوّر مغرض ، بهدف الطعن على أهل البيت ، الذين هبّ علماؤهم لبيان زيفها مبيّنين أن من العار التماشي مع تلك الأُسطورة لما فيها من احتقار للأمة وتصغير لقدرها ، عندما تصوّر قطيعاً جرى خاضعاً لتقبّل تعاليم ذلك اليهودي وهو عبدالله بن سبأ المخلوق من أهواء السياسة وأغراض التطاحن ، بهدف تمزيق صفوفها وإذهاب ريحها ، وذلك للتفريق بين الأخ وأخيه .

وعلى كل حال لا بد من أن نشير إلى بعض ما جرى للإمام الصادق من محاورات مع أُولئك المنحرفين عن الإسلام ودعاة الإلحاد والزنادقة ، وهي محاورات غنية زخرت بها كتب الكلام والفلسفة ، وسنأتي على ذكرها في الباب الخاص بالبحث عن الجوانب الفكرية في تراث الإمام الصادق ومنهج مدرسته . وهنا نذكر ما كان مع الجعد بن درهم الذي نشأ وكلّه دعوة ضلالة وإلحاد ، كان يغوي الناس ويضلّهم ، وهو من الزنادقة الذين استفحل أمرهم ، وقد أراد أن يوهم الناس بما يبديه من احتيال ، فأخذ قارورة وجعل فيها تراباً وماءاً ، فاستحال ذلك بعد مدة دوداً وهواماً ، فقال لأصحابه : أنا خلقت هذا

لأنني كنت سبب كونه . فأرجف بذلك المرجفون ، ولمّا بلغ الإمام الصادق ذلك قال عليه السلام : «ليقل كم هي ، وكم الذكران منه والإناث ؟ وليأمر الذي يسعى إلى هذا أن يرجع إلى غيره»(١).

قال ابن حجر : فبلغه ذلك ـ أي قول الإمام الصادق ـ فرجع .

دعوة الغلاة

ولعل أكثر الدعوات شرّاً وأسوأها أثراً وأهمها عند الإمام الصادق عليه السلام هي دعوة الغلاة ـ كما قدّمنا ـ الذين طمحوا في تلك العاصفة الهوجاء إلى بثّ روح التفرقة بين المسلمين ، وشاعت أفكارهم تحت ستار حب آل محمّد ليصلوا إلى ما يرمون إليه من إساءة . فبثوا الأحاديث الكاذبة ، وأسندوها إلى حملة العلم من آل محمّد ، وتخلّقوا بأخلاقهم ليتمّوا بها على أتباع أهل البيت عليهم السلام وجاءوا بمفتريات حملوها على مبدأ الشيعة ، وأراد أكثرهم أن يلبس نفسه لباس قدسيّة ، فموّه على الناس بأن له صلة بالإمام الصادق وعلاقة .

وقد أعلن عليه السلام براءته منهم ، ونشر في العالم الإسلامي كذبهم وزيف أقوالهم وقال :

«لا تقاعدوهم ، ولا تواكلوهم ، ولا تصافحوهم ، ولا توارثوهم»(٢).

ومن هذه الفقرات التي أعلنها عليه السلام يتبين لنا شدّة اهتمامه بكشف هؤلاء . وقد جعلهم في عداد الكفّار الذين تحرم مواكلتهم ومصافحتهم ، كما أنه عليه السلام باين بينهم وبين المسلمين بعدم التوارث فكان في هذا الموقف من الشدة ما

(١) لسان الميزان لابن حجر ج٢ ص١٠٥.

(٢) رجال الكشي ص٢٩٧ ح٥٢٥.

يلزم بالتعرف على جذور هذه الدعوة والاطلاع على أسرار معتقداتها وحقيقة أقوالها . وقد قمنا بما نعتقده وافياً بذلك في بحثنا عن هذه الحركة سابقاً . واهتمام الإمام الصادق وحكمه عليهم وعمله على إشاعة هذا الحكم في الأقطار يدلل على عظيم خطر هذه الحركة ، والعمل على فضح ادعائها الحب لأهل البيت .كما أنّ استقراء عداء الإمام الصادق ﷺ لهذه الحركة وموقفه منه يقودنا إلى نتائج ودلالات كثيرة منها :

١ ـ إنّ هذه الحركة تعمد ـ عن طريق الحب العنيف المصطنع ـ إلى تشويه العقائد الإسلامية ، وإشاعة الكفر والزندقة تحت ستار الإسلام .

٢ ـ إنّ هؤلاء الغلاة تنطوي نفوسهم عن بغض دفين للإسلام والمسلمين ، وإنهم قوم يتحينون الفرص للانتقام منه ومنهم ، وقد لمسوا ـ حسب تجاربهم واختلاطهم بالعالم الإسلامي ـ موقع حبّ أهل البيت من نفوس المسلمين ، وعرفوا منزلتهم عند الناس وخضوعهم لهم ، فسلكوا طريق حبّهم الادعائي الكاذب تمهيداً لتنفيذ أغراض خبيثة في نفوسهم ، وكان من أهم ما يقومون به: حركة الإساءة لرجال الإسلام ، ونسبة أشياء إليهم تحطّ بسمعتهم ،كما أنّهم يبذلون قصارى جهدهم في خلق الفوضى في المجتمع الإسلامي ، وبلبلة أفكار الناس بواسطة دعاواهم التي تعارض التوحيد ، وتناقض الإيمان . واختيارهم أشخاص أهل البيت مدخلاً لتحقيق مآربهم وأغراضهم . وتلبّسهم بالولاء وادعائهم التديّن ، ولكن حقيقة ما يدّعون وجوهر ما يدعون إليه مناقض للإسلام ، ومجافٍ لعقائد أهل البيت ﷺ .

٣ ـ إنّ العناصر التي تبنّت هذه الدعوات الضالة ، والتي نشرت الغلو ،كانت ممن ضرب الإسلام مصالحهم ، وضيّع عليهم فرص النفوذ إلى أهدافهم ، وهدّم معالم مجدهم ، وسفّه أحلامهم ، وظهر على أديانهم . وبالطبع فإنّ

هؤلاء لا يدينون للإسلام مخلصين ، بل يحقدون عليه وإن طال الزمن وبَعُد العهد ، فإنهم لا ينظرون إليهم إلاّ بعين الحقد والغضب ، ويضحّون بكل ما يملكونه في سبيل نجاح مؤامراتهم ضده . فما أبعدهم عنه ، وما أشدّ بغضهم لآل محمد! ولكنهم امتزجوا بالمجتمع الإسلامي؛ لأنّ انفصالهم عنه يجعلهم بمعزل عن تحقيق مآربهم ، فتوزّعوا كتائب ، وتفرّقوا جماعات يظهرون حبّ هذا ويقدّسون ذاك ، ويحامون عن هذه الشخصية ، وينظمون إلى ما يعادي الأُخرى ، وهكذا ، ولكن أشد محاولاتهم هي ادّعاء الصلة بأهل البيت؛ لأنّ لأهل البيت أثرهم في الحياة العامة . فهم يميلون إليهم ، ويحاربون أعداءهم ادعاءً وتستراً ليصلوا إلى أهدافهم من خلال أوسع قاعدة . ثم تأتي الجماعات التي تتجه إلى أقرب الشخصيات إليها في مجال السياسة أو صعيد الإقليم ، فتتعلق بها وتخلع عليها صفات القدسية ، وتؤدي لها شعائر العبادة ، وما هي إلاّ فِرَق قديمة أتى الإسلام على وجودها ومحا ذكرها . ولكن من حملهم سوء حظ الأُمة إلى أن يؤرخوا ، ويكون لهم دور في التأثير على الناس لأنهم أتباع الملوك وجنود الظلمة ، أهملوا الحركات التي اتخذت من شخصيات عصرها شعاراً وهم ليسوا من أهل البيت ، وانصبّ جلّ اهتمامهم فيما ابتلي به أهل البيت وشيعتهم من دعاوى الغلاة .

لقد كان في طليعة حركة الإلحاد والزندقة رجال لا ينكر أنهم اتصلوا بمدرسة أهل البيت ، فانكشف حالهم فيما بعد . وهناك آخرون قد ادعوا الاتصال بتلك المدرسة ليضعوا الأحاديث الكاذبة . وقد أعلن الإمام الصادق كذب هؤلاء وبراءته منهم ، وكان على رأس هذه الفرقة : المغيرة بن سعيد . فقد كان يدّعي الاتصال بأبي جعفر الباقر ، ويروي عنه الأحاديث المكذوبة ، فأعلن الإمام الصادق كذبه والبراءة منه ، قال الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه في

قوله تعالى : ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[١] قال «هم سبعة : المغيرة بن سعيد ، وبنان ، وصائد ، والحارث الشامي ، وعبدالله بن الحارث ، وحمزة بن عمارة الزبدي»[٢] .

وكان المغيرة حاذقاً في وضع الأحاديث ، وماهراً في الدس والكذب على أهل البيت ، وإليه تنسب عقيدة تأليه الإمام علي عليه السلام وهو أمر لاغرابة فيه إن صحّ . لأن ليس هناك ما يمنع من قول المغيرة بذلك والدعوة إليه ما دام أحد أركان حركة الغلاة والإلحاد المعادين لأهل البيت ، ولكن الأشهر أنه قال إنه مخلوق ولا بد أن معتقداته حملت على ما اعتقدته الخطابية أو تأثروا بهم فعلاً ، فهم من جنس واحد . يقول الأشعري : إن المغيرة زعم أنه يحيي الموتى بالاسم الأعظم ، وأراهم أشياء من النرنجات والمخاريق[٣] .

لقد حمل أئمة أهل البيت سلاح العقيدة كعادتهم في مواجهة هؤلاء الأعداء الجدد ، واهتموا أشدّ الاهتمام بمقابلة دعاواهم ، وإشعار أصحابهم ومحبيهم بخروج هؤلاء وكفرهم وشذوذهم . فالباقر عليه السلام كان يقول : «برأ الله ورسوله من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان ، فإنهما كذبا علينا أهل البيت»[٤] .

وعن عبدالرحمن بن كثير قال : قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام يوماً لأصحابه : «لعن الله المغيرة بن سعيد ، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق . إن المغيرة كذب على أبي ، فسلبه الله الإيمان . وإن قوماً كذبوا عليّ ما لهم ؟ أذاقهم الله حرّ الحديد . فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا واصطفانا ، ما نقدر على ضرّ ولا نفع ، إن

(١) الشعراء ٢٢١ و٢٢٢.
(٢) رجال الكشي ص٢٩٠ ح٥١١.
(٣) المقالات الإسلامية ج١ ص٧.
(٤) لسان الميزان ج١ ص٧٦.

رحمنا فبرحمته ، وإن عذّبنا فبذنوبنا ، والله ما بنا على الله من حجة ولا معنا من الله براءة ، وأنا لميّتون ومقبورون ومنشورون ومبعثون وموقفون ومسؤولون ، ما لهم لعنهم الله ؟ فلقد آذوا الله ، وآذوا رسوله الله في قبره ، وأمير المؤمنين ، وفاطمة ، والحسن والحسين ، وها أنذا بين أظهركم أبيت على فراشي خائفاً ، يأمنون وأفزع ، وينامون على فراشهم ، وأنا خائف ساهر وَجِل»[1] .

ثم أراد عليه السلام أن يلفت نظر العالم الإسلامي إلى قاعدة لها أهميتها في قبول الرواية عن أهل البيت والعمل بها ، لكي يحول دون حملة الكذب والدسّ عليه وعلى آبائه الكرام ، ويدفع الناس إلى التمحيص والنظر فيما يروى عن الأئمة عليهم السلام فكان قوله القاعدة أشبه ما تكون بالصرخة التي قصد أن يكون دويّها في كل نفس ، وتبلغ عن طريق أصحابه كل قطر ، فقال عليه السلام : «لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة ، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها ، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبينا صلى الله عليه وآله»[2] .

وجملة أقوال الإمام الصادق في المغيرة ، تظهر لنا بوضوح عظيم ألمه وشدة غمّه لما قام به الغلاة ، وما اقترفوه من أكاذيب ، وما اعتقدوه من عقائد الغرض منها الإساءة إلى أهل البيت النبوي الكريم ، وخلق الريب والشكوك في نفوس الناس . ولقد رأينا وصف الإمام الصادق للحال الذي هو عليه بسبب ما قام به الغلاة، فهو عليه السلام ساهر وَجِلٌ يهمّه ما يفعله أولئك الكفرة وما يشيعوه بين الناس من مفتريات وعقائد فاسدة .

---

(١) رجال الكشي ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ ح٤٠٣ .

(٢) رجال الكشي ص٢٢٤ ح٤٠١ .

لقد قلنا إنّ مشكلة الغلاة هي من أدهى ما حلّ بتاريخ العقيدة الإسلامية ، ومن أفظع ما أصاب تاريخ الشيعة ، ولو حسنت النوايا وتجرّدت من سخائم الحقد، لنُظر إلى المشكلة بعموم نشأتها ، لا بخصوص مدّعاها ، وبُحثت على أساس أغراض أصحابها وبواعث رجالها ، فهي إذا دققنا تاريخ نشوئها ومصادر أفكارها ، واعتبر الإنصاف في القول وروعي الحق ، لم تكن حول أهل البيت فحسب ـ كما أشرنا ـ بل إن من أصحاب العقائد الفاسدة الذين هاجت في حناياهم الجذور التي قطع الإسلام عنها ماء الحياة ، فِرَق «الخرمدينية» أصحاب أبي مسلم الخراساني ، ومنهم كان بدء الغلو في القول ، ومعلوم بُعد أبي مسلم عن الإمام الصادق وعدم التقائه به ، وإنما كان أبو مسلم من دعاة العباسيين الخلّص الذين بنوا إيمانهم في الدعوة على أساس ما تعنيه الدعوة إلى آل البيت بحسب ما يضمره العباسيون وما وضعوه في نظامهم السرّي ، وقد قالت هذه الفرقة : إنّ الأئمة آلهة . والأئمة في مفهومهم ليسوا أئمة الهدى من أهل البيت النبوي الذين انعقدت إليهم الإمامة بالنص والوصية ، والذين هم قادة الشيعة ورموز هداها . وقالت هذه الفرقة أيضاً : إنّ الأئمة أنبياء ، وإنّهم رسل ، وإنّهم ملائكة . وهم الذين تكلموا بالأظلة والتناسخ في الأرواح ، وهم أهل القول بالدور في هذه الدار ، وإبطال القيامة والبعث والحساب ، وزعموا أن لا دار إلّا الدنيا ، وأنّ القيامة هي خروج الروح من البدن ودخوله في بدن آخر غيره ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر ، وأنهم مسرورون في هذه الدنيا بالأبدان أو معذّبون فيها ، والأبدان هي الجنان أو هي النار ، وأنهم منقولون في الأجسام الحسنة الإنسية المتنعّمة في حياتهم ، ويعذبون في الأجسام الرديّة المشوّهة من كلاب وقردة وخنازير وحيات وعقارب وخنافس وجعلان محوّلون من بدن إلى بدن

معذبون فيها هكذا ، فهي نعيمهم ونارهم لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأئمتهم ومعصيتهم لهم . إلى آخر أقوالهم الباطلة ومعتقداتهم الفاسدة .

ومن فرق الغلاة «الروندية» الّذين قالوا : إنّ أبا مسلم نبي مرسل يعلم الغيب ، أرسله أبو جعفر المنصور . وقالوا : إن المنصور هو الله ، وأنّه يعلم سرّهم ونجواهم . وأعلنوا القول بذلك ، ودعوا إليه . ولمّا أمرهم المنصور بالرجوع عن قولهم ، قالوا : المنصور ربنا ، وهو يقتلنا شهداء كما قتل أنبياءه ورسله على يد من شاء من خلقه ، وأمات بعضهم فجأة وبالعلل وكيف شاء ، وذلك له يفعل ما يشاء بخلقه لا يُسأل عمّا يفعل[1] . وكانوا يعينون من انتقلت إليه روح آدم ، فيقولون : انتقلت إلى فلان رجل من كبارهم ، وأنّ ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور ، وأن جبرائيل هو فلان ـ رجل آخر منهم ـ ولمّا ظهروا أتوا قصر المنصور ، فطافوا حوله ، وقالوا : هذا قصر ربنا[2] .

إذاً ، فإن حقيقة أفكار الغلاة تقوم على بواعث مختلفة وأغراض عديدة ، لا تمتُّ إلى الإسلام والتوحيد بصلة ، ومن الصحة بمكان القول بأن أخطر جماعاتهم وأكثرها ضرراً هم أولئك الذين استغلوا الصلة بأهل البيت أو انتحلوها ، لأنّ الدخول على المجتمع الإسلامي من خلال الأئمة وسادة أهل البيت يحدث أثراً سيئاً وبليغاً في كيان المجتمع الإسلامي ، ويقرب هؤلاء الكفرة من تحقيق أغراضهم وتنفيذ مآربهم ، فلا عجب أن نرى من

(١) فرق النوبختي ص٣٦ و٥٢ و٥٣ .

(٢) الفخري ص١٤٣

الأئمة مثل هذا الاهتمام ، لأنّ أمر الغلاة أخافهم وأسهرهم وأفزعهم، فلا بد من مقابلة نشاطهم وملاحقة أفكارهم دفعاً للفتنة وحماية للعقيدة ، فكان تشديده على رواية الحديث ، والتأكد من صحة ما يروى عن أهل البيت ، وما صحب ذلك من أقوال له ﷺ في فضحهم وكشف حقيقة دعاواهم في محبة أهل البيت ، إذ يقول ﷺ : «... والله لو ابتلوا بنا ، وأمرناهم بذلك ، لكان الواجب أن لا يتقبلوه ، فكيف وهم يروني خائفاً وجلاً أستعدي الله عليهم ، وأبرأ إلى الله منهم . إني امرؤ ولدني رسول اللهﷺ وما معي براءة من الله ، إن أطعته رحمني ، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً»(١) .

وقال الإمام الصادق لمرازم ـ وهو جار بشار الشعيري أحد دعاة الإلحاد ومن الغلاة ـ : «يا مرازم ، إنّ اليهود قالوا ووحدوا الله ، وإن النصارى قالوا ووحدوا الله ، وإن بشاراً قال قولاً عظيماً ، فإذا قدمت الكوفة فأته وقل له : يقول لك جعفر : يا فاسق ، يا كافر ، يا مشرك ، أنا بريء منك» .

قال مرازم : فلمّا قدمت الكوفة ، فوضعت متاعي وجئت إليه ودعوت الجارية ، وقلت قولي لأبي إسماعيل ، هذا مرازم ، فخرج إليّ . فقلت له : يقول لك جعفر بن محمّد : «ياكافر يا فاسق يا مشرك أنا بريء منك» .

فقال بشار : وقد ذكرني سيدي ؟ قال : قلت : نعم ذكرك بهذا الذي قلت لك .

فقال : جزاك الله خيراً ، وجعل يدعو لي(٢) لقد أراد الإمام الصادق أن يحفظ تراث أهل البيت أيضاً إلى جانب حماية العقيدة ؛ فعمل على ترسيخ

---

(١) رجال الكشي ص٢٢٥ ـ ٢٢٦ ح٤٠٣ .

(٢) انظر الجزء الرابع من الكتاب فصل مشكلة الغلاة . وفيه ذكر رؤسائهم وعوامل نشأة حركاتهم وبحث جوانب النقص في دراسة حركة الغلاة من قبل المؤرخين وموقف الشيعة وأئمتهم من المغالين وغيرها من النقاط ص١٣٥ ـ ١٧٠ .

قاعدة الرواية عن أهل البيت بشروطها فقال : **«فاتقوا الله ولا تقبلوا ما خالف قول ربنا وسنّة نبينا صلى الله عليه وآله»**[(١)] . وهي القاعدة التي قام عليها منهاج مدرسته في العلم والحديث ، والتزمت بها التزاماً شديداً . وقد قال عليه السلام مراراً وتكراراً : **«حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدّي ، وحديث جدّي حديث علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وحديث علي أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ»**[(٢)] .

أضواء من سيرته عليه السلام

قدّمنا فيما سبق نظرة إجمالية لحوادث عصره أو أهمها مما يتعلّق بمنهجه الفكري ومسؤولياته الدينية ومهامه المتعددة ، ونقتبس الآن بعض الأضواء من سيرته عليه السلام ونقدّم شيئاً من الجوانب التي تتصل بالجانب الاجتماعي أو النشاط العام ؛ والعلاقة بين نظرة الفرد المسلم إلى موقعه في المجتمع ، وبين تكوينه الديني وبنائه الأخلاقي .

لقد عُرِفَ الإمام الصادق بحسن البيان ونفاذ البصيرة وكرم الأخلاق وصدق الحديث ، واتّجه إلى الفرد والمجتمع ، وعني بالأوضاع الاجتماعية والخلقية ، ومعالجة ما يعاني منه المجتمع ، وتهيئة وسائل الإعداد والتربية السلوكية والفكرية ، وخلق المناسبات للوعظ والنصح والإرشاد . وكان مقصده يتلخّص في قوله عليه السلام : **«أن يسلم الناس من ثلاثة أشياء كانت سلامة شاملة : لسان السوء ، يد السوء ، وفعل السوء»**[(٣)] .

---

(١) رجال الكشي ص ٢٢٤ ص ٤٠١ .
(٢) الكافي ج١ ص٥٣ ح ١٤ .
(٣) بحار الأنوار ج٧٥ ص١٥٣ ح٦١ .

وكان إقبال الناس عليه لانتهال العلم ، واختلافهم إلى مجلسه قد هيّأ مناخاً دائماً للدعوة ، والعمل على إبراز الجوانب المهمة التي تتكون منها شخصية المسلم . ومن جوانب عظمة شخصية الإمام الصادق وتميّزه في نهجه الإصلاحي ومسيرته الدينية مباشرته ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق بنفسه ، وعمل ما يراه ويحضّ الآخرين على عمله ، وممارسته في الحياة ، فهو بذلك كان بحق المصلح الاجتماعي العظيم ، والمرشد الديني الكبير .فجعل من نفسه قدوة ليحفز الآخرين على اتباعه والاقتداء بفعله . فكان يحث على العمل ، ويعمل بنفسه ، وقد تضافرت الأخبار بأنه كان يعمل بيده ويتجر بماله .

وقد عالج بالدعوة والعمل ظواهر التكاسل وصور الابتعاد عن طلب الرزق ، وما تطور في المجتمع بتأثير حبّ الانقطاع إلى الله ، وقيام الجدل في استحباب الانقطاع التام ، وترك مجال العمل واكتساب الرزق ، لأنه يدعو إلى الانشغال ، وهو من مقوّمات الدنيا . ورأى الإمام الصادق أنّ الإيمان الحق في أن يغدو المسلم إلى عمله كل يوم ، ويكدّ في تحصيل رزقه ، وأن يقوم بدوره في هذه الحياة ، ويرى أنّ قيمة الإنسان في عمله ، إذ لم يرضَ للمسلم البطالة وترك العمل ، وكل ما يدعو إلى الاستهانة بالشخص وتحقيره . وفي الحديث: **«ملعون ملعون من ألقى كَلَّه على الناس ، ملعون ملعون من ترك من يَعُول به»**[(١)] . وقد قرن الإسلام العمل لطلب الرزق للولد وللعيال بما يصلحهم بالجهاد في سبيل الله .

وقال الإمام علي عليه السلام : **«ما غدوة أحدكم للجهاد في سبيل الله بأعظم من غدوة من**

---

(١) الكافي ج٤ ص١٢ ح٦.

يطلب لولده وعياله ما يصلحهم»[١].

وكان الإمام الصادق يروي ما كان جدّه الإمام زين العابدين يفعله ويقول: «كان علي بن الحسين إذا أصبح خرج غادياً في طلب الرزق، فقيل له: يا ابن رسول الله أين تذهب؟

فقال: أتصدّق لعيالي.

قيل له: أتتصدّق؟

قال: من طلب الحلال، فهو من الله عزّ وجلّ صدقة عليه»[٢].

وكان عليه السلام يروي قول جده الإمام زين العابدين عليه السلام: «ضمنت على ربي ألّا يسأل أحد من غير حاجة إلّا اضطرّته المسألة إلى أن يسأل عن حاجته»[٣].

وكان يخاطب أصحابه: «إيّاكم وسؤال الناس، فإنه ذلّ في الدنيا، وفقر تعجّلونه، وحساب طويل يوم القيامة»[٤].

وعلى ضوء هذا الإيمان العميق بالعمل، كان الإمام الصادق يعمل بنفسه ليكون مثالاً لغيره. فقد حثّ على طلب الرزق؛ ليرفع من مستوى أخلاقهم والمحافظة على القيم الروحية لديهم، فكان يسمّي التجارة ودخول السوق بالعزّ، كما يحدّثنا المعلّى بن خنيس قال: رآني أبو عبدالله وقد تأخرت عن السوق، فقال لي: «أغدُ إلى عزّك»[٥].

وقال لآخر ـ وقد ترك غدوّه إلى السوق ـ: «مالي أراك تركت غُدوّك إلى

---

(١) مستدرك الوسائل ج١٣ ص١٣ ح٧.

(٢) فروع الكافي ج٤ ص١٢.

(٣) الكافي ج٤ ص١٩ ح١.

(٤) الكافي ج٤ ص٢٠ ح١.

(٥) من لا يحضره الفقيه ج٣ ص١١٩ ح٥٠٧.

عزك؟» قال : جنازة أردت أن أحضرها . قال : «فلا تدع الرواح إلى عزّك»[١] .

وعن سليمان بن معلى عن أبيه قال : سأل أبو عبدالله عن رجل ـ وأنا عنده ـ فقيل : اصابته الحاجة . قال : «فما يصنع اليوم؟» قيل : في البيت يعبد ربه . قال: «فمن أين قوته؟» قيل : من بعض إخوانه . قال أبو عبدالله : «للذي يقوته أشدّ عبادة منه»[٢] .

وقال لمعاذ ـ بيّاع الأكيسة عندما ترك التجارة : «لا تتركها ، فإنّ تَركَها مذهبةٌ للعقل ، إسعَ على عيالك ، وإياك أن يكونوا هم السعاة عليك»[٣] .

وسأل عن رجل من أصحابه ، فقيل : ترك التجارة وقل شيئه . فاستوى الإمام جالساً ـ وكان متكئاً ـ ثم قال : «لا تدعوا التجارة فتهونوا ، اتّجروا بارك الله لكم» . وقال معاذ : قلت لأبي عبدالله : إني هممت أن أدع السوق ؟ فقال : «إذاً يقسط رأيك ، ولا يُستعان بك على شيء»[٤] .

يحدّثنا أبو عمرو الشيباني : قال رأيت أبا عبدالله الصادق ، وبيده مسحاة يعمل في حائط له ، والعرق يتصبّبُ منه . فقلت : جُعِلْتُ فِداك أعطني أَكْفِكَ . فقال : «إني أحبّ أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس في طلب المعيشة»[٥] .

لقد هدف الإمام عليه السلام إلى أن يزرع حبّ العمل في نفوس الناس ، وأن يدفعهم إلى الاعتماد على أنفسهم من خلال الشعور بالمسؤولية . فإنّ التواكل أو الكسل المتعمّد ظاهرة تحط من قيمة الإنسان ، وتكشف عن نقص في

---

(١) التهذيب ج٧ ص٤ ح١٢.

(٢) الكافي ج٥ ص٧٨ ح٤.

(٣) الكافي ج٥ ص١٤٨ ح٦.

(٤) الكافي ج٥ ص١٤٩ ح١٠.

(٥) الكافي ج٥ ص٧٦ ح١٣.

مستوى وعيه وإدراكه ، وكلما كان المجتمع ينطوي على قاعدة واسعة من الأفراد الذين يدركون قيمة العمل وأهميته في الرخاء ، وتأكيد قدرة الفرد وعدم عجزه ؛ كان ذلك مؤشراً إيجابياً على مستوى الوعي الذي يسود المجتمع ، ومدى تحمل الأفراد لمسؤولياتهم في حفظ البلد والدفاع عن عقائدهم ، فالإسلام بنظامه رعى حقوق العامل بما لم تأت به أي نظم أُخرى .

وعلى أيّ حال فقد كان الإمام الصادق يركّز على تجسيد ضرورة العمل ، وتوضيح العلاقة بين الإيمان وبين الإنتاج . ولقد هدف الإمام الصادق إلى أن يحبط روح الكسل ، ويقضي على التواكل ؛ لأنه يرى في الفرد العامل أنموذجاً للعضو الصالح الذي يؤكد ذاته وموقعه من خلال ما ينتج للمجتمع بما منحه الله تعالى من موهبة وحباه من نعمة . وإيضاحاً للمقام ، وزيادة للمعلومات ، نسوق بعض القضايا التي تبعث في روح المسلم نشاطاً لمواصلة عمله على ضوء سيرة الإمام الصادق عليه السلام .

خرج الإمام الصادق في يوم شديد الحرّ ، فاستقبله عبد الأعلى ـ مولى آل سام ـ في بعض طرق المدينة فقال : يا ابن رسول الله حالك عند الله عزّ وجلّ ، وقرابتك من رسول الله ، تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!

قال عليه السلام : «**يا عبدالأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك**»[1] .

فهو عليه السلام يضرب لعبد الأعلى المثل الأعلى في إعزاز النفس الذي يحققه المسلم من وراء العمل ، وفي نفس الوقت يعكس أولاً أهمية اعتماد المسلم واستغناءه عن الآخرين مهما كانت منزلته وعظمة رتبته . وثانياً: إن استقلال الفرد وكسبه لرزقه يؤكد عزّة نفسه ، ويحفظ كرامته ، ويعيش سعيداً لا يذلّ

(١) الكافي ج٥ ص٧٤ ح٣.

لأحد ، ولا يستهين بكرامته أحد .

* * *

وقد كانت الفترة التي مرّ بها الإمام الصادق قد شهدت نوعاً من التطور الفكري الذي نجم عن التفاعل والحوار بين الحضارات القديمة وبين الفكر الإسلامي ، وأخذ الوضع الاقتصادي بالتدهور نتيجة سياسة القمع والضرائب والنهب التي مارسها الحكام لسدّ متطلبات بذخهم ولهوهم ، وكذلك الولاة فقد أجهدوا الرعية بأخذ الأموال من غير حقها ، كما بيّنا ذلك .

والإمام الصادق في ذلك العصر حاول أن يقود الأمة إلى كل خير ، وفي هذا المجال بالذات يبذل جهده بأن يجعل من الفرد المسلم فرداً متمكناً متجاوزاً عوائق الضيق وآلام الفاقة ، فقام بتوعية الناس لمباشرة العمل وتحبيبه للنفوس ، وبتنمية الشعور بالمسؤولية لكي لا تلجئ الظروف أُولئك الأفراد - الذين فقدوا خيرات بلادهم - إلى الاضطرار للاستجداء من السلطة والركوع على أعتابها والخنوع لها تحت وطأة قسوة ظروف الحياة ومرارة الجوع .

عن هشام بن سالم قال : كان أبو عبدالله إذا أعتم الليل وذهب شطره ، أخذ جراباً فيه خبز ولحم ودراهم ، فحمله على عنقه ، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة ، فقسّم فيهم ولا يعرفونه ، فلما مضى أبو عبدالله ﷺ فقدوا ذاك ، فعلموا أنه كان أبا عبدالله ﷺ [١] .

وعن المعلى بن خنيس[٢] قال : خرج أبو عبدالله ﷺ في ليلة قد رشت - أمطرت - وهو يريد ظلة بني ساعدة ، فاتبعته ، فإذا هو قد سقط منه شيء

---

(١) حلية الأبرار ج٢ ص١٧٨ .

(٢) مولى الإمام الصادق قتله داود بن علي العباسي - والي المدينة - فغضب الإمام الصادق ودعا على الوالي فسمعت الصيحة في داره . انظر الجزء الثاني من الكتاب ص١٩٥ .

فقال: «بسم الله اللهم ردّه علينا» . فقال : فأتيته فسلّمت عليه .

قال : فقال : «معلى» : قلت : نعم جعلت فداك . فقال لي : «التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه إلي» فإذا أنا بخبز منتشر كثير ، فجعلت أدفع إليه ما وجدت ، فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله . فقلت : جعلت فداك : أحمله على رأسي؟ فقال : «لا ، أنا أولى به منك ، ولكن امض معي» قال : فأتينا ظلة بني ساعدة ، فإذا نحن بقوم نيام ، فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين حتى أتى على آخرهم ، ثم انصرفنا . فقلت : جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق ؟ فقال : «لو عرفوه لواسيناهم بالدقة ـ والدقة هي الملح ـ إن الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلّا وله خازن يخزنه ، إلا الصدقة ، فإنّ الرب يليها بنفسه ، وكان أبي إذا تصدق بشيء وضعه في يد السائل ، ثم ارتدّه منه ، فقبّله وشمّه ثم ردّه في يد السائل»[1] .

وإزاء ظاهرة ابتعاد كثيرين عن العلم ، وانزوائهم في بيوتهم منقطعين للعبادة مع تفاقم أزمة العيش ، كان عليه السلام يفضّل العامل على ذلك الفرد المنزوي والمنقطع إلى العبادة . فعندما قيل له : أنّ رجلاً قال لأقعدنّ في بيتي ، ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ الله ، فأما رزقي فسيأتيني .

فقال عليه السلام : «هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجيب الله دعاءهم»[2] .

فالإمام رغم معرفته بأهمية العبادة ، إلّا أنّها لا تجوز إلّا في موقعها في حياة الفرد المؤمن؛ بحيث تكون صلة المؤمن بربّه وهويته وسلوكه . وهوية المؤمن العزّة ، وسلوكه العطاء والعمل .

يقول إسماعيل بن جابر[3] أتيت أبا عبدالله : وإذا هو في حائط «بستان»

---

(١) فروع الكافي ج ٤ ص ٨ و ٩ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٧ ح ١ .

(٣) ذكره الشيخ في الفهرست ص ١٥١ رقم ٣٧٧ وقال له: كتاب ذكر سنده .

له ، وبيده مسحاة ، وهو يفتح بها الماء[1] .

وعن الفضل بن أبي قرة[2] قال : دخلنا على أبي عبدالله في حائط له ، وبيده مسحاة يفتح بها الماء ، وعليه قميص ، وكان يقول : «إنـي لأعمل في بعض ضياعي ، وأن لي من يكفيني ، ليعلم الله عزّ وجلّ أني أطلب الرزق الحلال»[3] .

وكان ﷺ يرمي إلى حمل الناس على الخلال الطيبة والأخلاق الكريمة ليقوم ذلك المجتمع الذي تسوده قيم التكافل والإخاء الديني . فقال ﷺ لبعض جلسائه : «ألا أخبرك بشيء يقرّب من الله ، ويقرّب من الجنة ، ويباعد عن النار؟» فقال: بلى .

قال ﷺ : «عليك بالسخاء ، فإن الله خلق خلقاً برحمته لرحمته ، فجعلهم للمعروف أهلاً وللخير موضعاً ، وللناس وجهاً يسعى إليهم لكي يحيوهم كما يحيي المطر الأرض المجدبة ، أولئك هم المؤمنون بالآخرة ، الآمنون يوم القيامة»[4] .

لقد كان الإمام الصادق ﷺ مثالاً كاملاً لدعاة الاصلاح ، وعَلَماً شامخاً من أعلام رجال الصلاح ، فهو يأمر بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة ، واكتساب الفضائل ، والابتعاد عن الرذائل ، فكان من مأثور أقواله : «يُبني الإنسان على خصال ، فما بني عليه أنه لا يبنى على الخيانة والكذب»[5] .

ولا يدخر ﷺ النصح عن أحد ، وهو من أعظم القادة الذين تحتل سيرتهم مكانة مهمة تنعكس آثارها على الناس والمؤمنين في ظل دعواتهم إلى

---

(١) الكافي ج٥ ص٧٦ ح١١ .

(٢) التفليسي من أصحاب الإمام الصادق انتقل إلى أرمينيا . له كتاب ذكره الشيخ في الفهرست ص١٩٩ رقم ٥٦٧ .

(٣) الكافي ج٥ ص٧٢ ح١٥ .

(٤) بحار الأنوار ج٧١ ص٤١٩ .

(٥) حلية الأولياء ج١ ص١٩٤ .

الخير ، وعلى مرّ التاريخ .

كان من أهم العوامل الحيوية في إنجاح الدعوات واستمرارها هو الإيمان المطلق بالمبادئ ، ومبادرة القادة للالتزام بها في خط من التوافق التام بين الدعوة والسلوك ، ولقد كان سلوك حملة رسالة محمد ﷺ وانتشار الإسلام واتّساع رقعته دليلاً حياً على إيمانهم العظيم بالدعوة ، ومن خلال هذا الترابط بين سلوكية القادة وموقف الناس يمكن أن نلحظ على مدى المراحل التاريخية تأثير الرجال البارزين في نفوس الآخرين ، وانجذابهم إلى صفوف الدعوة .

وقد عرف عن الإمام الصادق عليه السلام أقواله الجامعة وتوجيهاته الشاملة التي تنير الطريق وتهدي إلى الرشاد ، والتي تؤثر في نفوس وسلوك أصحابه .

يقول عليه السلام : «الصلاة قربان كل تقي ، والحج جهاد كل ضعيف ، وزكاة البدن الصيام ، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر»(١) .

وجاء في وصيته عليه السلام لعبد الله بن جندب : «يا أبن جندب ، لو أن شيعتنا استقاموا؛ لصافحتهم الملائكة ، ولأظلّهم الغمام ، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولما سألوا الله شيئاً إلّا أعطاهم . يا ابن جندب بلّغ معاشر شيعتنا وقل لهم: لا تذهبنّ بكم المذاهب ، فوالله لا تنال ولايتنا إلّا بالورع والاجتهاد في الدنيا ، ومواساة الإخوان ، وليس من شيعتنا من يظلم منا برياً»(٢) .

وقد بيّنا في عدّة مواضع ما يكشف لنا طرفاً من الجوانب المهمة من جوانب شخصية الإمام الصادق عليه السلام وقيامه بالدعوة للإسلام ، والتقيد بتعاليمه ،

---

(١) كشف الغمة ج٢ ص٣٩٩ .

(٢) بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٨٠ .

والعمل بأوامره ونواهيه ، والالتزام بالسير على نهج هداه ونور عقيدته؛ فكان التطابق بين المبادئ وبين السلوك من أهمّ صفات حياته ، رغم أنّ أوضاع عصره تبعث الاضطراب في الحياة لاشتداد الصراع الفكري والسياسي . وقد اهتزت أفكار الناس ، فوقف موقف البطل المؤمن بعقيدته ، الذي أعاد بموقفه التوازن في الفكر والسلوك لأفراد الأُمة والمجتمع ، وخفّف من الضغوط والأخطار التي تهدد وجودهما . فقد عانى المجتمع في هذه المرحلة ، وتعرضت الأُمة الإسلامية خلالها إلى سياسات أنهكت الرعية ، وإلى حملات معادية مختلفة اللبوس والإشكال . والخلاصة فإنّ مجمل العوامل التي واجهت الأمة ، وتعرّض لها المجتمع الإسلامي كانت كافية لانتشار القلق والاضطراب وتوغّل جذورهما ، حتى أنّ الناظر إلى الأحداث ـ ولو ببساطة وعجالة ـ يلحظ أنّ فوق عناصر القلق ومظاهر الاضطراب تنمو وترتفع صور لحركة العلم والدعوة الإسلامية تطغى عليها وتكاد تخفيها ، وبصور الدعوة الدينية ومظاهر الحركة العلمية يتمثل موقف الإمام الصادق عليه السلام وبروزه في مجتمعه ، رغم عداء الملوك له ، وعملهم الدائم على إنهاء ذكره . فكان أن اكتسب من التجارب ـ مضافاً إلى جوهر الإمامة ـ ما جعله يعيّن طرق تحاشي الأُمة ضربات الحكّام وتجنّب سيوفهم ورماحهم ، واحتلّ موقعاً في وسط الأحداث هو موقع تكامل وخبرة ، فإنّ في سيرته تتجسد أعلى مستويات الكفاءة والقيادة ، إلى جانب علمه وجهاده .

كان عليه السلام يحرص على أن تكون صلته بأصحابه قوية ومؤثرة . فعن صفوان ، عن خالد بن نجيح قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : «اقرأوا من لقيتم من أصحابكم السلام ، وقولوا لهم : إن فلان ابن فلان يقرئكم السلام . وقولوا لهم : عليكم بتقوى الله عزّ وجلّ ، وما ينال به ما عند الله ، إني والله ما آمركم إلّا بما نأمر به أنفسنا ، فعليكم

بالجد والاجتهاد ، وإذا صلّيتم الصبح وانصرفتم ، فبكّروا في طلب الرزق ، واطلبوا الحلال؛ فإن الله عزّ وجلّ سيرزقكم ويعينكم عليه»[1].

كان في سيرته وسلوكه يمثل جوانب سامية من التواضع والبساطة مع عظمته وعلو شأنه، وكان يعامل الناس بالعطف والتسامح. كل ذلك كان له تأثير في نفوس تلامذته ومريديه، وقد وقف أمام التيارات السياسية يوم اجتاحت البلاد ثورة من جميع جوانبها، وقد دعاه القادة ـ كما أسلفنا ـ الى تولّي الأمر وإسناد الحكم إليه، كما أنّ أبا مسلم الخراساني كتب له يدعوه بأن يدعو الناس الى بيعته، وينتزع الأمر من بني العباس. فأجابه بقوله: «ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني»[2].

وقبل ذلك رجعت رسل أبي سلمة الخلال بالخيبة عندما وجههم بكتاب الدعوة إلى الإمام الصادق بأن يكون الأمر له دون بني العباس . فكان جوابه أن أحرق الكتاب أمام الرسل؛ لأنّه كان يقدّر أبعاد المعركة ، وينظر العواقب ، ويحاول أن يؤثر في انفعالات الناس ، ويقلل من اندفاعهم على طريق تؤدي نهايتها إلى تعريض المسلمين إلى الأخطار ودفع الأبرياء إلى الموت . وذلك لأنّ الظروف غير مواتية ، رغم ظاهر مناسبتها وملائمتها . وسنبحث موضوع موقفه من الثورة مفصلاً في فصل لاحق .

والغرض ، فإنّ وجوده في منصب الإمامة وتبوّأه موقع القيادة والإصلاح يجعله أقرب الأطراف إلى حدّ السيوف ، وأدناهم إلى شبا الرماح ، وهو من أهل البيت الذي ابتلوا بمصالح الرعية ، وجعل فيهم دوام الرسالة المحمدية .

---

(١) الكافي ج٥ ص٧٨ ح٨.

(٢) ينابيع المودة ج٣ ص١٦١.

فمن خصوص أعمالهم مناهضة الظلم ، ومن صميم دعوتهم رعاية أُمور المسلمين ، وهم مكلّفون بما كتب عليهم وقدّر لهم من وجوه المسؤولية والأفعال .

فكان عليه السلام يعمل وحي ذلك ، فلا يرى في ضوء ما يحمله من الأخبار والعلم أن طريق الخلاص في التعرض إلى السلطان ، بل في الابتعاد عن مواطن الأذى وموارد الهلكة ، والوقوف بوجه الظلم والجبّارين بوسائل يضمن نفعها ، ويؤمن سلامة الناس فيها .

كما كان عليه السلام يشدّد على وحدة الأُمة ، ويدعو إلى توثيق روابط الأُخوة الإسلامية وإلى الإلفة والتقارب ، وينهى عن التباغض والتباعد ، ويحاول تأليف القلوب بمختلف الطرق ، ويدرك أثر التكاتف والتآلف . فبذل ماله للقضاء على كل أسباب الخلاف بين المسلمين والعمل على جمع صفّهم وتآلفهم حرصاً على وحدة الكلمة .

قال أبو حنيفة ـ واسمه سعيد بن بيان ـ المعروف بسابق الحاج : مرّ بنا المفضّل بن عمر وأنا وخَتَن لي نتشاجر على ميراث في الطريق ، فوقف علينا ساعة ثم قال لنا : تعالوا إلى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم ، فدفعه إلينا من عنده ، حتى إذا استوثق كل واحد منا صاحبه ، قال المفضّل : أما إنها ليست من مالي ، ولكن أبا عبدالله الصادق أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا أن أصلح بينهما وأفتديهما من ماله ، فهذا مال أبي عبدالله[(١)] .

فكان عليه السلام يتخذ السبل العملية الكفيلة بتحقيق مبادئ الإسلام ، ويستعين برجاله لكي يقضي على عوامل الفرقة ومظاهر الشقاق ، ويحقّق مبدأه الذي

(١) الكافي ج٢ ص٢٠٩ ط٢ .

سار عليه في الإصلاح ، ودعا إلى عدم التعاون مع السلطة ، فنهى عن المرافعة إلى حكّام اتخذوا السلطة غنيمة يستغلونها لأغراضهم ، بعد أن أعلن مقاطعتهم ، وصرّح على ملأ من الناس بأن يرجعوا إلى سلطة الحق وميزان العدل فيما ينشأ بينهم من الخلافات ، فإن سلطة الحق مفتوحة الأبواب ، ومبادئ الدين لا تعطّلها عوائق أو ظروف صعبة ، إذ الإيمان يرسم الخطوط العامة لدور المؤمن والقائد على السواء ، فقال ﷺ : «أيّما رجل منكم كانت بينه وبين أخ له مماراة في حق ، فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبين أخيه ، فأبى إلّا أن يرفعه إلى هؤلاء ، كان بمنزلة الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾[1] .

وعن عمر بن حنظلة ـ من أصحاب الإمام الصادق ـ قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث ، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاة أيحلّ ذلك؟

قال الإمام الصادق : «من تحاكم إليهم في حق أو باطل ، فإنما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه ، وما حُكم له به ، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً له؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت ، ومن أمر الله عزّ وجلّ أن يُكفر به ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾» .

قلت : فكيف يصنعان وقد اختلفا؟

قال ﷺ : «ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فليرضيا به حكماً ، فإني قد جعلته عليكم حاكماً ، فإذا حكم بحكم ولم

(١) التهذيب ج٦ ص ٢٢٠ ح٥١٦، والآية في سورة النساء ٦٠.

يقبله منه ، فإنما بحكم الله استخفّ وعلينا ردّ . والرادّ علينا كافر ورادّ على الله ، وهو على حدّ من الشرك بالله»[1] .

والتوعية التي هدف الإمام إليها ، والتعبئة التي قام بها كانت تنزع عن السلطة قاعدتها ، وتضع الحواجز بينها وبين الناس ، وتكشف للمسلمين انغماس الحكّام في ملاذهم ، ومدى ابتعادهم عن الإسلام واستعدادهم لإنزال الأذى بالمسلمين ، واستخدام قوتهم الغاشمة . فقرّر الإمام أن يباشر دعوة الحق ، ويقوم بإعداد الأُمة ، ويتبنى مهمة الإصلاح إلى حين استكمال عوامل الثورة ـ ولأنه لا يرى ما يراه الآخرون من ملائمة الظرف ـ أصرّ على هذا النهج حمايةً لأرواح المسلمين ، لأنّ إعلان الثورة كان يعني سفك الدماء على أيدي الحكّام الذين يتمتعون بالقوة ويتصفون بالقسوة ولا يتورعون عن انتهاك المحارم وإزهاق الأرواح في سبيل الحفاظ على سلطانهم وصيانة ملكهم ، ثم إنّ النفوس امتلأت جراحاً ، والأمر كما تبينه الأخبار وتعينه الآثار ، فالإمامة معقودة لرعاية الدين وحماية العقيدة ، والأحداث تجري على نماذج من التضحيات ، وأمثال من المواقف التي تشحذ الهمم وتؤجج المشاعر ، والخلافة العظمى بإمامتها الروحية تتبوأ المحل الذي وضعها الله فيه . ولكل فترة دور وحال .

وعلى ذلك يفسّر الإمام الصادق قول الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[2] فيقول : «إنّ رسول الله ﷺ لما أخرجته قريش من مكة ، وهرب منهم إلى الغار ، وطلبوه ليقتلوه فعوقب ، ثم في بدر

(١) الكافي ج٧ ص٤١٢ ح٥ .
(٢) الحج ٦٠.

عاقب ، لأنه قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل وغيرهم ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام وبقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغياً وعدواناً، وقائلاً شعراً:

ليت أشياخي ببدر شهدوا (جزع) الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى : ﴿لينصرنه الله﴾ . يعني بالقائم المهدي من ولده عليه السلام»[١] .

ومن المعلوم أنّ التقية كانت من دين الإمام الصادق ، جعلها في مكان من عمله رفيع وبارز لاتقاء شرور الحكّام ودفع ظلمهم ، إلى ما فيها من الإبقاء على الصلات بالأولياء الحقيقيين الذين يتخذهم المسلمون بإيمان ونص من دين الله ، وإلّا فإنّ الحديث عن بني العباس صريح تصرخ به أفعالهم وتصرّح به سياستهم .

* * *

وفي سيرة الإمام الصادق تتمثّل أيضاً الأعمال التي على المصلح الديني أن يقوم بها ، والاتّجاه إلى الإصلاح بالعمل الديني يقود إلى الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي ، وقد قلنا إنّ الإمام الصادق كان يقرن دعوته بصور عملية؛ حيث يبادر بنفسه إلى العمل لكسب الرزق ، ويكفّ نفسه عمّا نهى الله عنه ، فيجد المسلم في سلوك الإمام تطابقاً تامّاً وائتلافاً كاملاً يجسّد العقائد والمبادئ والأفكار التي يدعو إليها ، فيطمئن الناس إلى صدق النية ؛ ويقبلون على عالم

(١) ينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ص ٥١٠ .

من القول والعمل فيه القربة إلى الله لنيل رضاه وفيه السلامة في الدنيا لنيل السعادة .

سئل ﷺ عن قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[1] ؟ فقال : «إنّ الله سبحانه يقول للعبد يوم القيامة : عبدي : أكنت عالماً ؟ فإن قال : نعم . قال له : أفلا عملت بما علمت ؟ وإن قال : كنت جاهلاً . قال : أفلا تعلّمت حتى تعمل ؟ فيخصم . فتلك الحجة...»[2] .

ويسعى الإمام الصادق ﷺ إلى معالجة الشذوذ في التصرفات التي تحدث بدافع الجهل ، فإن كانت لأجل الإساءة إلى الدين والطعن في العقائد ، فإنّها تدخل في جملة القضايا والأعمال التي يستهدفها جهده ﷺ في حملة فكرية وعقلية يقابل بها أفكار الزندقة والإلحاد وأهل الأهواء والآراء . وإذا تحدّث جمع بين التفسير والوعظ والوقائع . وإليك ما يضمّ خلاصة ما قدّمناه .

قال ﷺ في قوله عز وجل : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ «يقول : إرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبّتك ، والمبلّغ إلى جنتك من أن نتّبع أهواءنا فنعطب ، ونأخذ بآرائنا فنهلك ، فإنّ من اتبع هواه وأُعجب برأيه كان كرجل سمعتُ غثاء الناس تعظّمه وتصفه ، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحلّه ، فرأيته في موضع قد أحدق به جماعة من غثاء العامة ، فوقفت منتبذاً عنهم ، متغشياً بلثام أنظر إليه وإليهم ، فما زال يراوغهم حتى خلف طريقهم وفارقهم ، ولم يقرّ ، فتفرّقت جماعة العامة عنه لحوائجهم ، وتبعته أقتفي أثره ، فلم يلبث أن مرّ بخباز ، فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة ، فتعجبت منه ، ثم قلت في نفسي : لعله معامله . ثم مرّ بعده بصاحب رمان ، فما زال به حتى تغفله

(١) الأنعام ١٤٩.

(٢) تفسير نور الثقلين ج١ ص٧٧٥ ـ ٧٧٦.

فأخذ من عنده رمانتين مسارقة ، فتعجبت منه ، ثم قلت في نفسي : لعله معامله . ثم أقول : وما حاجته إذاً إلى المسارقة ؟ ثم لم أزل أتبعه حتى استقرّ في بقعة من صحراء . فقلت له : يا عبدالله لقد سمعت بك ، وأحببت لقاءك ، فلقيتك لكني رأيت منك ما شغل قلبي ، وإني سائلك عنه ليزول به شغل قلبي .

قال : ما هو ؟

قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين ، ثم بصاحب رمان فسرقت منه رمانيتن؟

فقال لي : قبل كل شيء حدثني من أنت ؟

قلت : رجل من ولد آدم من أمة محمد صلى الله عليه وآله .

قال : حدثني ممن أنت ؟

قلت : رجل من أهل بيت رسول الله .

قال : أين بلدك ؟

قلت : المدينة .

قال : لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام .

قلت : بلى .

قال لي : فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرّفت به ، وتركك علم جدك وأبيك ، لأنه لا ينكر ما يجب أن يحمد ويمدح فاعله :

قلت : ما هو ؟

قال : القرآن كتاب الله .

قلت : وما الذي جهلت ؟

قال : قول الله عزّ وجلّ : ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا

يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[١] وإنّي لمّا سرقت الرغيفين ،كانت سيئتين . ولمّا سرقت الرمانتين ،كانت سيئتين . فهذه أربع سيئات . فلمّا تصدّقت بكل واحد منها كانت أربعين حسنة ، أنقص من أربعين حسنة أربع سيئات ، بقي ست وثلاثون .

قلت : ثكلتك أمك ، أنت الجاهل بكتاب الله ، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٢] إنك لمّا سرقت رغيفين ،كانت سيئتين ، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين . ولما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع ، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات . فجعل يلاحيني ، فانصرفت وتركته»[٣] .اهـ .

الشذوذ في الأعمال استدعى من الإمام ما رأيناه من ملاحظة وتتبع : أما الوجه الآخر فهو الجهل الحقيقي الذي يدور بين الناس على شكل أشخاص يدّعون العلم بالكتاب والفهم بالدين ، وهو وجه يسبّب أخطاراً وأخطاءاً تجرّئ الناس على النصوص والأحكام ، وتضع عراقيل تؤثر في سير دعوة الإمام الصادقعليه السلام .

ويروى للإمام الصادق تعقيب يبيّن ما ترتّب على ذلك من أضرار في تاريخ الإسلام ، فيقول عليه السلام : «بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يَضِلّون ويُضِلّون...»[٤] . فقد لجأ الظالمون والبغاة إلى مثل ذلك وأباحوا لأنفسهم التقوّل على الله ، والكذب على النبي الكريم .

---

(١) الأنعام ١٦٠ .

(٢) المائدة: ٢٧ .

(٣) معاني الأخبار ص٣٣ ـ ٣٥، والاحتجاج ج٢ ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) معاني الأخبار ص٣٣ ح٤ .

لقد اهتم الإمام الصادق بالأصحاب الذين ينقلون عنه الحديث ، وبالأقارب الذين يعملون بنهجه في طبقات المجتمع ، ويجنّدون أنفسهم لدعوة الإصلاح والتمسّك بالدين ، ويعني بطريقة مخاطبتهم الناس ، وأسلوب حملهم على العمل بالفرائض والأحكام . قال الإمام الصادق لأحد أصحابه : «وضع الإسلام على سبعة أسهم : على الصبر والصدق واليقين والرضاء والوفاء والعلم والحلم . ثم قسم ذلك بين الناس ، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل الإيمان محتمل ، وقسم لبعض الناس السهم ، ولبعض السهمين ، ولبعض الثلاثة أسهم ، ولبعض الأربعة أسهم ، ولبعض الخمسة أسهم ، ولبعض الستة أسهم فلا تحملوا على صاحب السهم سهمين ، وعلى صاحب السهمين ثلاثة أسهم ، وعلى صاحب الثلاثة أربعة أسهم ، ولا على صاحب الأربعة خمسة أسهم ، ولا على صاحب الخمسة ستة أسهم ، ولا على صاحب الستة سبعة أسهم ، فتثقلوهم وتنفّروهم ، ولكن ترفّقوا بهم ، وسهّلوا لهم المداخل . وسأضرب لك مثلاً تعتبر به : إنه كان رجل مسلم ، وكان له جار كافر (وفي رواية نصراني) وكان الكافر يرفق بالمؤمن ، فأحب المؤمن للكافر الإسلام ، ولم يزل يزيّن الإسلام ويحببه إلى الكافر حتى أسلم ، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله ، فذهب به إلى المسجد ليصلّي معه الفجر في جماعة ، فلمّا صلّى قال له : لو قعدنا نذكر الله عزّ وجلّ حتى تطلع الشمس . فقعد معه ، فقال له : لو تعلّمت القرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليوم كان أفضل . فقعد معه وصام حتى صلى الظهر والعصر . فقال له : لو صبرت حتى تصلي المغرب والعشاء الآخرة . ثم نهضا وقد بلغ مجهوده ، وحمل عليه ما لا يطيق . فلما كان من الغد ، غدا عليه وهو يريد به مثل ما صنع بالأمس ، فدق عليه بابه ، ثم قال : أخرج حتى تذهب إلى المسجد . فأجابه : أن انصرف عني ، فهذا دين لا أطيقه»[1] .

(١) الاثني عشرية في المواعظ العددية، للحافظ العيناثي الجزيني ص٢٥٢ .

وعن عقبة بن خالد[1] : دخلت أنا والمعلى وعثمان بن عمران على أبي عبدالله ﷺ فلما رآنا قال : «مرحباً مرحباً بكم ، وجوه تحبّنا ونحبّها ، جعلكم الله معنا في الدنيا والآخرة» فقال له عثمان : جعلت فداك . فقال أبو عبدالله ﷺ : «نعم مَه» قال: إني رجل موسر ، فقال له : «بارك الله لك في يسارك» وقال : ويجيء الرجل فيسألني الشيء ، وليس هو إبان زكاتي . فقال له أبو عبدالله ﷺ : «القرض عندنا بثمانية عشر ، والصدقة بعشرة ، وماذا عليك إذا كنت كما تقول لا تردّه ، فإن ردّه عند الله عظيم . يا عثمان ، إنك لو علمت ما منزلة المؤمن من ربّه ما توانيت في حاجته ، ومن أدخل على مؤمن سروراً ، فقد أدخل على رسول الله ﷺ»[2] .

وبهذه السيرة والتعاليم يقيم الإمام الصادق واقعاً محسوساً ومعاشاً من الإلفة والتعاون والتكافل ، وفي كل جانب من حياته اليومية عليه سيماء الدين وصبغة الفقه والدعوة الإسلامية ؛ فلا غرو أن تجده مهوى أفئدة محبّي الحكمة ، ومقصد طلاب العلم ،كما نجده ملجأ المحتاجين ،فهو ﷺ لا يكتفي بتهيئة أصحابه ومحبيه لأداء ما أمر به الإسلام من حقوق للفقراء ، بل يجعل من بيته أيضاً المقام الأول الذي تجري فيه تطبيقات أحكام الإسلام وتعاليمه .

جاء إليه ﷺ رجل فقال له : يا أبا عبدالله ، قرض إلى ميسرة . فقال له أبو عبدالله ﷺ : «إلى غلّة تدرك؟» فقال الرجل : لا والله . قال «فإلى تجارة تؤوب؟» قال : لا والله . قال : «فإلى عقدة تباع؟» فقال : لا والله . فقال أبو عبدالله ﷺ : «فأنت ممن جعل الله له في أموالنا حقاً» . ثم دعا بكيس فيه دراهم ، فأدخل يده

---

(١) عقبة بن خالد الأسدي الكوفي من أصحاب الإمام الصادق، رجال النجاشي ص٢٩٩ رقم ٨١٤.

(٢) الكافي للكليني ج٤ ص٣٤ ح٤.

فيه ، فناوله منه قبضة(١) .

ويدعو عليه السلام إلى أن يسعى المؤمن في حاجة أخيه ، ويظهر شديد اهتمامه في التكاتف والتكافل الذي دعا إليه الإسلام ، ويبيّن جزاء ذلك عند الله؛ ليصبح عمل المسلم في إطار مجتمعه عملاً دينياً وله الصفة الشرعية . فمن أقواله عليه السلام : **«قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة ، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله»**(٢) .

وكذلك قوله عليه السلام : **«لقضاء حاجة امرىء مؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها ، وعتق ألف رقبة»**(٣) .

ومن المعلوم أنّ الإمام الصادق في حضّه على إقامة العلاقات بين المسلمين على مثل هذه الصورة من التعاون والمساعدة ، يعالج في أعماله وأقواله تلك الظاهرة التي أشرنا إليها سابقاً من الانصراف إلى الأعمال العبادية ، أو الانقطاع عن طلب الرزق تحت تأثير فهم محدود ، أو حالة خاصة ، والتي تشمل أيضاً أداء المناسك والأعمال الخيرية بقصد التظاهر وتمدّح الناس والسمعة . وهنا محكّ هام يضعه الإمام عليه السلام لتوجيه المجتمع إلى الرفاه والتآلف .

وترى الإمام الصادق يزيد في القول من ذكر المعروف وفضله؛ ليحبّب إلى الناس فعل الخير ويشيعه بينهم ، وهو يبدأ بالدعوة إلى المعروف بدون تقييده ، فيقول عليه السلام داعياً أصحابه : **«إصنع المعروف إلى كل أحد ، فإن كان أهله**

---

(١) بحار الأنوار ج٧٥ ص٣٠٢.
(٢) الكافي ج٢ ص١٩٣ ح٣.
(٣) الكافي ج٢ ص١٩٣ ح٤.

وإلا فأنت أهله»[١].

ثم يتجه في دعوته إلى عمل المعروف بين المؤمنين فيقول : «أيما مؤمن أوصل إلى أخيه المؤمن معروفاً ، فقد أوصل ذلك إلى رسول الله ﷺ»[٢].

ومن صور حثّه على المعروف قوله ﷺ : «ليس شيء أفضل من المعروف إلّا ثوابه»[٣].

ثم يضع الإمام الصادق لهذا العمل ـ الذي يكشف عن حبّ الخير في نفس المؤمن ؛ وعن روح المحبة في صدر المسلم ـ شروطاً ، فيرى أنّ المعروف لا يصلح إلّا بثلاث خصال : «تصغيره في ستره ، وتعجيله ، فإن المسلم إذا صغّره عظّمه عند من صنعه إليه ، وإذا ستره تمّمه ، فإذا عجله هنأه ، وإن كان غير ذلك محقه ونكده»[٤].

أمّا الزكاة فإنّ الإمام الصادق ﷺ فيما استفاض عنه من أخبار يشرح وجوبها وعلل فرضها ، ويبدأ بمن وجبت عليه ليؤدي ما افترض الله عليه . قال ﷺ لعمّار بن موسى الساباطي[٥] : «يا عمار أنت ربّ مال كثير؟» قال : نعم ، جعلت فداك . قال : «فتؤدي ما افترض الله عليك من الزكاة؟» فقال : نعم . قال : «فتخرج الحق المعلوم من مالك؟» قال : نعم . قال : «فتصل قرابتك؟» قال : نعم . قال: «فتصل إخوانك؟» قال : نعم . فقال: «يا عمار إن المال يفنى ، والبدن يبلى ، والعمل يبقى ، والديّان حيّ لا يموت . يا عمّار أما أنه ما قدمت فلم يسبقك ، وما

(١) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٣٠ ح١١٠.
(٢) ثواب الأعمال للصدوق ص٢٠٣ ح١.
(٣) الكافي ج١ ص٢٦ ح٣.
(٤) فروع الكافي ج٤ ص٨.
(٥) من أصحاب الإمام الصادق والإمام الكاظم، أخواه قيس وصباح كانوا جميعهم من الثقات، رجال النجاشي ص٢٩٠ رقم ٧٧٩، خلاصة الأقوال للعلامة الحلي ص٣٨١.

أخرت فلن يلحقك»[1].

ويبيّن الإمام الصادق علّة فرض الزكاة ووجوبها فيقول: «إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء، ومعونة للفقراء. ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم محتاجاً ولا مستغني بما فرض الله عزّوجلّ له، وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله عزّ وجلّ أن يمنع رحمته من منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق إنه ما ضاع مال في برٍ ولا بحرٍ إلّا بترك الزكاة، وما صيد صيد في برٍ ولا بحرٍ إلّا بترك التسبيح في ذلك اليوم. وإن أحب الناس إلى الله عزّ وجلّ أسخاهم كفّاً، وأسخى الناس من أدّى الزكاة في ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله عزّ وجلّ لهم في ماله...»[2].

وعن زرارة[3] ومحمد بن مسلم[4] أنّهما قالا لأبي عبدالله عليه السلام: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[5] أكلّ هؤلاء يعطي وإن كان لا يعرف؟ فقال: «إن الإمام يعطي هؤلاء جميعاً لأنهم يقرون له بالطاعة». قال زرارة: قلت: فإن كانوا لا يعرفون؟ فقال: «يا زرارة، لو كان يعطي من يعرف دون من لا يعرف، لم يوجد لها موضع. وإنما يعطي من لا يعرف

(١) فروع الكافي ج٣ ص٥٠١ ح١٥، ومن لا يحضره الفقيه للصدوق ج٢ ص٣ ح٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٤ ح٦.

(٣) زرارة بن أعين الشيباني من أصحاب الإمام الباقر والصادق قال النجاشي (شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدمهم. قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين) ابنه محمد ثقة روى عنه جماعة، رجال النجاشي ص١٧٥، رقم ٤٦٣.

(٤) محمد بن مسلم بن رباح أبو جعفر الأوقص الطحّان فقيه ثقة. من أصحاب الباقر والصادق، رجال النجاشي ص٣٢٣ رقم ٨٨٢.

(٥) التوبة ٦٠.

ليرغب في الدين، فيثبت عليه، فأما اليوم فلا تعطها أنت وأصحابك إلّا من يعرف، فمن وجدت من هؤلاء المسلمين عارفاً؛ فأعطه دون الناس» ثم قال: «سهم المؤلفة قلوبهم وسهم الرقاب عام، والباقي خاص» قال: قلت: فإن لم يوجدوا؟ قال: «لا تكون فريضة فرضهاالله عز وجل، ولا يوجد لها أهل» قال: قلت: فإن لم تسعهم الصدقات؟ قال فقال: «إن الله عزوجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم، إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّوجلّ، ولكن أوتوا من قبل من منعهم حقهم، لا مما فرض الله لهم، ولو أن الناس أدّوا حقوقهم لكانوا عائشين بخير، فإما الفقراء فهم أهل الزمانة والحاجة، والمساكين أهل الحاجة من غير الزمانة، والعاملون عليها هم السعاة، وسهم المؤلفة قلوبهم ساقط بعد رسول الله ﷺ، وسهم الرقاب يعان به المكاتبون الذين لا مأوى له ولا مسكن، مثل المسافر الضعيف ومارّ الطريق. ولصاحب الزكاة أن يضعها في صنف دون صنف متى لم يجد الأصناف كلها»(١).

وعن عمار الساباطي قال: قال لي أبو عبدالله ﷺ «يا عمار الصدقة والله في السرّ أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السرّ أفضل منها في العلانية»(٢).

وقال ﷺ: «إنّ الصدقة تقضي الدين، وتخلف البركة»(٣).

وتضعنا أقوال الإمام الصادق إزاء الغرض الذي يسعى إليه، ويعمل من أجل تحقيقه، وهو صورة المجتمع المسلم الذي تنفذ فيه أحكام الإسلام وتطبق تعاليمه، وهو ﷺ في طريقة الدعوة وأسلوب الحثّ على هدى آبائه الطيبين في البناء والصياغة، فنراه يقول ليحبّب الصدقة ويحفّز على التصدق:

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٢ ح٤.

(٢) الكافي ج٤ ص٨ ح٢.

(٣) الكافي ج٤ ص٩ ح١.

«إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان»[١].

ثم يسوق هذه الحادثة: «مرّ يهودي بالنبي ﷺ فقال: السام عليك. فقال له رسول الله ﷺ: عليك. فقال أصحابه: إنما سلم عليك بالموت؟ قال: الموت عليك. قال النبي ﷺ: كذلك رددت عليه. ثم قال ﷺ: إن هذا اليهودي يعضّه أسود[٢] في قفاه، فيقتله. قال: فذهب اليهودي، فاحتطب حطباً كثيراً، فاحتمله، ثم لم يلبث أن انصرف. فقال له رسول الله ﷺ: ضعه. فوضع الحطب، فإذا أسود في جوف الحطب عاضٌ على عود. فقال: يا يهودي ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت عملاً إلّا حطبي هذا احتملته وجئت به وكان معي كعكتان، فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين. فقال رسول الله ﷺ: بها دفع الله عنك»[٣].

ومن وجوه عمله على سدّ حاجة الفقراء، وضمان ما يقيم صلبهم بأداء ما أمر به الله ودعا إليه الإسلام، مخاطبته أصحابه بما يريد منهم أن يفعلوه. وهو عندما يصدر منه؛ فإنّ الأصحاب والمحيطين به ينظرون إلى قوله نظرة الأمر، لأنه إمام مفترض الطاعة، وهم بظل إمامته يتفيأون، وينهج هداه يعملون، فيخاطبهم عليه السلام: «بكّروا بالصدقة ورغّبوا فيها، فما من مؤمن يتصدق بصدقة يريد بها ما عند الله ليدفع بها عنه شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم، إلّا وقاه الله شرّ ما ينزل من السماء إلى الأرض في ذلك اليوم»[٤].

---

(١) الكافي ج ٤ ص ٥ ح ٣.
(٢) الأسود هو العظيم من الحيات، وفيه سواد والجمع الأساود، الصحاح ج ٢ ص ٤٩١.
(٣) فروع الكافي ج ٤ ص ٥ ح ٣.
(٤) الكافي ج ٤ ص ٥ ح ٦.

وقال عليه السلام : «استنزلوا الرزق بالصدقات ، وحصّنوا أموالكم بالزكاة»[١] .

وبالإسناد عن أبان بن تغلب أنه[٢] أمره أن يقطع الطواف ، ويذهب إلى رجل أشار إلى أبان ليرى حاجته . قلت : فأقطع الطواف ؟ قال عليه السلام : «نعم» قلت: وإن كان طواف فريضة ؟ قال عليه السلام : «نعم» .

قال : فذهبت معه ، ثم دخلت عليه بعد ، فسألته ، فقلت : أخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ قال عليه السلام : يا أبان ، دعه لا تزده ؛ قلت : بلى ، جعلت فداك . فلم أزل أردد عليه .

فقال عليه السلام : «يا أبان أن تقاسمه شطر مالك» ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني ، فقال : «يا أبان ، أما تعلم أن الله عزّ وجلّ قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟» قلت : بلى جعلت فداك .

فقال: «إذا قاسمته لم تؤثره بعد ، إنما أنت وهو سواء ، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف الآخر»[٣] .

ويقول لأصحابه : «إنّ صدقة الليل تطفئ غضب الرب ، وتمحو الذنب العظيم ، وتهوّن الحساب . وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر . إن عيسى بن مريم عليه السلام لمّا أن مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته في الماء . فقال له بعض الحواريين : يا روح الله وكلمته لم فعلت هذا وإنما هو من قوتك؟ فقال : فعلت هذا لدابة تأكله من دواب الماء ، وثوابه عند الله عظيم»[٤] .

---

(١) حلية الأولياء ج٣ ص١٩٥.

(٢) أبان بن تغلب الربعي من تلامذة الإمام الصادق وأصحابه المقربين . ذكر له ابن النديم كتاب: معاني القرآن والقراءات وكتاباً من الأصول على مذهب الشيعة .

(٣) بحار الأنوار ج ٧١ ص ٢٤٩ .

(٤) الكافي ج٥ ص٨ ح٣.

ويروي عليه السلام من أحاديث جدّه النبي صلى الله عليه وآله في ذلك الكثير منها، قال عليه السلام: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تصدّقوا فإن الصدقة تزيد في المال كثرة»**(١) .

وقال عليه السلام: **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله لا إله إلّا هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة**(٢) **والحرق والغرق والهدم ، وعدَّ سبعين باباً من السوء»**(٣) .

فكيف يتوانى المسلم عن ثواب ذلك وفوائده الدنيوية والأخروية وهو يسمع بأُذنيه هذه الأحاديث والأحداث . ويرى أمام عينيه مبادرة الإمام إلى تطبيق تعاليم الإسلام ، ومباشرته بنفسه سدّ حاجة الناس؟ ويراعي الإمام مشاعر الناس ، ومنهم طائفة ترى في أخذ الزكاة حطاً من مكانتها ، وتخجل أن يكون قبولها إمارة عوز وفقر ، فأمر عليه السلام أن يعطي من يستحيي ، ولا تسمّ له الزكاة لكي لا يذلّ المؤمن .

وقال عليه السلام: **«لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ، ما سأل أحد أحداً ، ولو يعلم المسؤول إذا منع ، ما منع أحد أحداً»**(٤) .

ونضع آخر قبس من سيرته الكريمة عليه أفضل الصلاة والسلام أمام القارئ الكريم ، وفيها جوامع النظرة ومضامين الفكرة . فعن المعلى بن خنيس(٥) قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام: ما حق المسلم على المسلم؟ قال: **«سبعة حقوق وواجبات ما منهنّ حق إلّا وهو عليه واجب ، إن ضيّع منها شيئاً خرج من ولاية**

---

(١) الكافي: ج٥ ص٩ ح٢.

(٢) الدبيلة: الداهية . في الصحاح: هي مصغرة للتكبير يقال (دبلتهم الدبيلة) أي أصابتهم الداهية .

(٣) فروع الكافي ج٥ ص٢٠ ح٢.

(٤) فروع الكافي ج٥ ص٢٠ ح٣.

(٥) أبو عبدالله مولى الإمام الصادق كان مولى لبني أسد في الكوفة . قتله داود بن علي والي المدينة فغضب الإمام الصادق ودعا على داود بن علي فما أستتم دعاؤه عليه السلام حتى سمعت الصيحة في دار داود راجع الصفحة ٥٢ من الكتاب.

الله وطاعته ، ولم يكن لله فيه من نصيب» قلت له: جعلت فداك وما هي؟ . قال: «يا معلّى إني عليك شفيق ، أخاف أن تضيّع ولا تحفظ ، وتعلم ولا تعمل» قال قلت له: لا قوة إلّا بالله . قال: «أيسر حق منها أن تحبّ له ما تحبّ لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك . الحق الثاني: أن تجتنب سخطه ، وتتبع مرضاته ، وتطيع أمره . والحق الثالث: أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك . والحق الرابع: أن تكون عينه ودليله ومرآته . والحق الخامس: أن لا تشبع ويجوع ، ولا تروى ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى . والحق السادس: أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعث خادمك ، فيغسل ثيابه ، ويصنع طعامه ، ويمهد فراشه . والحق السابع: أن تبرّ قسمه ، وتجيب دعوته ، وتعود مريضه ، وتشهد جنازته ، وإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ، ولا تلجأه أن يسألكها ، ولكن تبادره مبادرة . فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايتي بولايتك»(١) .

ونختم ما يحتمله وسع هذا الفصل بالإشارة إلى تصدّي الإمام الصادق إلى تحقيق هذه الجوانب الحياتية التي تستمد من العقيدة بشعور الزعامة الروحية وقيادة شؤون تنفيذ هذه التعاليم ، فهو ﷺ جعل أمر الحاجة عند المؤمن ومساعدة الضعفاء منهم خاصاً به وشأناً يمسّه .

كان عنده جماعة من أصحابه ، فقال لهم: «مالكم تستخفون بنا؟» فقام إليه رجل من أهل خراسان فقال: معاذ الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك .

فقال: «إنك أحد من استخفّ بي» .

فقال الرجل: معاذ الله أن أستخفّ بك .

فقال ﷺ: «ويحك! ألم تسمع فلاناً ـ ونحن بقرب الجحفة ـ وهو يقول لك إحملني قدر ميل؟ فقد والله أعييت . فوالله ما رفعت له رأساً ، لقد استخففت به ، ومن

(١) الكافي ج٢ ص١٦٩ ح٢ .

استخفّ بمؤمن فبنا استخفّ ، وضيّع حرمة الله عزّ وجلّ»[1] .

وبذلك يجعل عليه السلام إعانة المؤمن ومساعدة الضعيف على اختلاف وجوههما وأحوالهما متصلة بمنزلته عليه السلام ، واستخدامه لصيغة الجمع تأكيد لعظيم هذا الجانب من حياة المجتمع وخطر هذا الوجه من العلاقات بين المؤمنين.

وإلى هنا نكتفي بما قدمناه من قبسات من سيرة الإمام الصادق ، ونظرة سريعة إلى ظروف عصره وأحداثه ، فقد ضمّت الأجزاء السابقة من الكتاب مزيداً من البحث وبسطنا فيه القول .

ونتحول الآن إلى مدرسة الإمام الصادق عليه السلام لنقف على الجهود العلمية التي بذلها عليه السلام ونتعرف على تفاصيل أُخرى عن منهج هذه الجامعة الإسلامية الكبرى التي أمّها علماء الأُمة من مختلف الأقطار ، وتتلمذ فيها كبار الأئمة ، وهي المأثرة العظمى والمفخرة الكبرى التي تدلل بآثارها ونتائج أعمالها على دور الإمام الصادق في حفظ التراث العلمي الإسلامي وإغنائه .

(١) بحار الأنوار ج٨٦ ص ٢٧٤.

مَدرَسَةُ الإمامِ الصَّادِق (ع)

المَنهجُ والتكوين

مدرسة الإمام الصادق عليه السلام

تتضافر الروايات على أن عدد الذين تتلمذوا على الإمام الصادق وانتسبوا إلى مدرسته هو أربعة آلاف طالب من مختلف الأقطار ، فقد جمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنهم من الثقاة على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا كذلك ، فقد كان عليه السلام أفضل أهل زمانه ، وبرز على أقرانه بالفضل والسؤدد في الخاصة والعامة ، ونقل الناس عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد من أهل بيته[1] .

كان الصادق عليه السلام أفضل الناس وأعلمهم بدين الله ، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا: أخبرنا العالم[2] . قال أبو الحسن الوشاء: أدركت في جامع الكوفة تسعمائة شيخ من أهل الدين والورع كلهم يقول: حدّثني جعفر الصادق[3] . وقد كانت الكوفة والمدينة تضمان أكبر عدد من هؤلاء لانتشار التشيع في الكوفة . ولأنّ المدينة كانت أرض تكوين ومهد دعوته .

ولا نجد من يجرؤ على إنكار مكانة الإمام الصادق في زمانه وزعامته في ذلك العصر ، وقد عودتنا الأيام أن يكابر الكثيرون ويعاند العديدون استجداءً للحكّام واتباعاً للأهواء والأحقاد ، لأنّ الحقائق كانت تقمع ما تطويه دخائلهم وتضمّه جوانحهم : فقد كان بيته ومجلسه عليه السلام يزدحمان بطلبة العلم وأهل الفقه ، يقبلون على الإمام للانتهال من معين علمه وحكمته ، حتى أن

---

(١) روضة الواعظين للفتال النيسابوري ج ١ ص ٢٠٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي لابن واضح ج ٣ ص ١١٥.

(٣) أعيان الشيعة: ج ١ ص ٦٦٤.

الروايات تصف ضيق داره لعظم الوفود والعلماء من مختلف الأقطار ، حتى صعب على أصحابه أن يجدوا لهم مجلساً .

ولم يعرف لأحد غيره مثل هذه الشهرة . فقد كان تلاميذه من العراق ومصر وخراسان وحمص والشام وحضرموت وغيرها .

وقد تصدّر الإمام الصادق حركة المجتمع بجدارة ، وتزعم الحركة العلمية بتفرّد ، فقد نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان[١] وكان ينذر نفسه لهذه الأغراض ، ويتجه إلى الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني ، فإنه لا يحدّثكم أحد بعدي بمثل حديثي»[٢] . ولذلك روى حديثه خلق لا يحصون[٣] . وانتشر فقهه في الآفاق ، وإذا استعصى الحصر وصعب العدّ لتحديد كل من روى عنه ﷺ فإن الأربعة الآف كانوا المتميزين ، وإلّا فإنّ الصورة التي لا تقبل المماراة هي شيوع ذكره بين سائر الناس وعلوّ مكانته في نفوس المسلمين على مختلف أصنافهم وأجناسهم ؛ وعلى ذلك فلا يستغرب أن يعجز الكثير عن إحصاء كل من نقل عنه أو روى حديثه ﷺ .

ثم حلقات فقهه من أصحابه وتلامذته المقرّبين وعددهم أربعمائة ممن نبهوا في العلوم وعُرفوا بالفقه ، وهم رجال مدرسته وهيئتها العلمية الذين اختصوا بفقه الإمام الصادق ، وكانوا من العدالة والثقة بمكان لا ترقى إليه سهام الحقد والحسد ، وقد ألّفوا في فقه الإمام جعفر الصادق والرواية عنه أربعمائة كتاب ، وهي الأُصول الفقهية للمذهب الجعفري[٤] .

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٠.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي: ج١ ص١٥٧.

(٣) خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي: ص٥٤.

(٤) انظر التراجم والبحوث الخاصة بهم في الجزء الثالث ص ٦٦ - ٦٧، والرابع ص ١٩٣ من الكتاب.

وقد تحرّى الإمام الصادق كفاءة الأصحاب وقدرات المتعلّقين به ، ووجّه كلاً إلى حيث العمل الذي يتفق ومواهبه وينسجم مع استعداده ، فكان البعض منهم مختصاً بتنفيذ التعاليم التي تتعلق بواقع الأسر والأفراد ، أو تتصل بالظواهر الاجتماعية والعلاقات . وقد مرّ بنا طرف من هذه المهمات التي توكل إليهم في الفصل السابق والأجزاء السابقة من الكتاب .

أما الناحية الفكرية ـ التي تمثل منهج مدرسته ـ فقد عيّن الإمام الصادق من بين هيئة المدرسة العلمية الرجال الذين توكل إليهم المهمات . وتسند شؤون المنهج وتطبيقاته ، وهي تتجه إلى الأهداف التالية :

١ ـ مناظرة أهل العقائد الفاسدة .

٢ ـ محاورة أهل الإلحاد والزندقة .

٣ ـ محاورة أهل الكتاب .

٤ ـ مواجهة الفرق الشاذة .

٥ ـ مقاتلة الظلمة بشدة الإنكار عليهم وتوجيه الانتقاد إليهم وفضح سياساتهم .

فجعل أبان بن تغلب للفقه ، وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس . وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتقاد الذهن ووفور العقل وبعد الغور ، والاختصاص بعلوم القرآن ، وهو أول من ألف في ذلك ، وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه ، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أُخليت له سارية النبي ﷺ فيحدّث الناس ، ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال ، ثم يذكر قول أهل البيت ، ويسوق أدلته ومناقشته على طريقة الإمام الصادق ﷺ في الإجابة ، إذ كان ﷺ أعلم الناس باختلاف

الناس وأفقههم[١] .

ووكل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن . وقد كان أحد حملة القرآن ، وممن يحتج بهم في القراءات ، فهو من القرّاء المشهورين ، وممن يعد ويذكر في كتب القراءة ، وكان عالماً بالنحو واللغة ، وهو من عائلة مشهورة في الكوفة ولهم منزلة . وأخوه زرارة ـ وقد مرّت الإشارة إليه في آخر الفصل السابق ـ أوكل إليه المناظرة في الفقه تحت إشراف الإمام الصادق وتوجيهه .

ومؤمن الطاق كان للمساجلة في الكلام . وحمزة بن الطيار للمناظرة في الاستطاعة وغيرها . وهشام بن الحكم للمناظرة في الإمامة والعقائد . وكان منهم جماعة يتجوّلون في الأمصار ، أمدّهم الإمام بالأموال .

وتظهر لنا شهادات التاريخ بحق الرجال مكانة الإمام الصادق ، واتّجاه الأنظار إليه ، واختلاف الناس إلى مجلسه على اختلاف أغراضهم ومقاصدهم . كذلك تبين لنا المصادر أسلوب الإمام ومنهجه وتوزيع المهمات على أصحابه والإشراف على ما يدور في حلقات درسهم ومجالس مناظراتهم .

ورد رجل من أهل الشام ، فاستأذن على الإمام الصادق ، وكان معه جماعة من أصحابه ، فإذن له . فلما دخل سلّم . فأمره أبو عبدالله ﷺ بالجلوس ثم قال له: «حاجتك؟» .

قال: بلغني أنك عالم بكل ما تُسأل عنه ، فصرت إليه لأُناظرك .

(١) انظر مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٣، وجامع مسانيد أبي حنيفة للقاضي القضاة الخوارزمي ج١ ص٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

فقال عليه السلام: «في ماذا؟» .

قال: في القرآن وقطعه وخفضه ونصبه ورفعه .

فقال عليه السلام: «يا حمران دونك الرجل»

فقال: إنما أريدك لا حمران .

فقال عليه السلام: «إن غلبت حمران فقد غلبتني» .

فأقبل الشامي فسأل حمران حتى ضجر وملّ ، وحمران يجيبه .

فقال عليه السلام: «كيف رأيته يا شامي؟» .

فقال: رأيته حاذقاً، ما سألته عن شيء إلّا أجابني فيه .

فقال عليه السلام: «يا حمران سل الشامي» فما تركه يكثر .

فقال الشامي: أُريد يا أبا عبدالله أن أُناظرك في العربية .

فقال عليه السلام: «يا أبان بن تغلب ناظره» فناظره فما ترك الشامي يكثر .

قال الشامي: أُريد أن أناظرك في الكلام .

فقال عليه السلام: «يا مؤمن الطاق ناظره» فسجل الكلام بينهما . ثم تكلم مؤمن الطاق بكلام ، فغلبه .

فقال الشامي: أُريد أن أُناظرك في الاستطاعة .

فقال عليه السلام للطيار : «كلّمه فيها» .

فكلّمه ، فما تركه يكثر .

فقال الشامي: أُريد أن أُكلّمك في التوحيد .

فقال عليه السلام لهشام بن سالم: «كلّمه» .

فسجّل الكلام بينهما ، ثم خصمه هشام .

قال الشامي: أُريد أن أُناظرك في الفقه .

فقال عليه السلام: «يا زرارة ناظره» . فما ترك الشامي يكثر .

فقال الشامي: أريد أن أناظرك في الإمامة .

فقال عليه السلام لهشام بن الحكم: «كلّمه يا أبا الحكم» فكلّمه فما تركه يديم .

فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبرني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال .

فقال عليه السلام: «هو ذاك... يا أخا أهل الشام ، أمّا حمران فحرفك ، فحرت له ، فغلبك بلسانه ، فسألك عن حرف الحق ، فلم تعرفه .

وأما زرارة فقاسك ، فغلب قياسه قياسك .

وأما هشام بن الحكم فتكلم بالحق ، فما سوّغك ريقك .

يا أخا أهل الشام ، إن الله تعالى أخذ ضغثاً من الحق وضغثاً من الباطل فمغثهما ، ثم أخرجهما إلى الناس ، ثم بعث أنبياء يفرّقون بينهما ، ففرقتهما الأنبياء والأوصياء ، فبعث الأنبياء ليعرّفوا ذلك ، وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من يفضل الله ومن يختص . ولو كان الحق على حدة والباطل على حدة كل واحدة منهما قائم بنفسه ، ما احتاج الناس إلى نبي ولا وصي ، ولكن الله خلطهما وجعل تفريقهما إلى الأنبياء والأئمة من عباده» .

فقال الشامي: قد أفلح من جالسك .

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجالسه جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ، فيصعد إلى السماء فيأتيه الخبر من عند الجبار ، وإن كان ذلك كذلك فهو كذلك»[1] .

وعن يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرايض ، وقد جئت لمناظرة أصحابك . فقال له أبو عبدالله عليه السلام «كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من عندك؟» فقال: من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعضه ، ومن عندي بعضه . فقال له أبو

---

(١) رجال الكشي لمحمد بن عمر بن عبدالعزيز ص١٢٤ .

عبدالله عليه السلام: «فأنت إذن شريك رسول الله صلى الله عليه وآله؟» قال: لا . قال: «فسمعت الوحي من الله؟» قال: لا . قال: «فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله؟» قال لا . قال: فالتفت أبو عبدالله عليه السلام إليّ ، فقال لي «يا يونس بن يعقوب ، هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم» . ثم قال: «يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلّمته» . قال يونس: فيالها من حسرة . فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: «ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد ، وهذا ينساق وهذا لا ينساق ، وهذا نعقله وهذا لا نعقله؟» فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي ، وذهبوا إلى ما يريدون به» . ثم قال: «أخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله» . قال: فخرجت ، فوجدت حمران بن أعين ـ وكان يحسن الكلام ـ ومحمد بن النعمان الأحول (مؤمن الطاق) وكان متكلماً ، وهشام بن سالم ، وقيس الماصر ـ وكانا متكلمين ـ فأدخلتهم عليه ، فلما استقرّ بنا المجلس كنا في خيمة لأبي عبدالله عليه السلام على حرف جبل في طرف الحرم ، وذلك قبل أيام الحج بأيام ، أخرج أبو عبدالله عليه السلام رأسه من الخيمة ، فإذا هو ببعير يخبّ فقال: «هشام ورب الكعبة» . قال: فظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل ،كان شديد المحبة لأبي عبدالله عليه السلام ، فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته ، وليس فينا إلّا من هو أكبر سنّاً منه ، قال: فوسّع له أبو عبدالله عليه السلام وقال: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده» ثم قال لحمران: «كلّم الرجل» ـ يعني الشامي ـ فكلّمه حمران ، فظهر عليه .

ثم قال: «يا طاقي كلّمه» . فكلّمه ، فظهر عليه محمد بن النعمان .

ثم قال: «يا هشام بن سالم كلّمه» ، فتعاديا .

ثم قال لقيس الماصر: «كلّمه» فكلّمه .

وأقبل أبو عبدالله عليه السلام يبتسم من كلامهما ، وقد استخذل الشامي في يده ، ثم

قال للشامي: «كلّم هذا الغلام» ـ يعني هشام بن الحكم ـ فقال: نعم . ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا ـ يعني أبا عبدالله ﷺ ـ فغضب هشام حتى ارتعد ، ثم قال له: أخبرني يا هذا أربّك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي انظر لخلقه .

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟

قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ماكلفهم ، وأزاح في ذلك عللهم .

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟

قال الشامي: هو رسول الله ﷺ .

قال له هشام: فبعد رسول الله من؟

قال: الكتاب والسنّة .

قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا حتى يرفع عنّا الاختلاف ومكننا من الاتفاق ؟

قال الشامي: نعم .

قال له هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت ، وجئتنا من الشام تخالفنا ، وتزعم أن الرأي طريق الدين ، وأنت تقرّ بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين .

فسكت الشامي كالمفكر ، فقال له أبو عبدالله ﷺ: «مالك لا تتكلم» . قال: إن قلت أنّا ما اختلفنا كابرت ، وإن قلتُ أن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت ، لأنهما يحتملان الوجوه ، ولكن لي عليه مثل ذلك .

فقال له أبو عبدالله ﷺ: «سله تجده مليئاً» .

فقال الشامي لهشام: من أنظر الخلق، ربهم أو أنفسهم؟

فقال هشام: بل ربهم أنظر لهم .

فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ، ويبيّن لهم حقهم من باطلهم ؟

قال هشام: نعم .

قال الشامي: من هو ؟

قال هشام: أمّا في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغيره .

قال الشامي: ومن هو غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم القائم مقامه في حجته؟

قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟

قال الشامي: بل في وقتنا هذا .

قال هشام: هذا الجالس ـ يعني أبا عبدالله عليه السلام ـ الذي تشدّ إليه الرحال ، ويخبرنا بأخبار السماء ، وراثة عن أب عن جدّ .

قال الشامي: وكيف لي يعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك .

قال الشامي: قطعت عذري فعليّ السؤال .

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «أنا أكفيك المسألة يا شامي ، أخبرك عن مسيرك وسفرك: خرجت يوم كذا ، وكان طريقك كذا ، ومررت على كذا ، ومرّ بك كذا .

فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: صدقت والله . ثم قال له الشامي: أسلمت لله الساعة . فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة ، إن الإسلام قبل الإيمان ، وعليه يتوارثون ويتناكحون ، والإيمان عليه يثابون» .

قال الشامي: صدقت ، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلّا الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنك وصي الأوصياء .

قال: وأقبل أبو عبدالله على حمران فقال: «يا حمران تجري الكلام على الأثر، فتصيب» فالتفت إلى هشام بن سالم فقال: «تريد الأثر ولا تعرف» ثم التفت إلى الأحول (مؤمن الطاق) فقال: «قياس روّاغ».

ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: «تتكلم وأقرب ما تكون من الحق والخبر عن الرسول ﷺ...» وقليل الحق يكفي من كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان.

قال يونس بن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام قريباً مما قال لهما. فقال: «يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس، اتق الله الزلّة والشفاعة من ورائك»[١].

ويتضح جلياً أنّ وقوع هذه المناظرة وما تشتمل عليه من ملاحظات الإمام الصادق عليه السلام كان في مبدأ نهوض مدرسة الإمام الصادق بخططها وتنفيذ نهجها، فإنّ الإشارة إلى عمر هشام تدلّ على أول خطوات المدرسة على طريق العمل العلمي والفكري الشاق. إذ ينبغي أن نتخيل أحوال تلك الفترة وما اعترى الأُمة الإسلامية على مختلف المستويات، فإن النهضة العلمية والنشاط الفكري خلق موجات من الجدل وتيارات من الكلام لم تخضع لحدود؛ لأن الحكام من العهدين كانوا يشجعون ألوان النشاط الفكري المتعددة لأغراض تتعلق بمصلحتهم، فما ينجم من تفوق الفكر الإسلامي وامتداد الحركة العلمية، يدخل في إهاب دولتهم وينطبع بطابعهم. ولمّا بدأ الإمام الصادق سيرته الشريفة بعد تولّيه الإمامة جرّد كل ما يستطيع لمعالجة ما يعاني من المجتمع الإسلامي وما يتهدد أُمة جده المصطفى عليه أفضل

(١) الإرشاد للمفيد ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣.

الصلاة والسلام ، وباشر المنهج الروحي والفكري المعروف عن أهل البيت ،ووضع له قواعد من العمل وأركاناً . وكان من أهم صفات منهج المدرسة وكلما يتعلق بها من وسائل مادية ومعنوية هو الاستقلال التام عن السلطة والابتعاد عن مؤثراتها . فرأسها الإمام الصادق ﷺ ، وموقف الحكام منه معروف ، وموقفه من ظلمهم وبطشهم من أبرز ملامح تاريخ الشيعة في تلك الفترة . أما رجال هذه المدرسة فهم أنصار أهل البيت ، ومن عرفوا بالولاء والتضحية في سبيل التشيع ، فتعاهدهم الإمام بإعداد شامل وتوجيه مباشر ، حتى يكونوا بمستوى ما يعهد لهم من مهمات ويوكل إليهم من أعمال ، وكان نصب عينيه أن يكونوا الأُسوة والقادة ، وأن يقال عنهم: «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب أصحابه» .

وبمرور الأيام ، نجد أنّ رجال المدرسة ـ أو من سمّيناهم بالهيئة العلمية ـ يتبوأون مواقعهم بكفاءة عالية ، وتمكن باهر . ولأنّ الإمام الصادق علم استعداد كل منهم ورعى مواهبهم فوجهها إلى ما يجلو فيها القدرة ويصقل الإمكانية ، ونتج من ذلك مجموعة من كبار العلماء الذين خدموا الأُمة الإسلامية كمجاهدين تحت عين الإمام الصادق ، وعكفوا على حفظ تراثه الفقهي وثروته العلمية في كتب ضمّت المسائل والأحكام والتعاليم والأحاديث يفتخر بها الفكر الإسلامي ، ويعتز بها الشيعة . ويتباهون ، لأن دقائق المسائل وغنى الأحكام ووضوح البراهين والحجج ، وبيان العلل وحكمة التشريع ؛ تجعل الفقه الجعفري وعاة العلم الإسلامي ، ومن الطبيعي جداً أن تأخذ بعض الحكومات بأحكام الفقه الجعفري لمعالجة بعض المسائل التي تتعلق بأحوال الأفراد لما فيها من رعاية لمصالح الناس ورفع الحرج عنهم ؛كما فعلت الحكومة المصرية . وكم بين الناس من يلجأ إلى

اعتناق المذهب الجعفري منقاداً إلى روح العدل والصواب .

والقصد ، أنّ تعقيب الإمام الصادق على اتّجاه أصحابه في المحاورة والمناظرة كان على سبيل بلوغ ما يرجوه وما يسعى إلى تحقيقه بواسطتهم من خلال تبني المنهج بطرق للحوار والاستدلال عميقة ومؤثرة . وهو من ناحية أُخرى يعدّهم بوصاياه فيقول:

«لا تتكلم فيما لا يعنيك ، ودع كثيراً من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فربَّ متكلّم تكلّم بالحقّ بما يعنيه في غير موضعه فتعب . ولا تمارينَّ سفيهاً ولا حليماً ، فإن الحليم يغلبك والسفيه يرديك»(١) .

ومن أقواله عليه السلام التي توضّح منهج مدرسته وأسس حركتها العلمية: «دعامة الإنسان العقل ، وبالعقل يكمل ، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره»(٢) .

ويبيّن عليه السلام أصناف طلبة العلم قائلاً:

«طلبة العلم على ثلاثة أصناف ، فاعرفهم بأعيانهم وصفاتهم: صنف يطلبه للجهل والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل»(٣) .

فصاحب الجهل والمراء متعرّض للمقال في أندية الرجال ، يتذاكر العلم وصفة الحلم ، قد تسربل بالخشوع ، وتخلّى عن الورع ، فدقّ الله من هذه خيشومه .

وصاحب الاستطالة والختل ذو خبّ(٤) وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للأغنياء من دونه .

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن ، يعمل ويخشى ، وجلاً داعياً مشفقاً

---

(١) بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٦٥ ح١٧٦ .

(٢) بحار الأنوار ج١ ص٩٠ ح١٧ .

(٣) الكافي ج١ ص٤٩ ح٥ .

(٤) الخبّ : الخداع .

على شأنه ، عارفاً بأهل زمانه ، مستوحشاً من أوثق إخوانه»[١].

ومما أوضحه الإمام الصادق عليه السلام من خصائص منهجه ، هو اعتماد العقل مع وجوه ما قام به من حركة علمية واقتران صفاتها العامة به ، وقد كان لذلك أثره في تجنب المزالق التي يحدثها القياس الذي على الرأي الذي ينزع كثيراً إلى الهوى والميل . أما العقل فهو من صفات الاكتمال في شخصية المؤمن ، ومن مصادر دوام الشرائع والأحكام . وكيفية القضايا المهمة في وجود الإنسان المسلم ، يعرض الإمام الصادق منزلة العقل: فعن محمد بن سليمان عن أبيه قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: فلان من عبادته ودينه وفضله كذا وكذا؟ قال: فقال: «كيف عقله؟» فقلت: لا أدري . فقال: «إنّ الثواب على قدر العقل . إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبدالله عزّ وجلّ في جزيرة من جزائر البحر ، خضراء نظرة كثيرة الشجر ظاهرة الماء ، وإن ملكاً من الملائكة ، مرّ به فقال: يا رب أرني ثواب عبدك هذا . فأراه الله عزّ وجلّ ذلك . فاستقله الملك ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه أن أصحبه . فأتاه الملك في صورة أنسي ، فقال له: من أنت؟ قال: أنا رجل عابد ، بلغنا مكانك وعبادتك بهذا المكان ، فجئت لأعبد معك . فكان معه يومه ذلك ، فلما أصبح قال له المَلَك: إن مكانك لنزهة . قال: ليت لربنا حماراً لرعيناه في هذا الموضع ، فإن هذا الحشيش يضيع . فقال له الملك . وما لربك حمار؟ لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش . فأوحى الله عزّوجلّ الى المَلَك: إنما أثيبه على قدر عقله»[٢].

بهذا المنهج سعى الإمام الصادق إلى إغناء واقع الأمة ، وحملها على الالتزام بالمنهج الإسلامي والسنة النبوية الشريفة ، فقد أثر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

(١) بحار الأنوار ج٢ ص٤٦ ح٤.
(٢) بحار الأنوار ج١ ص٨٤.

«قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له»(١) . وقوله ﷺ: «سيد الأعمال في الدارين العقل ، ولكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته لربه»(٢) .

ويوضح الإمام الصادق للناس نعمة العقل قائلاً: «إذا أراد الله أن يزيد من عبد نعمة كان أول ما يغيّر منه عقله»(٣) .

ويقول ؏: «كمال العقل في ثلاث: التواضع لله ، وحسن اليقين ، والصمت إلّا من خير»(٤) . وفي مقابله يوضح ؏ الجهل ويقول: «الجهل في ثلاث: الكِبر وشدّة المراء والجهل بالله . فأولئك هم الخاسرون»(٥) .

وما يتعلق بالمختصّين من هيئة مدرسته ، فإنّ صياغة أقواله ؏ تفي بالغاية والغرض فيقول: «يغوص العقل على الكلام ، فيستخرجه من مكنون الصدر ، كما يغوص الغائص على اللؤلؤة المستكنة في البحر» وإنّ «العاقل إن كلّ أجاب ، وإن نطق أصاب . وإن سمع وعى»(٦)

ويقيد الإمام الصادق السلوك المتعلق بالمنهج بالعقل فيقول: «التودّد نصف العقل»(٧) . ويخاطب رجال مدرسته بأن لا يثقلوا على الناس ، ولا ينفّروهم ، وأن يترفّقوا بهم ، ويسهّلوا لهم المداخل . ويقول لهم: «فرغّبوا الناس في

---

(١) بحار الأنوار ج١ ص٩٤ ح١٦ .
(٢) بحار الأنوار ج١ ص٩٦ ح٤٢ .
(٣) بحار الأنوار ج١ ص٩٤ ح٢٠ .
(٤) بحار الأنوار ج١ ص١٠٢ ح٢٥ .
(٥) بحار الأنوار ج١ ص١٠٢ ح٢٦ .
(٦) بحار الأنوار ج٧٥ ص٣٣٢ .
(٧) بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٠٤ .

دينكم ، وفيما أنتم فيه»(١) .

ويراجعه الأصحاب فيما يهمّهم من شؤون عملهم في تطبيق المنهج . فعن إسحاق قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: الرجل آتيه أكلمه ببعض كلامي فيعرفه كله ، ومنهم من آتيه فأكلمه بالكلام فيستوفي كلامي كله ثم يردّه عليّ كما كلمته ، ومنهم من آتيه فأكلمه فيقول: أعِدْ عليّ؟ فقال: «يا إسحاق ، أو ما تدري لِمَ هذا؟» قلت: لا . قال: «الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرف كله ، فذاك من عجنت نطفته بعقله . وأما الذي تكلمه ، فيستوفي كلامك: ثم يجيبك على كلامك ؛ فذاك الذي ركّب عقله في بطن أمه . وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول: أعد عليّ . فذاك الذي ركّب عقله فيه بعدما كبر . فهو يقول: أعِدْ عليّ»(٢) .

ويتكفّل الإمام الصادق ببيانه وحكمة أقواله إيضاح أهم الخصائص في خطة العمل والدعوة فيقول عليه السلام: «العاقل من كان ذلولاً عند إجابة الحق ، منصفاً بقوله ، جموحاً عند الباطل ، خصماً بقوله ، يترك دنياه ولا يترك دينه . ودليل العاقل شيئان: صدق القول وصواب الفعل . والعاقل لا يتحدث بما ينكره العقل ، ولا يتعرّض للتهمة ، ولا يدع مداراة من ابتلي به ، ويكون العلم دليله في أعماله ، والحلم رفيقه في أحواله ، والمعرفة تعينه في مذاهبه . والهوى عدو العقل ، ومخالف الحق ، وقرين الباطل»(٣) .

أما إذا أردنا أن نعلم ما هو الطريق إلى تحصيل هذه الملكة ، ورعاية هذه النعمة ، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يجيبنا بوجيز قول وعظيم معنى يغني عن كل سؤال فيقول: «كثرة النظر في العلم تفتح العقل»(٤) .

ولأنّ الإمام الصادق هو عالم الأمة وصاحب الولاية الشرعية ، فقد أقبل

---

(١) بحار الأنوار ج٦٦ ص ١٧٠ .
(٢) الكافي: ج ١ ص ٢٦ ح ٢٧ .
(٣) بحار الأنوار ج ١ ص ١٣٠ .
(٤) بحار الأنوار ج ١ ص ١٥٩ .

عليه الأصحاب فيما يهمّهم ويشغل بالهم ، وعرضوا عليه المسائل التي يكثر فيها الجدل ، وقصده الكثير للتخلص من الحيرة والغموض . وكان الإمام الصادق يعلم ما يدور في زوايا المجتمع من محاورات وأحاديث تسبب ارتباكاً واضطراباً ، فانفتح على الناس قائلاً: «سلوني قبل أن تفقدوني»[1] فأقبل الناس عليه من مختلف الطبقات والمراتب ، وكانوا يجدون عنده علماً غزيراً ، وخُلقاً يعجز المرء عن وصفه . لأنّ شخصية في علمها وورعها كشخصية الإمام الصادق لا يقارن بها معاصروه ، إنما هناك صور للرعاية الإلهية والحكمة العليا في خصال الإمام الصادق عليه السلام وعلمه وتقاه . فحلمه يسع جميع ضروب أهل الأهواء والمقالات والجدل ، وعلمه يفيض على كل سائل وطالب علم ، حتى فرض على الحذّاق من المتكلمين والزنادقة والملحدين واضطرهم إلى الإذعان ليشهدوا: (إنه الحليم الرزين العاقل الرصين ، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق ، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ، ويستعرف حجتنا ، حتى إذا استفرغنا ما عندنا ، وظننا قد قطعناه ؛ أدحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير ، يلزمنا به الحجة . ويقطع العذر ، ولا نستطيع لجوابه ردّاً)[2] .

سأله أبو حمزة عما يقال: من أنّ الله جسم .

فقال عليه السلام : «سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لا يُحَدُّ ، ولا يُحَسّ ، ولا تدركه الحواس ، ولا يحيط به شيء ولا جسم ولا بذي تخطيط ولا تحديد»[3] .

---

(١) كشف الغمة: ج٢ ، ص٣٧٥ .

(٢) بحار الأنوار ج٣ ص٥٨ .

(٣) كنز الفوائد ، للكراجكي ص١٩٩ باختلاف يسير.

ودخل عليه نافع بن الأزرق فقال: يا أبا عبدالله ، أخبرني متى كان الله؟ فقال عليه السلام: «متى لم يكن حتى أخبرك متى كان ، سبحان من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً»(١) .

وقال ابن أبي يعفور: سألت أبا عبدالله عن قول الله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (٢) فقلت: أما الأول فقد عرفنا ، وأما الآخر فبيّن لنا تفسيره .

فقال عليه السلام : «إنه ليس شيء يبيد أو يتغير، أو يدخله التغير والزوال أو ينتقل من لون إلى لون، أو من هيئة إلى هيئة ، ومن صفة إلى صفة ، ومن زيادة إلى نقصان ، ومن نقصان إلى زيادة ، إلّا ربّ العالمين . فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، وهو الأول قبل كل شيء وهو الآخر على ما لم يزل ، لا تختلف عليه الصفات والأسماء»(٣) .

فإن أردنا التعرف على الآثار اللاحقة في طرق مناظرة أصحاب الإمام الصادق ، وكيف استقرّ ما رعاه الإمام وعمل على تحقيقه في وسائل الحجاج وطرق محاورة أهل الأهواء والفرق والأديان ، نلمسها واضحة في أقوالهم ومنطق تعرّضهم .

اجتمع هشام بن الحكم في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة (١٤٤ هـ) وهو من شيوخ المعتزلة ، وتناظرا في الإمامة . وكان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأُمة في سائر الأعصار . وهشام يذهب إلى أنها نصّ من الله ورسوله على علي بن أبي طالب وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين .

فقال هشام لعمرو بن عبيد: أليس قد جعل لك عينين؟

(١) الكافي ج١ ص٨٨ باب الكون والمكان ح٦، التوحيد للصدوق ج١ ص١٧٣.
(٢) الكافي ج١ ص١١٥ .
(٣) الفصول المهمة للحر العاملي ج١ ص١٨٥ .

قال: بلى .

قال: ولم ؟

قال: لأنظر بهما في ملكوت السماوات والأرض فأعتبر .

قال: فلم جعل لك سمعاً ؟

قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي .

قال: فلم جعل لك فماً؟

قال: لأذوق المطعوم ، وأجيب الداعي .

ثم عدّد الحواس كلها .

قال: ولم جعل لك قلباً ؟

قال: لتؤدي إليه الحواس ما أدركته ، فيميّز بين مضارّها ومنافعها .

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ، ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه؟

قال عمرو: لا .

قال: ولم ؟

قال: لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح لها .

فقال هشام: يا أبا مروان ـ يعني عمرو ـ إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح ، ويترك هذا الخلق كله لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟!

قال المسعودي: فتحيّر عمرو ، ولم يأت بفرق يعرف(١) .

---

(١) مروج الذهب ج٤ ص٥٥ ، وعلل الشرائع للصدوق ص١٩٤ ، واحتجاج الطبرسي ص٢٠٠ ، وأمالي المرتضى وغيرها .

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبدالله عليه السلام فلمّا سلّم وجلس عنده تلا هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ (١) ثم أمسك عنه ، فقال أبو عبدالله «ما أسكتك؟» قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله . فقال: «نعم يا عمرو ، أكبر الكبائر الشرك بالله ، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (٢) وبعده الأياس من روح الله ، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣) والأمن من مكر الله ، لأنّ الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٤) . ومنها عقوق الوالدين ، لأنّ الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً . وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق لأنّ الله تعالى يقول: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ (٥) وقذف المحصنات ، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٦) إلى قوله: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأكل مال اليتيم ظلماً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (٧) والفرار من الزحف ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٨) وأكل الربا: لأن الله عزّ

(١) الشورى: ٣٧.
(٢) المائدة: ٧٢.
(٣) يوسف: ٨٧.
(٤) الأعراف: ٩٩.
(٥) النساء: ٩٣.
(٦) النور: ٢٣.
(٧) النساء: ١٠.
(٨) الأنفال: ١٦.

وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[١] والسحر لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ﴾[٢] . واليمين الغموس ، لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[٣] والغُلول ، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤] ومنع الزكاة المفروضة ، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾[٥] وشهادة الزور وكتمان الشهادة ، لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[٦] وشرب الخمر ، لأن الله عزّ وجلّ عدل بها عبادة الأوثان . وترك الصلاة متعمداً ، فقد بريء من ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ ونقض العهد . وقطيعة الرحم ، لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٧] .

قال: فخرج عمرو ، وله صراخ من بكائه ، وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم)[٨] .

وعن أبي مالك الأحمسي قال: خرج الضحاك الشاري ـ الخارجي ـ بالكوفة فحكم وتسمّى بإمرة المؤمنين ، ودعا الناس إلى نفسه .

فأتاه مؤمن الطاق . فلما رأته الشراة وثبوا في وجهه ، فقال لهم: جانح .

---

(١) البقرة: ٢٧٥.
(٢) الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠.
(٣) آل عمران: ٧٧.
(٤) آل عمران: ١٦١.
(٥) التوبة: ٣٥.
(٦) البقرة: ٢٨٣ .
(٧) الرعد: ٢٥ .
(٨) الكافي: ج٢ ص٢١٧ ح٢٤ .

فأتوا به صاحبهم ، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من ديني ، فأحببت الدخول معكم .

فقال الضحاك لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم . ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحاك فقال: لِمَ تبرأتم من علي بن أبي طالب ، واستحللتم قتله وقتاله؟

قال الضحاك: لأنّه حكم في دين الله .

قال مؤمن الطاق: وكل من حكم في دين الله استحللتم دمه وقتاله والبراءة منه ؟

قال: نعم .

قال: فأخبرني عن الدين الذي جئت أُناظرك عليه ، لأدخل معك إن غلبت حجتي حجتك أو حجتك حجتي ، من يوقف المخطئ على خطئه ويحكم للمصيب بصوابه؟ فلا بد لنا من إنسان يحكم بيننا ، فأشار الضحاك إلى رجل من أصحابه وقال: هذا الحكم بيننا ، فهو عالم بالدين .

قال مؤمن الطاق: وقد حكّمت هذا في الدين الذي جئت أُناظرك فيه؟ قال: نعم . فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحاك فقال: إن صاحبكم قد حكّم في دين الله فشأنكم به . فاختلف أصحابه وأسكتوه ، وخرج مؤمن الطاق منتصراً[١] .

* * *

وكنّا في الأصل قد خصصنا لحملة الإمام الصادق على الغلاة جزءاً من هذا الفصل ، غير أنّنا وجدنا أنّ البحث قد يطول ويتعدّى حدود ما نرجو له من عدم التكرار ، واكتفينا بما سبق من بحث لمشكلة الغلاة ، وما قام به الإمام

---

(١) انظر رجال الكشي ص١٨٧ ـ ١٨٨ رقم ٣٣٠.

الصادق من دحض لأقوالهم وفضح لمعتقداتهم ، وفيه غنىً وبيان وافٍ لمنهج الإمام في ذلك ، وقد كان جهده ﷺ في هذا المجال مصحوباً بآلام نفسية . فهو يواجه أعداء تلبّسوا بروابط وادّعاءات ، ووجد نفسه ﷺ هو وآباؤه الكرام غاية أُولئك الكفرة وغرض مسعاهم .

قلنا إنّ عصر الإمام الصادق شهد تيارات من الإلحاد والزندقة وغيرها ، وقد كانت حركة الزندقة ذات خطر شديد ، لأنّها عبارة عن تنظيم اجتمع فيه حذّاق الكلام والخائضون في المقالات والمذاهب ، ووضعوا لأنفسهم خطة لإفساد العقائد ، وزرع الشكوك في نفوس المؤمنين . وقد لفتت شخصية الإمام الصادق انتباههم وراحوا في مناسبات عديدة يقصدونه وهم على كفرهم ، فيخرجون مقطوعين مدحورين .

وكان من أبرز قادتهم ابن أبي العوجاء[1] وقد أشرنا إليه في أكثر من مورد سابقاً وفي أجزاء الكتاب السابقة . وقد اجتمع مرّة هو ونفر من الزنادقة منهم: ابن طالوت ، وابن الأعمى ، وابن المقفع في الموسم بالمسجد الحرام ، وكان الإمام الصادق فيه إذ ذاك يفتي الناس ، ويفسّر لهم القرآن ، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات . فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس ، وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به ، فقد ترى فتنة الناس به ، وهو علّامة زمانه .

فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم . ثم تقدم ، ففرّق الناس ، فقال: يا أبا عبدالله إن المجالس أمانات ، ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل ،

---

(١) يذكر الشيخ الصدوق أن ابن أبي العوجاء دخل مكة تمرّداً وإنكاراً على من يحج وكان يكره العلماء مساءلته إياهم ومجالسته لهم لخبث لسانه وفساد سريرته، علل الشرائع للصدوق ج٢ ص٤٠٣.

أفتأذن لي في السؤال؟

فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «سل إن شئت»

فقال له ابن أبي العوجاء: إلى كم تدرسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا أو قدّر، علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسّه ونظامه.

فقال له الصادق عليه السلام: «إن من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليّه وربّه، يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثّهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله تعالى قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر، وانتهي عما زجر الله المنشيء للأرواح والصور».

فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبدالله، فأحلت على غائب.

فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كيف يكون يا ويلك غائباً من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، ولا يكون له مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره، وتدل عليه أفعاله. والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة محمد صلى الله عليه وآله جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أوضحه لك».

فأبلس ابن العوجاء، ولم يدرِ ما يقول، فانصرف من بين يديه. فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة، فألقيتموني على جمرة.

قالوا له: اسكت، فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه.

فقال لهم: ألي تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رؤوس من ترون ، وأومأ إلى أهل الموسم[1] .

وفي رواية الطبرسي زيادة: أنّ ابن أبي العوجاء قال: فهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟ فقال الإمام الصادق ؈: «إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان ، وخلا منه مكان ، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه . فأما الله العظيم الشأن ، الملك الديّان ، فلا يخلو منه مكان ، ولا يتشغل به مكان ، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان»[2] .

وعن هشام بن الحكم قال: كان زنديق بمصر يبلغه عن أبي عبدالله ؈ علم ، فخرج إلى المدينة ليناظره . فلم يصادقه بها . وقيل: هو بمكة . فخرج إلى مكة ونحن مع أبي عبدالله ؈ فانتهى إليه ـ وهو في الطواف ـ فدنا منه وسلّم .

فقال له أبو عبدالله: «ما أسمك؟» .

قال: عبدالملك .

قال: «فما كنيتك؟» .

قال: أبو عبدالله .

قال أبو عبدالله ؈: «فمن ذا الملك الذي أنت عبده ، أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك أعبد إله السماء ، أم عبد إله الأرض؟» فسكت .

فقال أبو عبدالله: «قل» . فسكت .

---

(١) علل الشرائع ص٤٠٣ ح٤، والإرشاد ج٢ ص٢٠٠، والاحتجاج ج٢ ص٣٣٥.
(٢) الاحتجاج ج٢ ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

فقال: «إذا فرغت من الطواف فأتنا» . فلما فرغ أبو عبدالله عليه السلام من الطواف أتاه الزنديق . فقعد بين يديه ، ونحن مجتمعون عنده ، فقال أبو عبدالله عليه السلام : «أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟» .

قال: نعم .

قال: «فدخلت تحتها؟» .

قال: لا .

قال: «فهل تدري ما تحتها؟» .

قال: لا أدري ، إلّا أني أظن أن ليس تحتها شيء .

فقال أبو عبدالله: «فالظن عجز ما لم تستيقن» . ثم قال: «فصعدت إلى السماء؟» .

قال: لا .

قال: «أفتدري ما فيها؟» .

قال: لا .

قال: «فالعجب لك ، لم تبلغ المشرق ، ولم تبلغ المغرب ، ولم تنزل تحت الأرض ، ولم تصعد إلى السماء ، ولم تخبر ما هناك فتعرف ما خلفهن ، وأنت جاحد بما فيهن ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟» .

فقال الزنديق: ما كلمني بهذا غيرك .

قال أبو عبدالله عليه السلام: «فأنت من ذلك في شك ، فلعل هو ، ولعل ليس هو» .

قال: ولعل ذلك .

فقال أبو عبدالله عليه السلام: «أيها الرجل ، ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم ، ولا حجة للجاهل على العالم . يا أخا أهل مصر ، تفهم عني ، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان ولا يستبقان ، يذهبان ويرجعان ، قد اضطرا ليس لهما مكان إلّا مكانهما ، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلِمَ يرجعان؟ وإن كانا غير مضطرين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار

ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا مصر، أن الذي تذهبون إليه وتظنون من الدهر، فإن كان هو يذهبهم فلم يردّهم؟ وإن كان يردّهم فلم يذهب بهم؟ أماترى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، لا تسقط السماء على الأرض، ولا تنحدر الأرض فوق ما تحتها، أمسكها والله خالقها ومدبّرها».

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبدالله. فقال ﷺ: «هشام خذه إليك وعلّمه»[1].

ومن الزنادقة الذين تظهر أسماؤهم كثيراً غير ابن أبي العوجاء هو: أبو شاكر الديصاني. منها ما يرويه الطبرسي والشيخ المفيد: أنه دخل مرة على أبي عبدالله وقال: يا جعفر بن محمد دلّني على معبودي.

فقال أبو عبدالله ﷺ: «اجلس. من أقرب الدليل على ذلك ما أظهره لك ثم دعا بيضة، فوضعها في راحته»، فقال أبو عبدالله: «يا ديصاني، هذا حصن مكنون له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة، وفضة ذائبة. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح، فيخبر عن صلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن فسادها. لا يدري للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أترى له مدبراً؟».

قال: فأطرق ملياً ثم قال: اشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه[2].

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٣١ ـ ٣٣٥.

(٢) الاحتجاج ج٢ ص٣٣٣.

وما دمنا لا نقصد الإحاطة بكل ما جرى بين الإمام الصادق وبين حركة الزنادقة ، فإنها من الكثرة والسعة بحيث يضيق بها ما خصصناه لموضوع البحث في منهج الإمام الصادق ومنشأ مدرسته الفكرية ؛ فإننا نكتفي بهذا القدر وهي مبسوطة في مظانّها .

* * *

ويتجه منهج الإمام الصادق إلى المسألة الثانية بعد التوحيد والاستدلال على وجود الخالق في مواجهة شكوك الملحدين وأقوال الزنادقة ، وهي مسألة الإمامة ، أو السلطة الروحية ، فيقول عليه السلام :

«نحن نزعم أنّ الأرض لا تخلو من حجة ، ولا تكون الحجة إلّا من عقب الأنبياء . ما بعث الله نبياً قط من غير نسل الأنبياء ، وذلك أن الله شرع لبني آدم طريقاً منيراً ، وأخرج من آدم نسلاً طاهراً طيباً ، أخرج منه الأنبياء والرسل هم صفوة الله وخلّص الجوهر ، طُهروا في الأصلاب ، وحُفظوا في الأرحام ، لم يصبهم سفاح الجاهلية ولا شاب أنسابهم ، لأن الله عزّ وجلّ جعلهم في موضع لا يكون أعلى درجة وشرفاً منه . فمن كان خازن علم الله وأمين غيبه ومستودع سره وحجته على خلقه وترجمانه ولسانه ، لا يكون إلّا بهذه الصفة . والحجة لا يكون إلّا من نسلهم ، يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله في الخلق بالعلم الذي عنده وورثه عن الرسول . إن جحده الناس سكت ، وكان بقاء ما عليه الناس قليلاً مما في أيديهم من علم الرسول على اختلاف منهم فيه ، قد أقاموا بينهم الرأي والقياس . وإنهم إن أقرّوا به وأطاعوه وأخذوا عنه ، ظهر العدل وذهب الاختلاف والتشاجر ، واستوى الأمر وأبان الدين ، وغلب على الشك اليقين . ولا يكاد أن يقرّ الناس به ولا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول . وما مضى رسول ولا نبي قط لم يختلف أُمته من بعده . وإنما كان علة اختلافهم على الحجة وتركهم إياه» .

قال: فما يصنع بالحجة إذا كان بهذه الصفة ؟

قال عليه السلام: «قد يقتدي به ويخرج عنه الشيء بعد الشيء مكانه منفعة الخلق وصلاحهم، فإن أحدثوا في دين الله شيئاً أعلمهم، وإن زادوا فيه أخبرهم، وإن فيه أخبرهم، وإن نقذوا منه شيئاً أفادهم...»[1].

تلك هي قاعدة المنهج وأصل الدعوة، وهي محفوفة بالصعاب والعوائق: وما يسفره الله له من علم وزوده به من رفعة وخصال، وما اختصه به من مزايا الإمامة، كافية لقيام الحجة بالأمر وظهورها في الواقع، لكن سبيلها وعر، وقد امتلأت الآفاق بالأخطار وأحاطت الصعاب سيرة الإمام من كل الجهات؛ ولذلك فإنّ الرسالة بغاية الصعوبة، وقد أشار الإمام الصادق مراراً إلى المصاعب التي تكتنفه، وإلى ما يحيط بالدعوة. روى المفضل بن عمران أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلّا صدور مشرقة، وقلوب منيرة، وأفئدة سليمة، وأخلاق حسنة. لأن الله تعالى قد أخذ على محبّنا الميثاق، فمن وفى لنا؛ وفى الله له بالجنة، ومن أبغضنا ولم يؤدّ إلينا حقّنا فهو في النار، وإنّ عندنا سرّاً من الله ما كلّف الله أحداً غيرنا ذلك. ثم أمرنا بتبليغه، فبلّغناه، فلم نجد له أهلاً ولا موضوعاً ولا حملة يحملونه، حتى خلق الله لذلك قوماً خلقوا من طينة محمد وذريته عليهم السلام ومن نورهم، صنعهم الله بفضل صنع رحمة، فبلّغناهم عن الله ما أمرنا، فقبلوه واحتملوا ذلك ولم تضطرب قلوبهم، ومالت أرواحهم إلى معرفتنا وسرّنا، والبحث عن أمرنا.

وإنّ الله خلق أقواماً للنار، وأمرنا أن نبلّغهم ذلك، فبلّغناهم، فاشمأزّت قلوبهم منه، فنفزوا[2] عنه، وردّوه علينا، ولم يحتملوه، وكذّبوا به، وطبع الله على قلوبهم؛ ثم أطلق

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٦٧.

(٢) نفز ينفز نفزاً: إذا وثب في عدوه كتاب العين ج٧ ص٣٧٣ مادة نفز، وقيل رفع قوائمه معاً ووضعها معاً. لسان العرب ج٥ ص٤١٨.

ألسنتهم ببعض الحق ، فهم ينطقون به لفظاً ، وقلوبهم منكرة له ...»[١] .

ويبسط عليه السلام أغلب مناظراته وأقواله التي تنعكس عن منهجه بهذا المقصد ، فعندما يتحدث عليه السلام عن التفاضل بالتقوى ، وأن ولد آدم كلهم سواء في الأصل ، ويردّ على أقوالهم من يتحرى مظانّ التدافع وشُبَة الوهن كما يوهمه الشيطان ، يقول عليه السلام :

«نعم ، إني وجدت أصل الخلق التراب ، والأب آدم ، والأم حواء ، خلقهم إله واحد ، وهم عبيده . إنّ الله عزّ وجلّ اختار من ولد آدم أناساً طهّر ميلادهم ، وطيّب أبدانهم ، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، أخرج منهم الأنبياء والرسل فهم أزكى فروع آدم ، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عزّ وجلّ ، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً ، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده ، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب ، وساير الناس سواء ، إلّا من اتقى الله أكرمه ، ومن أطاعه أحبه ، ومن أحبه لم يعذبه بالنار»[٢] .

وتوحي النظرة في حدود مدرسة الإمام الصادق وضروب مساعي أصحابه ، باستقرار الأمر واستتباب الحال؛ لأن مظاهر العمل تجري بنظام واسع حتى كأن الحكام لا وجود لهم . وذلك ما يدعو إلى التأمل في سرّ هذه القوة ، وإلى التفكر ـ لمن يراودهم الشك ـ في أصل هذه القدرة وقيامها كسلطة قواعدها في القلوب والصدور ، وتعتمد تسديد الله لها وتأييده ، وتضع سياساتها في مجال الطاعة والعبودية للخالق الواحد . وقد تقدّم كثير من الموارد في ما مضى من الكتاب عن الحالات التي كان سلاح الإمام الصادق

(١) بحار الأنوار ج٢٥ ص٣٨٦ .

(٢) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ٣٤٠ .

فيها هو اللجوء إلى الله والتوكل عليه . وقد جعل الإمام الصادق ذلك من أهم مكونات منهجه ، فيقول ﷺ لبعض أصحابه: «إذا خفت أمراً يكون ، أو حاجة تريدها ، فابدأ بالله عزّ وجلّ ، فمجّده ، واثنِ عليه كما هو أهله ، وصلّ على النبي ﷺ واسأل حاجتك ، وتباكَ ولو مثل رأس الذباب ، إن أبي ﷺ كان يقول: إن أقرب ما يكون العبد من الربّ عزّ وجلّ وهو ساجد باكٍ»[١] .

وسئل ﷺ: ما العلّة التي من أجلها لا يصلي الرجل وهو متوشح فوق القميص؟ فقال ﷺ: «لعلّة التكبر في موضع الاستكانة»[٢] .

أما الغرض ذاته ، فإنّ الإمام الصادق يصف واجباته بشرح يدخل في عوالم العبودية لله التي تؤدي إلى إشعار المؤمن بالقوة والتفوق في وسط ذلك الخضم من الأحداث .

ففي الركوع يقول ﷺ : «لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة ؛ إلّا زيّنه الله بنور بهائه ، وأظلّه في ظل كبريائه ، وكساه كسوة أصفيائه . والركوع أول ، والسجود ثانٍ ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني . وفي الركوع أدب ، وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاشع لله عزّ وجلّ بقلبه ، متذلل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حَزِن على ما يفوته من فائدة الراكعين»[٣] .

وفي السجود ﷺ:

«ما خسر والله تعالى قط من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه ، غافل لاهٍ عمّا أعدّ الله تعالى للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل ؛ ولا بَعُد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقرّبه في

---

(١) جواهر الكلام ج١١ ص٧٣.

(٢) علل الشرائع ص٣٢٩.

(٣) بحار الأنوار ج٨٢ ص١٠٨.

السجود ، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده . فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خُلق من تراب يطأه الخلق ، وأنه ركّب من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكُوّن ولم يكن . وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح ، فمن قَرُبَ منه بُعد من غيره . ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلّا بالتواري عن جميع الأشياء؟ والاحتجاب عن كل ما تراه العيون . كذلك أراد تعالى أمر الباطن ، فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «قال الله عزّ وجلّ: ما أطّلع على قلب عبد فأعلم فيه حبّ الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي ، إلّا توليت تقويمه وسياسته . ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين»[2] .

أما التشهد في الصلاة فيصفه عليه السلام :

«التشهد ثناء على الله فكن عبداً في السرّ ، خاضعاً له في الفعل ، كما أنك عبد له في القول والدعوى . وصِلْ صدق لسانك بصفاء صدق سرّك ، فإنه خلقك عبداً ، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلّا بقدرته ومشيئته ، وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلّا بإذنه وإرادته . قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3] فكن لله عبداً شاكراً بالقول والدعوى ، وصِلْ صدق لسانك بصفاء سرّك ، فإنه خلقك ، فعزّ وجلّ أن تكون إرادة ومشية لأحد إلّا بسابق إرادته ومشيته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في أداء أوامره . وقد

(١) الأحزاب: ٤ .
(٢) مصباح الشريعة ص٩١.
(٣) القصص: ٦٨ .

أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ فأوصل صلاته بصلاته ، وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته . وانظر ألّا تفوتك بركات معرفة حرمته؛ فتحرم عن فائدة صلاته . وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب ، وتعلم جليل مرتبته عند الله عزّ وجلّ»[(١)] .

وقبل أن نأتي إلى التسليم أو استقبال القبلة ، فإنّ ما يطلع عليه المؤمن في عالم العبودية من وجوه الحرية ومظاهر العزّة وأسباب القوة ، وما يراه في دنيا الطاعة من أشكال النفع وعوامل السيادة ، وبواسطة بيان الإمام الصادق وبنائه اللغوي وصياغته البلاغية ، يلمس المسلم في ظلّ الظرف أنّ عالم الإمامة ومنهج الحجة هو الطريق إلى الصميم والغور ، وأنّ عالم السلطان وسياسة خلفاء الزمان هو في الشكل والمظهر ، والأول فيه من القوة والمنعة ما يكسر السيوف ، ويبطل مكايد الحكّام ، لأنّه متصل بالله ومتعلّق بهداه .

ولهذا رأينا الإمام الصادق ـ كما في رواية عمّار الساباطي ـ ينهى أن يتوشّح الإمام . وفي رواية أُخرى عن الهيثم بن واقد أنّ الإمام قال: «إنما كره التوشح فوق القميص لأنه من فعل الجبابرة»[(٢)] .

وأيّ مؤمن مسلم يستغني على مرّ الدهور عن أضواء الصادق ؑ؟ وهو يقود الألباب ، ويوجه النفوس إلى عوالم الإسلام وروحانية الرسالة المحمدية التي استملى منها قواعد منهجه ، واستمد من بهائها روائع نهجه . وما أوردناه متعلق بالأجزاء القليلة التي اخترناها ، أما غيرها من أقوال الإمام الصادق فهي من السعة والكثرة بحيث قامت عليها أصول كتب الفقه الشيعي ، وأغنت

---

(١) عيون أخبار الرضا ؑ ج٢ ص١٠٨.

(٢) علل الشرائع ص٣٢٩.

مصنّفات علمائهم عبر المئات من السنين ، وضمّت أبواب الصلاة بيان علل الأركان والركعات والأحكام المتعلقة بها ، وما إليها من مستحبات ومبطلات ، وكافة المسائل المتعلّقة بها مما يحمل المسلم إلى بحر زخّار بالعلم والهداية .

في التسليم يقول الإمام الصادق عليه السلام :

«معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان ، أي من أتى أمر الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله خاضعاً له خاشعاً منه ؛ فله الأمان من بلاء الدنيا ، والبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من أسماء الله تعالى ، أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات ، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فإن أردت أن تضع السلام موضعه ، وتؤدي معناه ، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ، ألّا تدنسها بظلمة المعاصي . ولتسلم منك حفظتك ألّا تبرمهم وتملّهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك . فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم ، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق»(1) .

أما الاستقبال ، فإنّ الإمام الصادق يجعله خروجاً من مشاغل الدنيا وهمومها ، وتطلّعاً إلى عالم الله: «إذا استقبلت القبلة فآيس من الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى وعاين بسرّك عظمة الله عزّ وجلّ ، واذكر وقوفك بين يديه ، قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾(2) وقف على قدم الخوف والرجاء»(3) .

إذاً من المكوّنات الأساسية للمدرسة والمنهج هو العمل على الطاعة ؛

(1) مصباح الشريعة ص٩٤.

(2) يونس: ٣٠.

(3) مصباح الشريعة ص٨٧.

والدخول إلى عالم العبودية المطلقة لله ، وفي ذلك سرّ هذا التكامل في المنهج والقوة في الموقف إذا نظرت إلى ذلك العصر بنظرة العموم ، من حيث إن الدنيا موضع ابتلاء لامتلائها بالمفاسد والأهواء التي لها سلطان على الأنفس في كل الأحوال ، إلّا من رحم الله ، فقاده إلى الإيمان وهداه إلى الحجة . أما إذا نظرت إلى العصر بخصائصه وأحواله ، فهو مليء بالأحداث كما رأيت ، فإن وضعنا مدرسة الإمام الصادق وسط هذه الأحداث ، وجدنا أن المدرسة في معركة لا تهدأ ، وجهاد لا يفتر . وقد جلبت شهرة الإمام الصادق وشيوع ذكره أفراداً من الناس لهم أغراض مختلفة ، فمنهم الباحث عن الحق الذي يرجوه لشفاء نفسه مما ألمّ بها لتعرّضها إلى الأفكار والأقوال التي يموج بها المجتمع ، ومنهم المتبحر في علوم الكلام وفنون الفكر ومذاهب الأولين ، ومنهم الملحد الزنديق ، إلى غيرهم من الأصناف . والكثير منهم يتّصل بفرقة وينتمي إلى مذهب ، فالحرورية وغيرها ما زالت في ثنايا المجتمع تعمل بفسادها ، والعثمانية ونحوها موغلة في جسم الأُمة بعنادها ، والمعتزلة وأصنافها متسابقة في المضمار ساعية إلى الانتصار ، والجبرية وسلطانها تؤثر في النفوس بأفكارها .

وقد مرّ بنا ذكر أغلبها في معرض أقوال الإمام الصادق وأجوبته ، أو مناظرات أصحابه وحصرنا علاقة الإمام الصادق بالمعتزلة في أجواء هذا العصر بالجانب الذي يتعلّق بموقف الإمام الصادق من الحكّام والظلم كما سيأتي . أمّا أقوالهم الأُخرى وأهمها: أنّ الإنسان يخلق أعماله ، وأن ليس لله في ذلك صنع أو تقدير . ويقابلهم الجبرية الذين ينفون قدرة الإنسان ، ويضيفون الفعل إلى الله حقيقة وإضافة .

ففي وسط احتدام الجدل في ذلك ، وتحكّم العناد والانفعال ، قال الإمام

الصادق مقالة الحق التي تقوم على حقائق التنزيل ودلائل الواقع ، فقال عليه السلام : «لا جبر ولا تفويض . لأنّ الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذّبهم عليها»[١] .

وكان ذلك في مبدأ ظهور الجدل في هذه المسألة ، وبقي قوله عليه السلام قاعدة ثابتة وعقيدة راسخة . فالإمام علي بن موسى الرضا عندما يسأل عن قول جدّه الصادق عليه السلام وما معناه؟ يقول الرضا: «من زعم أن الله عزّ وجلّ فعل أفعالنا ، ثم يعذبنا عليها ؛ فقد قال بالجبر . ومن زعم أن الله عزّ وجلّ فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه ؛ فقد قال بالتفويض . فالقائل بالجبر كافر ، والقائل بالتفويض مشرك»[٢] .

والقصد أنّ تلك الفترة التي عاشها الإمام الصادق شهدت مقالات واعتقادات وآراء شتى وجدت طريقها إلى عقول الناس ، وتباينت آثارها ، واختلف أثرها . ومن الحق فإن العناية الإلٰهية في توجيه الإمامة ونهوض الإمام الصادق بأعباء مسؤولياتها قد حفظ تماسك الأُمة وبقاء معتقداتها الأصلية ، ولا يمكن أن نتصور شخصاً أو جهات متعددة ـ وإن تظاهرت واتحدت ـ بقادرة على القيام بمثل هذه المهمة ، ومواجهة ما يجري على الساحة وما يزرع فيها من أفكار ، غير من يشرق بنور النبوة ويفرغ من معين حكمتها عالماً بأسرار الملة ، عارفاً بدقائق الحكمة الإلٰهية ، محيطاً بتاريخ الشرائع والأديان والأُمم كالإمام الصادق عليه السلام . فتجد في كل رأي حجة ، وفي كل إجابة له مستند يناسب القول ويدعمه .

فعندما يسأله أعداء الإسلام: كيف يجيء من لا شيء شيء؟ يقول عليه السلام: «إنّ الأشياء لا تخلو إما أن تكون خلقت من شيء أو من غير شيء ، فإن كان خلق من شيء كان

---

(١) التوحيد للصدوق ص٣٦١ ح٦.

(٢) روضة الواعظين ص٣٨.

معه ، فإنّ ذلك الشيء قديم ، والقديم لا يكون حديثاً ، ولا يفنى ولا يتغير . ولا يخلوا ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً . فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى؟ ومن اين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الأشياء حياً؟ ومن أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً؟ ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا؛ لأنّ الحي لا يحي منه ميت وهو لم يزل حياً . ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت ، لأن الميت لا قدرة له ولا بقاء»[1] .

وفي مورد الردّ على القول بأن الأشياء أزلية . قال عليه السلام :

«هذه مقالة قوم جحدوا مدبّر الأشياء ، فكذّبوا الرسول ومقالتهم ، والأنبياء وما أنبأوا عنه ، وسمّوا كتبهم أساطير ، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم . إن الأشياء تدل على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه ، وهي سبعة أفلاك: تحرّك الأرض ومن عليها ، وانقلاب الأزمنة ، واختلاف الوقت ، والحوادث التي تحدث في العالم من زيادة ونقصان وموت وبلى ، واضطرار النفس إلى الإقرار بأن لها صانعاً ومدبّراً . ألا ترى الحلو يصير حامضاً ، والعذب مرّاً ، والجديد بالياً ، وكلّ إلى تغير وفناء»[2]؟

ونورد هنا أمثلة بسيطة للإشارة فحسب وليست للاستقصاء والإحاطة؛ ليحصل للقارئ ما يومئ إلى أغوار العلوم التي قامت عليها شخصية الإمام الصادق عليه السلام لأن الإحاطة بالجانب العلمي من شخصيته عليه السلام وآثاره في منهجه أكبر من اختصاص فصل من الفصول ، بل هو أكبر مما عليه وسع الطاقة .

فانظر إلى قوله عليه السلام : «إني رأيت الرجل الماهر في طبه إذا سألته لم يقف على حدود

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٢٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

نفسه ، وتأليف بدنه ، وتركيب أعضائه ، ومجرى الأغذية في جوارحه ، ومخرج نفسه ، وحركة لسانه ، ومستقرّ كلامه ، ونور بصره ، وانتشار ذكره ، واختلاف شهواته ، وانسكاب عبرته ، ومجمع سمعه ، وموضع عقله ، ومسكن روحه ، ومخرج عطسته ، وهيج غمومه ، وأسباب سروره ، وعلّة ما حدث فيه من بكم وصم وغير ذلك . لم يكن في ذلك أكثر من أقاويل استحسنوها ، وعلل فيما بينهم جوّزوها»[١].

ولكنه عليه السلام يحتج بعلمه بتأليف الأبدان وحكمة الخلق في أمور الفقه بقصد التنبيه على تجنّب القول في الدين بالرأي . ويصرّح أن علمه أخبره به أبوه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى بمنّه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ، ولولا ذلك لذابتا . وجعل المرارة في الأذنين من الدواب ، فإن دخلت دابة والتمست الدماغ ، فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج . وجعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الريح ، ولولا ذلك لأنتن الدماغ . وجعل العذوبة في الشفتين يجد بهما استطعام كل شيء ، ويسمع الناس بهما حلاوة منطقه»[٢].

وتكشف الأسئلة التي توجه إليه عن نمط من الفكر ، متأثر بنتائج الاطلاع على مدارس القدماء وفلسفة الأولين ، وهم في تردّدهم وقصدهم الإمام الصادق كانوا يستشعرون ضعف أقوالهم وبطلان حججهم ، فيزدادون إلحافاً .

روي أنّ المفضل لما سمع من ابن أبي العوجاء بعض ما رشح منه من الكفر والإلحاد ، لم يملك غضبه فقال: يا عدو الله ، ألحدت في دين الله وأنكرت الباري...

قال له ابن أبي العوجاء: يا هذا ، إن كنت من أهل الكلام كلّمناك ، فإن ثبتت

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٤٢.

(٢) انظر علل الشرائع ص٨٦ـ ٩٢.

لك الحجة تبعناك . وإن لم تكن منهم فلا كلام لك ، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل ذلك يجادلنا . ولقد سمع من كلامنا أكثر ماسمعت ، فما أفحش في خطابنا ، وإنه الحليم الرزين العاقل الرصين ، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق ، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ، ويستعرف حجتنا ، حتى إذا استفرغنا ما عندنا ، وظننا أنّنا قد قطعناه ، أدحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير ، يلزمنا الحجة ، ويقطع العذر ، ولا نستطيع لجوابه رداً[١] .

سألوا الإمام الصادق: فيم استحق الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض بلا ذنب عمله ولا جرم سلف منه ؟

قال عليه السلام : «إن المرض على وجوه شتى: مرض بلوى ، ومرض عقوبة ، ومرض جعل للفناء . وأنت تزعم أن ذلك من أغذية ردية أو شربة وبيّة ، أو من علة كانت بأمه . وتزعم أن أحسن السياسة لبدنه ، وأجمل النظر في أحوال نفسه ، وعَرَفَ الضارّ مما يأكل من النافع لم يمرض . وتميل في قولك إلى من يزعم: أنه لا يكون المرض والموت إلّا من المطعم والمشرب؟ قد مات أرسطوطاليس معلّم الأطباء ، وأفلاطون رئيس الحكماء ، وجالينوس شاخ ودقّ بصره ، وما دفع الموت حين نزل بساحته ، ولم يألوا حفظ أنفسهم والنظر لما يوافقها . كم مريضاً زاده المعالج سقماً ، وكم من طبيب عالم ، وبصير بالأدواء والأدوية ماهر مات ، وعاش جاهل بالطب بعده زماناً ، فلا ذاك نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدته وحضور أجله ، ولا هذا ضرّه الجهل بالطب مع بقاء المدة وتأخر الأجل»[٢] .

ثم قال عليه السلام : «إن أكثر الأطباء قالوا: إن علم الطب لم تعرفه الأنبياء ، فما نصنع على

---

(١) توحيد المفضل ص٧ ـ ٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

قياس قولهم بعلم زعموا ليس تعرفه الأنبياء الذين كانوا حجج الله على خلقه وأُمناءه في أرضه وخزّان علمه ، وورثة حكمته ، والأدلّاء عليه ، والدعاة إلى طاعته . ثم إني وجدت أن أكثرهم يتنكب في مذهبه سبل الأنبياء ، ويكذّب الكتب المنزلة عليهم من الله تبارك تعالى . فهذا الذي أزهدني في طلبه وحامليه» (١) .

ويظهر لنا من أجوبة الإمام الصادق عليه السلام ومناظراته ، أنّ المسائل التي احتوتها لم تترك ضرباً من التساؤل والتفكر يتعلق بعلم أو تاريخ أو دين أو فقه إلّا وأشبعته إيضاحاً وبياناً ، ويجري الكلام في منهج يعتبر القصد ويراعي الغرض؛ لأنّ طريقة الاحتجاج والردّ في منهج الإمام الصادق هي غير طريقة الإرشاد والنصح والتعليم ، وعلامات كل منهما واضحة .

روى محمد بن مسلم والحلبي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (٢) فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ اشترط على الناس شرطاً ، وشرط لهم شرطاً ، فمن وفى له وفى الله له» . فقالا له: فما الذي اشترط عليهم ، وما الذي شرط لهم؟ فقال: «أما الذي اشترط عليهم ، فإنه قال الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج . وأما الذي اشترط لهم ، فإنه قال: فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى . فقال: يرجع ولا ذنب له» . فقالا: أرأيت من أُبتلي بالفسوق ما عليه؟ قال: «لم يجعل الله له حداً يستغفر الله ويلبي» . فقالا: فمن أُبتلي بالجدال فما عليه؟ فقال: «إذا جادل فوق مرتين ، فعلى المصيب دم يهريقه شاة وعلى المخطئ بقرة» (٣) .

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٣٤٢.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) تفسير نور الثقلين ج ١ ص ١٩٤ ح ٧٠٣.

وحين يتدرج الزنادقة والملحدون في محاورته ، ويسأله المشككون والكفار بكل ما يعنّ لهم ، ترى جوابه ﷺ بشيء من الإيجاز المذهل الذي يجمع أطراف المعرفة ويضمّ الأدلة الشافية .

فمن جملة حوار طويل . يُسأل ﷺ: فما قصة ماني ؟

ويجيب ﷺ: «متفحّص أخذ بعض المجوسية فشابها ببعض النصرانية . فأخطأ الملّتين ، ولم يصب مذهباً واحداً منهما ، وزعم أنّ العالم دبّر من إلهين نور وظلمة ، وإنّ النور في حصار من الظلمة على ما حكينا منه ، فكذّبته النصارى ، وقبلته المجوس» .

قال: فأخبرني عن المجوس ، أفبعث الله إليهم نبياً؟ فإنّي أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة ، وأمثالاً شافية ، يقرّون بالثواب والعقاب ، ولهم شرايع يعملون بها . قال ﷺ: «ما من أمة إلا خلا فيها نذير . وقد بُعث إليهم نبي بكتاب من عند الله فأنكروه وجحدوا كتابه» .

قال: ومن هو ، فإن الناس يزعمون أنه خالد بن سنان ؟

قال: «إن خالداً كان عربياً بدوياً ، ما كان نبياً ، وإنما ذلك شيء يقوله الناس» .

فقال: أفَزَرَدَشْت؟

قال ﷺ: «إن زردشت أتاهم بزمزمة ، وادعى النبوة ، فآمن منهم قوم وجحده قوم ، فأخرجوه ، فأكلته السباع في برية من الأرض» .

قال: فأخبرني عن المجوس ، كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم أم العرب؟

قال ﷺ: «العرب في الجاهلية كانت أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس؛ وذلك أن المجوس كفرت بكل الأنبياء وجحدت كتبهم وأنكرت براهينهم ولم تأخذ بشيء من سننهم وآثارهم ، وإن كيخسرو ـ ملك المجوس في الدهر الأول ـ قتل ثلاثمائة نبي ، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة ، والعرب كانت تغتسل من الجنابة ، والاغتسال من خالص

شرائع الحنيفية . وكانت المجوس لا تختن ، وهو من سنن الأنبياء ، وأول من فعل ذلك إبراهيم خليل الله ، وكانت المجوس لا تغسل موتاها ولا تكفنها ، وكانت العرب تفعل ذلك . وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحاري والنواويس ، والعرب تواريها في قبورها وتلحدهم، وكذلك السنّة على الرسل ، إن أول من حفر له قبر آدم أبو البشر وألحد له لحد . وكانت المجوس تأتي الأُمهات وتنكح البنات والأخوات ، وحرمت ذلك العرب . وأنكرت المجوس بيت الله الحرام وسمّته بيت الشيطان ، والعرب كانت تحجّه وتعظّمه وتقول: بيت ربنا ، وتقرّ بالتوراة والإنجيل وتسأل أهل الكتب ، وتأخذ . وكانت العرب في كل الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس...» .

قال: فإنّهم احتجوا بإتيان الأخوات أنها سنّة آدم .

قال: «فما حجتهم في إتيان البنات والأُمهات[1] ، وقد حرّم ذلك آدم ، وكذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء وكل ما جاء عن الله عزّ وجلّ» .

قال: ولم حرّم الله الخمر ، ولا لذة أفضل منها؟

---

(١) معلوم أنّ الإمام الصادق عليه السلام ساق الزواج بالمحارم من البنات والأُمهات في الاستدلال ليكون الردّ أشمل فقد بيّن عليه السلام خطأ القول بأنّ الله أوحى إلى آدم أن يزوج بناته بنيه ورواية زرارة بن أعين أنّ الإمام الصادق سئل عن ذلك فأجاب :

«تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً يقول من قال هذا: بأن الله عز وجل خلق صفوة خلقه وأحبّاءه وأنبياءه ورسله المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من حرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال . وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطهر الطاهر الطيب: إنّ الله أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام وإنّ كتب الله كلها فيما جرى فيها القلم في كلها تحريم الإخوة مع ما حرم . لما قتل قابيل هابيل جزع آدم على هابيل جزعاً قطعه عن إتيان النساء ثم تخلى ما به من الجزع فغشي حواء فوهب الله له شيثاً وحده وليس معه ثاني . ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثاني فلما أدركا وأراد الله عزّ وجلّ أن يبلغ بالنسل ما ترون وأن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرّم الله عزّ وجلّ من الأخوات على الإخوة أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنة فأمره الله عزّ وجلّ أن يزوجها من شيث فزوجها منه . ثم أنزل بعد العصر من الغد حوراء من الجنة فأمره الله عزّ وجلّ أن يزوجها من يافث ، فزوجها منه...» الرواية . بحار الأنوار ج ١١ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

قال: «حرّمها لأنها أم الخبائث وأس كل شر، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه، ولا يعرف ربه، ولا يترك معصية إلّا ركبها، ولا حرمة إلّا انتهكها، ولا رحماً ماسة إلّا قطعها، ولا فاحشة إلّا أتاها. والسكران زمامه بيد الشيطان إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حينما قاده».

قال: فلم حرّم الدم المسفوح؟

قال: «لأنه يورث القساوة. ويسلب الفؤاد رحمته، ويعفّن البدن، ويغير اللون، وأكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم».

قال: فالميتة لِمَ حرّمها؟

قال عليه السلام: «فرقاً بينها وبين ما يذكر اسم الله عليه، والميتة قد جمد فيها الدم، وتراجع إلى بدنها، فلحمها ثقيل غير مريء، لأنها يؤكل لحمها بدمها»[1].

وأخيراً فإنّ الإنسان يجد نفسه وهو يبحث في منهج الإمام الصادق ومدرسته العلمية عاجزة عن تخيّل حدّ يعتقد أنّ الوقوف عنده يكون ختاماً مناسباً لما بدأه، لأنّ شخصية كالإمام الصادق عليه السلام، لا يفي الكلام على نهجها العلمي وما تركته من مآثر مثل هذا الجهد المتواضع.

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

الإمام الصادق (ع)

وموقفه من الحكام الظالمين

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

من أبرز سمات تاريخ أهل البيت عليهم السلام ، وأظهر خصائص سيرهم ، هو النهي عن الظلم ومحاربة الظالمين . وقد قام رجال أهل البيت النبوي بما يجب عليهم من نصرة العدل والوقوف بوجه الطغاة ، وكانت مواقفهم كما تقتضيه المصلحة الدينية وتحتمه ضرورات الرسالة والدعوة .

كانوا عليهم السلام يعظّمون على الإنسان ارتكاب العدوان على الغير وظلم الناس ، فهذا إمام أهل العدل أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهّداً ، أو أجرّ في الأغلال مصفّداً ؛ أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام»[3].

وقد اتفقت الشرائع وتطابقت الأديان كما تسالمت العقول على قبح الظلم؛ فسعى سيد الخلق وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله إلى إرساء قواعد العدل في حياته ، وتأكيد مبادئ المساواة على عهده ، ثم وضع الناس في صورة ما ستكون عليه الحال وما ستؤول إليه . فعن كعب بن عجرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «أُعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أُمراء يكونون بعدي ، من غشي أبوابهم وصدّقهم في كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولا يرد عليّ

---

(١) هود: ١١٣ .

(٢) المائدة: ٤٥ .

(٣) نهج البلاغة ص٣٤٦ خطبة ٢٢٤ .

الحوض . ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدّقهم في كذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وسيرد عليَّ الحوض»[1] .

وقد خرج الإمام أحمد[2] والترمذي[3] والنسائي[4] وابن حيان[5] في صحيحه ذلك .

مرحلة الثورة ومرحلة الدعوة

وقد كان من عظيم منزلة أهل البيت عند الله وخطورة شأنهم أن يكونوا مناط الرسالة ووسيلة استمرار الدعوة ، فكانت الإمامة مشتملة على صفات العصمة التي تفيض بنور من الجلالة وبسلطة من النبوة حتى تكون الدعوة في حفظ وتبقى في حرز ، وللأئمة من أهل البيت أدوارهم ومهمّاتهم التي ينهضون بها في كل مرحلة ، فكان صلح الحسن حماية للأمة ، بعدما أظهرت الوقائع أنّ سياسة الختل وحكم الطلقاء هيمنا على الناس وأفسدا النفوس ، وأن معسكر العراق غلبت عليه أهواء أهل النفوس المريضة والهمم الضعيفة ، وبات المخلصون قلة لا يرجى لهم نصر ، فهادن الحسن بشروط معروفة ، واستقبلها معاوية بنيّة الغدر والخيانة .

ثم كانت ثورة الإباء ونهضة الإيمان على يد أبي الشهداء الإمام الحسين ، التي قامت منذ ساعة خروج الحسين من المدينة على بيّنة كاملة وصورة

(١) تيسير الوصول الشيباني ج٢ ص ٤٠ .
(٢) مسند أحمد ج٤ ص٤٢٥ ح١٥٢٨٤ .
(٣) صحيح الترمذي ج١ ص ٦٠٠ ـ ٦٠١ ح٦١٤ .
(٤) السنن الكبرى للنسائي ج٧ ص ١٨٠ ح٤٢١٨ .
(٥) صحيح ابن حبان ج١٠ ص٣٧٢ ح١٥١٤ .

واضحة من التفاصيل والمجريات ، فلا بد من تلك الدماء والتضحيات للوقوف بوجه الانحراف والردة وترسيخ مبادئ العقيدة في النفوس ، وقد كانت الجولة الثانية بين الوثنية التي اضطرت إلى الإسلام لتسلم ، وبين رسالة محمد ، وكان من نتائج هذه الجولة أن تسفك دماء أهل بيت محمد ، وتسبى نساؤه وذراريه ، وترتكب أمية تلك المجزرة ، وكان ذلك كله وفق تخطيط السماء لمسيرة البشرية وسلسلة الرسل والأنبياء والأوصياء عبر التاريخ .

روى أحمد(١) ، وأخرج البغوي في معجم الصحابة(٢) ، والطبراني(٣) عن أنس قال: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له . وكان في يوم أم سلمة ، فقال النبي ﷺ لأم سلمة: «إحفظي الباب لا يدخل علينا أحد ، فبينما هي على الباب ، إذ دخل عليه الحسين فاقتحم يتوثب على رسول الله ﷺ فجعل النبي ﷺ يلثمه ويقبله» فقال له الملك: أتحبه؟ قال «نعم» قال: إن أمتك ستقتله ، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به . فأراه إياه ، فجاء بطينة حمراء ، فأخذتها أم سلمة فصرتها في خمارها . قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء .

وأخرج الطبراني عن أبي الطفيل قال: استأذن ملك القطر بأن يسلم على النبي ﷺ في بيت أم سلمة ، فقال: «لا يدخل علينا أحد» فجاء الحسين فدخل ، فقالت أم سلمة: هو الحسين . فقال: «دعيه» فجعل يعلو رقبة رسول الله ويعبث به ، والملك ينظر . فقال الملك: أتحبه يا محمد؟ قال: «أي والله وإني لأحبه» قال: أما أن أمتك ستقتله ، وإن شئت أريتك المكان . فقام فتناول بيده كفاً من تراب ، فأخذت أم سلمة التراب ، فصرته في خمارها ، فكانوا يرون أن ذلك

---

(١) مسند أحمد ج٤ ص١٦٦ ح١٣٣٨٣ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٦ ص٤٦٩ .

(٣) المعجم الكبير ج٣ ص١٠٦ ح٢٨١٣ .

التراب من كربلاء[١] .

وعن عبدالله بن نجي عن أبيه أنّه سافر مع الإمام علي ـ وكان صاحب مطهرته ـ فلما جاءوا نينوى وهو منطلق إلى صفين نادى علي: «صبراً أبا عبدالله ، صبراً أبا عبدالله لشط الفرات» قلت: ومن ذا أبو عبدالله؟ قال الإمام: «دخلت على رسول الله ﷺ وعيناه تفيضان ، فقلت: يا نبي الله ، أغضبك أحد ، ما شأن عينيك؟ قال ﷺ: بلى قام من عندي جبريل قبل فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات ،وقال: هل لك أن أشمك من تربته؟ فقلت: نعم . فمدّ يده ، فقبض قبضة من تراب فأعطانيها ، فلم أملك عيني أن فاضتا»[٢] .

ولذلك ترى الحسين يجيب من يريده على العدول عن مواجهة بني أُمية بالقول: «ومهما يقضِ الله يكن» . فهو ﷺ يعلم رسالته كيف تكون وما هو مقدم عليه ، ولا بد من مقاومة الظلم ، بعد أن أدى البغي على أبيه وأخيه ﷺ إلى قوة غاشمة وسلطان جائر . فكان يردّ على ابن عباس: «لأن أُقتل والله بمكان كذا أحب إليّ من أن استحل بمكة» . وفي لفظ: «أحب إليّ من أن يستحلّ بي حرم الله ورسوله»[٣] .

وأتاه رجل من مشايخ العرب فقال له ﷺ: أنشدك الله تعالى إلّا انصرفت ، فوالله ما تقدم إلّا على الأسنّة وحدّ السيوف ، فإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطّأوا لك الأُمور ، وقدمت من غير حرب كان ذلك رأياً ، وأما على هذه الحالة التي ترى فلا أرى لك أن تفعل .

فقال له الحسين ﷺ: «لا يخفى عليّ شيء مما ذكرته ، ولكني صابر محتسب حتى

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ص٤٤ و٤٥ .
(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ج٦ ص٤٠١، والمعجم الكبير للطبراني ج٣ ص١٠٦ .
(٣) مروج الذهب ج٣ ص٦٥، والمعجم الكبير للطبراني ج٣ ص١١٩ .

يقضي الله أمراً كان مفعولاً»(١).

وقال الحسين ؑ في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية :

«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدّي محمد ﷺ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدّي محمد ، وسيرة أبي علي بن أبي طالب . فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن ردّ عليّ هذا ، صبرت حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق ويحكم بيني وبينهم وهو خير الحاكمين»(٢).

ويستشهد الحسين ؑ هو وأصحابه ، وتجري تلك الفظائع ، ويرتكب آل أبي سفيان قبائح لم تعهد حتى في الجاهلية ، وقد أحزنت قلوب أهل الكتاب ، وتوجع لها أصحاب الشرائع والملل الأُخرى . وبثورة الطف حِيْلَ بين أُمية وبين العودة بالحكم إلى الجاهلية والارتداد بالأُمة إلى الشرك؛ لأنّ مظاهر الفداء وصورة البطولة والتضحية التي زخرت بها سيرة الإمام الحسين ، وظهرت ببهائها على أرض كربلاء بإزاء قوات الشرك والضلالة جدّدت مسيرة الجهاد وأحيت في النفوس روح الرسالة ، ووضعت الأُمة على طريق الهداية والحق(٣).

الإمام زين العابدين ؑ

ولننظر إلى نهاية المعركة بين الثورة وبين الظالمين ، فإنّ أشكال الحقد التي انطوت عليها نفوس الظالمين وأعوانهم ، ومشاعر الحقد والعداء التي

(١) نور الأبصار للشبلنجي ص١٢٩.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ج٢ ص٢٧٣.

(٣) تنظر كتابنا مع الحسين في نهضته بيروت ١٣٩٤ هـ وفيه تناولنا الأحداث بتبسيط ويسر.

تجسدت بتلك الفظائع والانتهاكات . لا يمكن أن يقف أمامها مرض فتى للحسين ويمنعها من قتله . فكل الأفعال تشهد بانعدام الذمة ، وخلوّهم من الرحمة ، وتجرّدهم من الأخلاق . فلم يسلم طفل الحسين الرضيع عبدالله ، فقتلوه بسهم ، وكان أبوه يطلب الماء له . وتجرأوا بكل خِسّة على انتهاك حرمة الخدور ، فأفزعوا ربّات الحجال والطهر والعفاف ، ويمسك القلم هنا استعظاماً .

أقول: نحن مع صفحة من صفحات العناية الربانية لتحفظ الإمام علي بن الحسين ويخرج من المعركة ، وهو مملوء بالحزن والآلام ، وينجيه الله من المواقف الأُخرى التي أعقبت المعركة . فقد أمر ابن زياد بقتل الإمام لولا تدخل بطلة الطف العقيلة زينب وقالت له: «**حسبك من دمائنا ، أسألك بالله إن قتلته إلّا قتلتني معه**» فتركه[١] .

وكان الإمام الحسين عليه السلام قد أخبر بنجاة الإمام زين العابدين من مذبحة كربلاء ، وبرعاية الله لولده علي من سيوف الأُمويين ومحاولاتهم حفظاً لمقام الإمامة التي أعدّ لها وتهيأ وتأهب في ظل السبط المنتجب . وقد ذكر الطبري في دلائل الإمامة كما في رواية السيد ابن طاووس في اللهوف إشارة الإمام الحسين إلى مصرع أصحابه ، وأنه لا ينجو منهم إلّا ولده علي عليه السلام[٢] .

وفي رواية المقتل: أنّ الإمام الحسين منع زين العابدين من أن يشترك في قتال الفجرة أعوان الأُمويين وجنودهم ، فقد حاول الإمام زين العابدين ـ لما رأى وحدة أبيه ـ أن يقاتل برغم مرضه ، فمنعه الإمام الحسين رعاية لأمر الله

---

(١) الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٢ .

(٢) اللهوف ص٢٦ .

في بقاء الرسالة في نسل النبي المصطفى ﷺ ، فلا اعتبار لمحاولات الاعتذار التي سلكها بعض المؤرخين لتبرير تولي من أسهم في جريمة قتل آل محمد والإجهاز على أبناء بيت النبوة وإرضاءً للحكّام وعصبية للإماء الذين ينتسب إليهم قادة محاربي العترة الطاهرة ورسالتهم السماوية ، فيتقولون أن عمر بن سعد قال يوم كربلاء: لا تعرضوا لهذا المريض[1] .

وسرعان ما تقلّد الإمام زين العابدين أعباء الإمامة ، ونهض بمهمات الدعوة ، فوقف بصلابة وهو في بلاط أُمية وفي عاصمة ملكها . وبه تبدأ مرحلة الدعوة في ظل آثار ثورة أبيه الشهيد ، فالدماء التي أهرقت في كربلاء سرت بأوصال التاريخ وشرايين الأيام، فإن بقي للأمويين الظالمين ذكر، فهو لا يمت للعقيدة بصلة ، وإنما في ظل الحكم والسلطان ، وما ينمو في ضلالهما من المظالم والمفاسد . أما ثورة الحسين فهي إطار العقيدة الإسلامية ، ومدخل انتصار العقيدة في النفوس في ظل الإمامة والولاية .

لما أراد يزيد من الإمام زين العابدين أن يصعد المنبر ويتكلم بما يريده ، قال يزيد: اصعد المنبر فأعلم الناس حال الفتنة وما رزق الله أمير المؤمنين من الظفر . فقال الإمام علي زين العابدين: «ما أعرفني بما تريد» . فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه . وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي . أنا ابن مكة ومنى ، أنا ابن المروة والصفا ، أنا ابن محمد المصطفى ، أنا ابن من لا يخفى . أنا ابن من علا فاستعلا ، فجاز سدرة المنتهى ، فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى» . فضج أهل الشام بالبكاء حتى خشي يزيد أن يرحل من مقعده ، فقال للمؤذن: أذّن . فلما قال المؤذن: الله أكبر ،

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٣٨٨ .

الله أكبر. جلس علي بن الحسين على المنبر. فقال المؤذن: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. بكى الإمام زين العابدين ﷺ ثم التفت إلى يزيد فقال:

«يا يزيد هذا أبي، أم أبوك؟».

قال: بل أبوك، فأنزل.

فنزل ﷺ فأخذ بناحية باب المسجد، فلقيه مكحول ـ صاحب رسول‌الله ﷺ ـ فقال:

كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟

قال ﷺ: «أمسينا بينكم مثل بني إسرائيل في آل فرعون، يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم»[1].

وفي أشهر الروايات، أنّ المنهال بن عمرو لقي الإمام زين العابدين في دمشق فقال له: كيف أمسيت يا ابن رسول الله؟ قال: «أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم. يا منهال أمست العرب تفتخر على العجم بأن محمداً منها، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب بأن محمّداً منها، وأمسينا معشر أهل بيته ونحن مقتولون مشرّدون، فإنا لله وإنا إليه راجعون مما أمسينا فيه»[2].

هكذا كانت بداية مسيرة الإمام زين العابدين، وهكذا كان بدء إمامته ومنهج دعوته. وكانت فترة إمامته أربعاً وثلاثين سنة، أدرك الإمام الصادق سنوات منها.

قال الإمام الباقر ﷺ: «إنّ أبي علي بن الحسين ﷺ ما ذكر نعمة الله عليه إلّا سجد، ولا

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٩.

(٢) مثير الأحزان للشيخ ابن نما الحلي ص٨٤ واللهوف للسيد ابن طاووس ص٨١.

قرأ آية من كتاب الله عزّ وجلّ فيها سجود إلّا سجد ، ولا دفع الله تعالى عنه سوءاً يخشاه أو كيد كايد إلّا سجد ، ولا فرغ من صلاة مفروضة إلّا سجد ، ولا وفّق لإصلاح بين اثنين إلّا سجد ، وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده؛ فسمي السجّاد لذلك»(١) .

وعنه ﷺ أيضاً قال: «كان لأبي ﷺ في موضع سجوده آثار ناتئة ، وكان يقطها في السنة مرتين في كل مرة خمس ثفنات . فسمّي ذا الثفنات لذلك»(٢) .

قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين . وقال: بلغني أنه كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة إلى أن توفي ، وسمّي زين العابدين لكثرة عبادته . وكان الزهري إذا ذكر علي بن الحسين يبكي .

وسيأتي ذكر علاقة الزهري بالإمام زين العابدين ، وقد انخرط الزهري في حاشية الملوك والتحق بالأُمويين في مقر ملكهم بالشام(٣) .

وعن سفيان بن عيينة قال: حج زين العابدين ; فلما أحرم أصفرّ لونه ؛ وعرضت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبّي . فسئل عنه قال: «أخشى أن أقول: لبيك . فيقول: لا لبيك» فلما لبّى غشي عليه ، وسقط من راحلته ، فلم يزل يعترضه ذلك حتى قضى حجه(٤) .

قال رجل لسعيد بن المسيب: ما رأيت أحداً أورع من فلان . قال: فهل رأيت علي بن الحسين؟ قال: لا . قال: ما رأيت أحداً أورع منه(٥) .

قال طاووس: سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول: «عُبيدك بفنائك ، سائلك

(١) بحار الأنوار ج٤٦ ص٦ ح١٠.

(٢) علل الشرائع ص٢٣٣.

(٣) انظر الجزء الثاني من كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص١٥١ و٢٤٨ ـ ٢٥١ وهو أبوبكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري.

(٤) ينابيع المودة ج٣ ص١٥٤.

(٥) صفة الصفوة ج٢ ص٤٥١.

بفنائك» . قال طاووس ، فوالله ما دعوت بها في كرب إلّا كشف عني[١] .

قال محمد بن إسحاق: كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك ، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل . وكان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات[٢] . ففقد أُولئك ما كان يأتيهم من معاش ؛ لذا كان آثار جراب الدقيق على جسده الطاهر[٣] .

ولا بد من القول أن الإمام زين العابدين يلقى ربه وعلى ظهره آثار تقواه وصلاحه ، كما يلقى ربه وعلى ظهره آثار مظلمته وجريمة بني أُمية ، وكان مرأى آثار الجامعة في عنقه ﷺ ، وآثار جرح القيد في ساقيه قد أبكى ولده الإمام الباقر لمّا وضعه على المغتسل . وكيف تندمل تلك الجراح والأُمويون على كراسي الحكم ، ودستورهم ظلم أهل البيت؟ فعبد الملك بن مروان على نهج يزيد يحمل الإمام زين العابدين مقيداً من المدينة ويثقله حديداً[٤] .

وينقل شيخنا المفيد ؒ في الإرشاد ومصادر كثيرة أُخرى قول الإمام زين العابدين: «أحبونا حبّ الإسلام ، فما زال حبّكم لنا حتى صار شيناً علينا»[٥] . ويأتي مجرداً دون الإشارة إلى بواعث مثل هذا القول . وهي أن عصره ﷺ شهد بدايات ظهور أقوال الغلاة ، وما تحدّثنا عنه في مشكلة الغلاة في الأجزاء

(١) بحار الأنوار ج٤٦ ص٦ ح١٠ .

(٢) البداية والنهاية: ج٩ ص١٠٥، وتذكرة سبط ابن الجوزي ص٣٢٧، والإتحاف ص٣٦، ونور الأبصار ص٢٨١ .

(٣) صفة الصفوة ج٢ ص٥٤ .

(٤) تذكرة سبط ابن الجوزي: ٣٢٤، وينابيع المودة للقندوزي ج٣ ص١٥٦ .

(٥) الإرشاد ج ٢ ص١٤١ . ورواية ابن كثير عن يحيى بن سعيد: «حتى صار علينا عاراً...» .

السابقة[1] والمتعلق بالأفراد الذين كانت لهم علاقة وصلة بالأئمة الأطهار ، وسقطوا في درك الغلو والإساءة إلى أهل البيت ، يتصل وجودهم بهذه الفترة : وقد عظم أمرهم واشتد في زمن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام .

وتشعر الروايات الأخرى برد الإمام زين العابدين مزاعم هؤلاء وكفرهم ، فيروي أنه قال لهم: «ما أجرأكم وأكذبكم على الله ، نحن من صالحي قومنا ، فحسبنا أن نكون من صالحيهم»[2] . ومن اللازم تقييدها بأسبابها؛ ليبطل تعميم الرواية لأغراض سيئة وخبيثة . والرواية التي تطلق هي: أنه مرض عليه السلام فدخل عليه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يعودونه ، فقالوا: كيف أصبحت يا ابن رسول الله، صلى الله عليه وآله فدتك أنفسنا؟ قال «في عافية ، والله المحمود على ذلك . فكيف أصبحتم أنتم جميعاً؟» قالوا: أصبحنا والله يا ابن رسول الله محبين وادين . فقال لهم عليه السلام : «من أحبنا الله أسكنه الله في ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلّا ظله ، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا بالجنة ، ومن أحبنا لغرض دنيا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب»[3] .

وليس من قصدنا التوسع في البحث عن حياة الإمام السجاد زين العابدين ؛ وإنما الإشارة إلى ما يقتضيه المقام في بيان مراحل عمل الإمامة ووجوه رسالتها ، فكما أن حياة الإمام زين العابدين تتصل بحياة عمه الإمام الحسن ، وحياة أبيه الإمام الحسين ،كذلك فإن حياة الإمام الصادق عليه السلام تتصل بحياة الإمام زين العابدين وحياة أبيه الإمام الباقر عليه السلام .

ونختار من أنوار سيرته وعبق ذكره هذه الآثار القليلة وهي غيض من

---

(١) انظر الجزء الثاني ص٤٢ ـ ٤٥، والثالث ص١٦٧ من الكتاب .

(٢) اعلام الورى ص ٢٦٠ .

(٣) الفصول المهمة لابن الصباغ ص٢٠٦ .

فيض ، لأن سيرته ﷺ ووقائع عصره حافلة بكل ما يمتي من الجلالة والعظمة ، بحيث يكتشف الباحث أنّ أهل هذا البيت لهم دور بإزاء انجرار الناس إلى السلطان والتهافت على الدنيا ، وأنّ ذلك الدور هو الذي أبقى على الأُصول والقواعد الدينية والشرعية .

لقد جسّد ﷺ وقع المأساة التي اجتازها فقال كلمته: «**فقد الأحبة غربة**» وكان صوته ﷺ يسمع في جوف الليل وهو يقول: «**أين الزاهدون في الدنيا ، الراغبون في الآخرة**»(١).

وهو من خشية الله يمنع نفسه من ضرب ناقته ، فقد روي أنّه حج مرة فالتاءت الناقة عليه في سيرها ، فأشار إليها بالقضيب ، ثم قال «**آه لولا القصاص**» وردّ يده عنها(٢) .

قال ﷺ مبيّناً ولايته الدينية وسلطته الروحية :

«**نحن أئمة المسلمين وحجج الله على العالمين ، وسادة المؤمنين وقادة الغرّ المحجلين ، وموالي المؤمنين ، ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه ، وبنا يمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض ولولا ما في الأرض منّا؛ لساخت بأهلها**»(٣) .

ثم يقول ﷺ قولاً لرجل يعيّن فيه مسلك الناس إلى نيل الولاية: «**بلّغ شيعتنا أنّا لا نغني عنهم من الله شيئاً ، وأن ولايتنا لا تُنال إلّا بالورع**»(٤) .

---

(١) بحار الأنوار ج٤٦ ص١٦ ح٦٧ .

(٢) المصدر السابق ح٦٩ .

(٣) روضة الواعظين ص١١٩، واحتجاج الطبرسي ج٢ ص١٥٩ .

(٤) ينابيع المودة ج٣ ص١٥٥ .

ويقول ﷺ لجابر الجعفي: «بلّغ شيعتي منّي السلام، وأعلمهم أنه لا قرابة بيننا وبين الله عزّ وجلّ، ولا يتقرب إليه إلّا بالطاعة. يا جابر، من أطاع الله وأحبنا فهو ولينا، ومن عصى الله لم ينفعه حبنا، ومن أحبنا وأحب عدوّنا فهو في النار. يا جابر من هذا الذي سأل الله تعالى فلم يعطه، وتوكل عليه فلم يكفه، ووثق به فلم ينجّه. يا جابر أنزل الدنيا منك كمنزل نزلته، فإن الدنيا للتحويل عنها، وهل الدنيا إلّا دابة ركبتها في منامك، فاستيقظت وأنت على فراشك؟ هي عند ذوي الألباب كفيء الظلال، لا إله إلّا الله إعذار لأهل دعوة الإسلام، والصلاة تثبيت للإخلاص وتنزيه عن الكبر، والزكاة تزيد في الرزق، والصيام والحج لتسكين القلوب، والقصاص والحدود لحقن الدماء، فإن أهل البيت نظام الدين. جعلنا الله وإياكم من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون»(١).

ومن أقواله ما يعتبر من أهم أركان دعوته وقواعد نهجه كقوله: «التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره، إلّا أن يتّقي منهم تقاة» قالوا: وما تقاة؟ قال: «يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى»(٢).

وروى الطبراني عنه أنه قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم أهل الفضل. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: إنطلقوا إلى الجنة. فتلقّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا: من أنتم؟ قالوا نحن أهل الفضل. قالوا: وما كان فضلكم؟ قالوا: كنّا إذا جُهل علينا حلمنا، وإذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أُسيء إلينا غفرنا. قالوا لهم أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. ثم ينادي منادٍ: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: فما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا

(١) بحار الأنوار ج٦٨ ص١٧٩.

(٢) تذكرة الخواص ص٣٢٧.

أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم: أدخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين . ثم ينادي المنادي: ليقم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون: بم استحققتم مجاورة الله عزّ وجلّ في داره؟ فيقولون: كنّا نتزاور في الله ونتجالس في الله ونتباذل في الله عزّ وجلّ . فيقال لهم: أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»(١) .

وإذا ما دخل الحرم كان عبيد بني أُمية يؤذونه . يذكر ابن سعد: كان الإمام زين العابدين يمشي إلى الحجاز ، وكان له منزل بمنى ، وكان أهل الشام يؤذونه ،

فتحوّل إلى قرين الثعالب أو قريب من قرين الثعالب ، وكان يركب . فإذا أتى منزله مشى إلى الجمار(٢) .

ولم تتمكن سياسة البغاة من الحدّ من أثر الإمام زين العابدين أو تأثيره في النفوس ، ولم يخف وجوده في مواطن العلم ونبوغه في حلقات الفقه والحديث . فهو بما حباه الله وبما أورثه من وصاية وسداد لا يرقى إلى عتبة علمه أو درجة كماله أحد من أصحاب الفقه والحديث والفتوى والدين . وكان الإمام زين العابدين ـ وهو في دوائر التضييق التي يخلقها الحكام الأُمويون ـ يتصدّى لدوره الإيماني ، ويدعو إلى إمامته فيقول: **«فمن سلّم لنا سلم ، ومن اقتدى بنا هدي ، ومن يعمل بالقياس والرأي هلك ، ومن وجد في نفسه شيئاً مما نقوله أو نقضي به حرجاً ، كفر بالذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم»**(٣) .

ويبقى في وسط مدينة جدّه ومهبط الوحي تنوشه سهام الأُمويين وتنبحه

(١) البداية والنهاية ج٩ ص١٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٩.

(٣) بحار الأنوار ج٢ ص٣٠٢.

كلابهم ، فكان الإمام زين العابدين يذكر حال من مسخهم الله قردةً من بني إسرائيل ويحكي قصتهم ، فلما بلغ آخرها قال: «إن الله تعالى مسخ أولئك القوم لاصطيادهم السمك ، فكيف ترى عند الله عزّ وجلّ يكون حال من قتل أولاد رسول الله ﷺ وهتك حريمه؟ إن الله تعالى وإن لم يمسخهم في الدنيا ، فإن المعدّ لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ» . فقيل له: يا ابن رسول الله ، فإنّا قد سمعنا منك هذا الحديث . فقال لنا بعض النصّاب: فإن كان قتل الحسين باطلاً فهو أعظم عند الله من صيد السمك في السبت ، أفما كان الله غضب على قاتليه كما غضب على صيادي السمك؟

قال الإمام زين العابدين ﷺ: «قل لهؤلاء النصّاب: فإن كان إبليس معاصيه أعظم من معاصي من كفر بإغوائه ، فأهلك الله من شاء منهم كقوم نوح وفرعون ولم يهلك إبليس ، وهو أولى بالهلاك ، فما باله أهلك هؤلاء الذين قصّروا عن إبليس في عمل الموبقات ، وأمهل إبليس مع إيثاره لكشف المحرّمات ، أما كان ربنا عزّ وجلّ حكيماً تدبيره حكمة فيمن أهلك وفيمن استبقى؟ فكذلك هؤلاء الصائدون في السبت ، وهؤلاء القاتلون للحسين ، يفعل في الفريقين ما يعلم ، أنه أولى بالصواب والحكمة ، لا يُسأل عمّا يفعل وعباده يُسألون»[1] .

كما واجه ﷺ أنصار البغاة وأتباع الطلقاء ، فقد جاءه رجل من أهل البصرة وقال له: يا علي بن الحسين ، إن جدّك علي بن أبي طالب قتل المؤمنين . فهملت عينا علي بن الحسين دموعاً حتى امتلأت كفّه منها . ثم ضرب بها على الحصى .

ثم قال :

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ١٣٧ .

«يا أخا أهل البصرة ، لا والله ما قتل عليّ مؤمناً ، ولا قتل مسلماً ، وما أسلم القوم ولكن استسلموا وكتموا الكفر وأظهروا الإسلام ، فلما وجدوا على الكفر أعواناً أظهروه ، وقد علمت صاحبة الجدب والمستحفظون من آل محمد عليهم السلام أن أصحاب الجمل وأصحاب صفين وأصحاب النهروان لعنوا على لسان النبي الأُمي وقد خاب من افترى» .

فقال شيخ من أهل الكوفة: يا علي بن الحسين ، إن جدك كان يقول: «إخواننا بغوا علينا» .

فقال الإمام زين العابدين عليه السلام : «أما تقرأ كتاب الله ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ فهم مثلهم ، أنجى الله عزّ وجلّ هوداً والذين معه وأهلك عاداً بالريح العقيم»[1] .

وقد تعرّض له البعض بالإساءة فأغلظوا له القول وأساءوا معه الأدب ، فكان ردّه عليهم آية من آيات خُلُقه ومحمود صفاته .

ولم تنل من هيبته ولا مكانته جميع الأفعال التي اعترضته ، فقد كان الإمام علي بالمدينة محترماً معظّماً[2] وكان الناس يقبّلون يده[3] .

فهو ممن منّ الله عليهم بالهداية التامة والعصمة الخالصة ، وجعلهم في الأرض أصحاب الولاية وحملة الرسالة وحماة الشريعة ، إليهم الأمر ، وفيهم العلم والنبوة ، وقد حفظ الله الإمام زين العابدين من مكائد البغاة وسيف يزيد ابن معاوية إبقاءً لنور الرسالة وصيانة للشريعة في عهد تغلّب فيه الطلقاء ، وتحكّم فيه الفسّاق ، فترك الإمام زين العابدين ـ وهو يكابد النكبة ويواجه أقسى محنة ـ آثاراً كبرى في السلوك والفكر في العمل والذكر .

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام يتصف بصفات الإمامة ويتحلّى بخلق

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ١٣٦ .
(٢) تاريخ ابن كثير ج ٩ ص ١٠٤ .
(٣) العقد الفريد ج ١ ص ١٨٠ .

النبوة . إذا مشى لا تجاوز يده فخذه ولا يخطر بيده[1] ويخشى أن يؤذي أي مخلوق في زمن ديست فيه المقدسات وانتهكت الحرمات وأسفرت الأيام عن أحقاد جاهلية وعودة إلى الشرك خمدت زمناً ثم هبّت وهاجت تكالباً على الدنيا ولجوءاً إلى القوة وإسرافاً في الجبرية والتسلط ، فكان ﷺ إذا سار في المدينة على بغلته لم يقل لأحد الطريق . ويقول: «هو مشترك ، ليس لي أن أنحي عنه أحداً» .

وكان ﷺ مهتماً بمصالح الأُمة ودفع شرور الحكام عنها ، فكان يفكر بأحوال الناس أيام أحداث الحرم وحركة ابن الزبير[2] .

ولما قامت ثورة المدينة المنورة ضد الأُمويين ، وأخرج أهلها عامل يزيد عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وأظهر وأخلع يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين ، طلب مروان بن الحكم من الإمام زين العابدين أن يترك نساءه عنده ، وقد كان مروان قد كلّم عبدالله بن عمر بذلك فأبى ابن عمر أن يفعل . قال مروان للإمام زين العابدين: أن لي رحماً وحرمي تكون مع حرمك ، فقال: «أفعل» فبعث بحرمه[3] .

هكذا هي أخلاق أولاد النبيين وحجج الله على خلقه ، لا كما فعل مروان وأهله بحرم رسول الله وما صنعوا بأهل بيته . وما يدّعيه الطبري من صداقة كانت بينهما قديمة لا نصيب له من الصحة ، كما أنها ليست من أشكال العلاقات التي استحالت بحلم الإمام وعظيم خلقه من روح العداوة إلى الاحترام والاعتراف بمنزلة الإمام . كقصة ذلك الرجل الذي سبّ الإمام زين العابدين

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ج٥ ص٢١٢ ـ ٢٢٠ .

(٢) الإتحاف للشبراوي ص ٥٠ .

(٣) تاريخ الطبري ج٧ ص٧ .

وهو خارج من المسجد ، فأراد العبيد أن يثوروا به[١] ففي رواية الشبلنجي عن درر الأصداف: بالغ في سبه وأفرط ، فعاد إليه العبيد والموالي ، فكفّهم عنه ، وأقبل عليه وقال له: «ما ستر عنك من أمرنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها؟» فاستحيا الرجل ، فألقى إليه خميصة ، وألقى إليه خمسة آلاف درهم . فقال: أشهد أنك من أولاد المصطفى ﷺ[٢] . وفي رواية ابن كثير: فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول: إنك من أولاد الأنبياء[٣] .

ولا تظن أن يصدر مثل ذلك من الطريد بن الطريد ، وإنما مروان وغيره من الأمويين يعلمون أن آل عبدالمطلب أقرب إلى شرائع السماء وأخلاق الأنبياء ، وهو غيره من الأمويين ألصق بطبائع السوقة وأخلاق أهل الغدر ، فلاذ بمكانة أهل البيت ، ودفع بحرمه إلى حمى حرمتهم ، أولئك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً . وما هو إلّا العدو الحاقد الذي يرى في علي وولده صورة النبي الأعظم الذي فضح أباه وأبعده؛ ليخلص المسلمين من شرّه ، فلما كان والياً على المدينة لمعاوية كان يسبّ علياً كل جمعة على المنبر ، وقال له الحسن عليه السلام: «لقد لعن الله أباك الحكم ، وأنت في صلبه على لسان نبيه»[٤] .

فمن أين قدم الصداقة بين زين العابدين ومروان بن الحكم ، والأخير من أكثر الأمويين تشفياً بقتل الإمام الحسين[٥] ؟ ينقل الشيخ ابن نما عن تاريخ

---

(١) صفة الصفوة ج٢ ص٥٦ .

(٢) انظر مختصر تاريخ دمشق ج١٧ ص٢٣٤ .

(٣) البداية والنهاية ج٩ ص١٢٣ .

(٤) ابن كثير ج٨ ص٢٥٩ .

(٥) وكذلك الأمر فيما يدعيه الذهبي في تذكرة الحفاظ من وجود ودّ في قلب عبدالملك بن مروان وأن زين ←

البلاذري: أنه لما وافى رأس الحسين عليه السلام المدينة . سُمعت الواعية من كل جانب ، فقال مروان بن الحكم :

ضربت دوسر فيهم ضربة ... أثبتت أوتاد حكم فاستقر

ثم أخذ ينكت وجهه بقضيب ويقول :

يا حبذا بردك في اليدين ... ولونك الأحمر في الخدين

كأنه بات بمجسدين ... شفيت منك النفس يا حسين[1]

وتحسين صورة هؤلاء الطرداء وأبناء الطلقاء لا تغير واقع الأمر وحقيقة التصرف الجاهلي الذي واجهوا به أهل بيت النبوة ، فنرى كبار من تولّى هذه المهمة لا يفلح فيما أخذ به نفسه ، ويعثر ويسقط ما يحمله من أكاذيب . فقد عرف الإمام زين العابدين بالانقطاع إلى الله ، والإكباب على العبادة بعد مذبحة الطف وقتل الأحبة ، فكانت مياسم التقوى وسمات الإيمان في وجهه وجسمه ، فأطلق عليه السجاد وذو الثفنات . ومن المعلوم أن مواصلته العبادة ومداومته على الأدعية والأذكار لم يترك حيزاً لما كان يشغل بال الملوك من الأمويين والعباسيين بدواعي الشهوة . ونورد هنا أنموذجاً سار عليه الذهبي في الترجمة للأعلام في (سير أعلام النبلاء) حيث يورد ما يخالف الحقائق في كثير من الموارد ، فيرد المفضوح منها الذي لا يمكن السكوت عنه في بعضها ، ولا يقوم بشيء في كثير منها يقول: (قال الأصمعي: لم يكن له عقب

← العابدين كان أحب بني هاشم إلى عبدالملك ج١ ص ٧٠، وابن كثير في البداية والنهاية ج٩ ص ١٠٤، وابن عبد ربه في العقد الفريد ج١ ص٢٦٨، فمن المشهور عداؤه ومحاولته الإساءة إلى الإمام زين العابدين في كل مرة والصحيح لجوء عبدالملك إلى التشبه بسلطة الإمام للتدليس والتلبس بها أمام ملك الروم فكتب إلى الحجاج أن يتوعد ويتهدد الإمام زين العابدين وأخذ جوابه فكاتب عبدالملك بما قاله الإمام زين العابدين إلى الحجاج وبعث به إلى ملك الروم على أنه صادر منه .

(١) مثير الأحزان ص ٩٥.

ـ يعني الحسين ـ إلّا من ابنه علي ، ولم يكن لعلي بن الحسين ولد إلّا من أُم عبدالله ابن الحسن وهي ابنة عمّه . فقال له مروان: أرى نسل أبيك قد انقطع ، فلو اتخذت السراري لعلّ الله أن يرزقك منهن . قال: قال ما عندي ما اشتري . قال: فأنا أُقرضك ، فأقرضه مائة ألف ، فاتخذ السراري وولد له جماعة من الولد ، ثم أوصى مروان لما احتضر أن لا يؤخذ منه ذلك المال) .

ويعقّب الذهبي: إسنادها منقطع ، ومروان ما احتضر ، فإن امرأته غمّته تحت وسادة هي وجواريها... إلخ[1] . وقيل سمية وهي أُم خالد بن يزيد بن معاوية ، أضمرت له السوء بعد أن وجّه لابنها كلمات بذيئة ساقطة .

ويذكر المسعودي[2] أنّ أسباب ثورة أهل المدينة كانت: جور يزيد وعماله وما عمّهم من ظلم وما ظهر من فسقه من قتله ابن بنت رسول الله ﷺ وما أظهر من شرب الخمور وسيره بسيرة فرعون .

وقد انتقم يزيد من أهل المدينة ، وأمر بإباحتها ، فكانت مذبحة الحرّة التي قتل فيها أكثر من أربعة آلاف ممن أحصوا من بني هاشم وسائر قريش والأنصار ومن سائر الناس . وقيل حتى أن الأقدام ساخت في الدم .

ودعا مسلم بن عقبة ـ المسرف في القتل والدماء ـ الناس للبيعة على أنهم خول ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء[3] . أو أنّ كلّ من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنّه عبد قن ليزيد ، إلّا الإمام علي زين العابدين[4] وقد أورد ابن أبي الحديد ما ينافي الحقيقة ، ويبدو أنها من

---

(١) سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٠.

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨.

(٣) الطبري ج ٧ ص ١٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٠٦.

جملة ما حواه وجمعه بدون تحقق وتدبر ، فكانت بقية روايته للحادث نقلاً عنه،كتبة السلطان ومؤرخو الدولة الذين لا تهمهم الحقائق ، ولا يهتمون بالنظر إلى الحادثة في إطار الواقع .

وأقرب الروايات وأصدقها تروي أن الإمام زين العابدين قد لاذ بقبر النبي ﷺ وهو يدعو . فأُتي به إلى مسرف ـ وهو مغتاظ عليه ـ فتبرأ منه ومن آبائه ، فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده إلى جانبه وقال له: «سلني حوائجك» . فلم يسأله في أحد ممن قدّم إلى السيف إلّا شفعه فيه ، ثم انصرف عنه . فقيل لعلي: رأيناك تحرّك شفتيك ، فما الذي قلت؟ قال: «**قلت اللهم ربّ السموات السبع وما أظللن ، والأرضين السبع وما أقللن ، ربَّ العرش العظيم ، ربَّ محمد وآله الطاهرين ، أعوذ بك من شرّه ، وأدرأ بك في نحره ، أسألك أن تؤاتيني خيره ، وتكفيني شره**» . وقيل لمسلم: رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه ، فلما أُتي به إليك رفعت منزلته؟ فقال: ما كان ذلك لرأي مني ، لقد مُلئ قلبي منه رعباً[1] .

وقد حرسته عين الله ورعته ، وجعلت لهيبة الإمامة في شخصه سلطة أقوى من سلطة الحكام . فهذا هشام بن إسماعيل المخزومي والي المدينة في عهد عبدالملك كان يؤذي الإمام زين العابدين ويشتم علياً على المنبر وينال منه ، فلما ولي الوليد بن عبدالملك عزله وأمر به أن يوقف للناس . قال هشام: والله ما أخاف إلّا من علي بن الحسين إنه رجل صالح يُسمع قوله . فأوصى علي بن الحسين أصحابه ومواليه وخاصته أن لا يتعرضوا لهشام ، ثم مرّ علي في

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٧٩ ـ ٨٠ .

حاجته فما عرض له : فناداه هشام وهو واقف للناس[١]: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ .

وردّد هذه الآية أيضاً الزهري لمّا قارف ذنباً .

قال له الإمام زين العابدين: «يا زهري، قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك» . فقال الزهري: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وكان يقول: علي ابن الحسين أعظم الناس عليّ منّة[٢] .

والزهري أحد تلاميذ الإمام زين العابدين ، وبسبب ذلك أصبحت له مكانة في علم الحديث حتى قال ابن أبي شيبة: أصحّ الأسانيد ـ كلها ـ الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه[٣] .

ولكن الأيام حملته إلى بلاط بني أُمية ، فأصبح من بطانة عبدالملك ومن عاصرهم من الملوك من بعده . وولّاه يزيد بن عبدالملك القضاء ، وكتب عمر ابن عبدالعزيز يوصي بالأخذ عنه . ويبدو أنه غلّب مقتضيات الدنيا على واجبات الدين والعلم ، فظهر منه بسبب علقته ببني أُمية انحراف عن أهل البيت يتمثل في المجاراة والسكوت عن الظلم . ويروى عنه أنه في بعض المواقف لم يذهب إلى مجاراة بني أُمية في تأويلهم القرآن وتلاعبهم به كما في حادثة دخول سليمان بن يسار على هشام فقال له: يا سليمان من الذي تولى كِبْرَه منهم؟ يعني قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقال ابن سلول: قال كذبت ، بل هو علي ، فدخل ابن شهاب فقال: يا ابن شهاب: من الذي تولى كِبْرَه؟ قال ابن أُبيّ . فقال له: كذبت بل هو علي . قال:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٢١٩، وتذكرة سبط ابن الجوزي ص٣٢٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٥ ص٢١٤ .

(٣) تهذيب الكمال ج٢٠ ص٣٨٨ ح٤٠٥٠ .

أنا أكذب...؟الخ[١] .

ولم يتأثر عن طريق الرواية للمضاهاة وللتمويه على الحقيقة التي هي من أكبر حقائق الإسلام في كون الإمام علي أول الناس إسلاماً ، فكان ابن شهاب وجماعة من المحدثين والعلماء يقولون: أول من أسلم من الرجال علي[٢] .

والغرض أنّ الإمام زين العابدين تعقّب الزهري بالنصح والإرشاد ، فقد كتب إليه رسالة يعظه فيها ويحذّره الحكام الذين استمالوه وقرّبوه لأغراضهم .

وقد عكست الرسالة عمل الإمام زين العابدين على تجريد الحكّام من المظاهر الدينية . واصطناع من عرف بالعلم والرواية للتستر على باطلهم وتمويه أفعالهم .

ومما جاء في رسالة الإمام زين العابدين إلى الزهري :

«كفانا الله وإياك من الفتن ، ورحمك من النار ، فقد أصبحت بحالٍ ينبغي لمن عرفك أن يرحمك ، فقد أثقلتك نعم الله بما أصحّ من بدنك وأطال من عمرك ، وقامت عليك حجج الله بما حمّلك من كتابه ، وفقّهك فيه من دينه ، وعرّفك فيه من سنّة نبيه ، فانظر أي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله ، فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها . . . ولا تحسبنّ الله قابلاً منك بالتعذير ، ولا راضياً منك بالتقصير . هيهات هيهات! ليس كذلك أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ .

واعلم أن أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم ، وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت ، وإجابتك له حين دُعيت . فما أخوفني بإثمك غداً مع الخونة! وأن تسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظلمة أنك أخذت ما ليس لك من أعطاك . ودنوت

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٤٥ و١٤٩ .

(٢) انظر الاستيعاب لابن عبدالبر بهامش الإصابة ج٣ ص٢٩ .

ممن لم يردّ على أحد حقاً ولم تردّ باطلاً حين أدناك ، وأحببت من حادّ الله . أو ليس بدعائه إياك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم ، وسلّماً إلى ضلالهم؟ داعياً إلى غيّهم سالكاً سبيلهم ، يدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم ، فما أقل ما أعطوك قدر ما أخذوا منك ، وما أيسر ما عمّروا لك فكيف ما خربوا عليك؟ فانظر لنفسك فإنه لا ينظر إليها غيرك ، وحاسبها حساب رجل مسؤول ، وانظر كيف شكرك لمن غذّاك في نعمه صغيراً أو كبيراً . فما أخوفني عليك أن تكون كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾(١)» !

ولا يفوتنا أن ننوّه برسالة الحقوق التي اشتملت على تصنيف دقيق وتبويب جامع لما يهمّ المرء من أُمور دينه ودنياه ومجتمعه وعائلته ، وهي تتولى بيان علم الإمام زين العابدين ، ونظرته إلى ما عهد إليه في ولاية الإمامة والخلافة الكبرى . كما تتولى الصحيفة السجادية بيان طرق الانقطاع إلى الله والاعتماد على الخالق ، واللجوء إلى قوته ، وإذا كانت الصحيفة ـ زبور آل محمد ـ فرسالة الحقوق منهاج آل محمد وهي من أكثر مآثر آل محمد حاجة إلى البيان والبحث .

وقد حفظ لنا التاريخ أقواله عليه السلام التي يجد الناس على مختلف مشاربهم فيها صورة الإمام الهادي والخليفة الداعي الذي ينظر إلى الوجود بمنظار العقيدة ، ويصف الدنيا كما هي حقيقتها إذا ما تمكن الهدى من النفس وأسبغ عليها الإيمان أبراده .

قال عليه السلام لجابر الجعفي: «يا جابر، إني لمحزون ، وإني لمشتغل القلب» قلت: وما حزنك وما شغل قلبك؟» قال: «يا جابر ، إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله ، شغله

---

(١) تحف العقول لابن شعبة ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦ .

عمّا سواه. يا جابر، ما الدنيا، ما عسى أن تكون؟ هل هو إلّا مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها. يا جابر، إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمّهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار. إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك. قوّالين بحق الله، قوّامين بأمر الله. فأنزل الدنيا كمنزل نزلت به وارتحلت عنه، أو كما أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء، واحفظ الله في ما استرعاك من دينه وحكمته»[1].

ويتتبع ﷺ أمراض المجتمع، ويعمل على إصلاح العلاقات، وإقامة المودّة بين النفوس. سمع رجلاً يغتاب آخر فقال ﷺ: «إن لكل شيء إداماً، وإدامُ كلاب النار الغيبة». وقال ﷺ: «نظر المؤمن في وجه أخيه المؤمن للمودّة والمحبة عبادة». وقال أيضاً: «من كمال العقل كفُّ الأذى، فإن فيه راحة للبدن آجلاً وعاجلاً»[2].

ويحذّر ﷺ من العداوة: فيقول: «لا تعادينّ أحداً وإن ظننت أنّه لا يضرك»[3].

إنّ الإمام زين العابدين باشر مرحلة الدعوة بعد مرحلة الثورة، وهو على هدى من رسالته وبيّنة من أمره. ومن يتوهم أنّ الأمر عدول عن الثورة وترك للجهاد، فليس له علم بأسرار الإمامة ومكاشفات الولاية، كالذي كان من عبّاد البصري عندما لقي الإمام زين العابدين في طريق مكة فقال له:

يا علي بن الحسين، تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينه، وإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ

---

(١) بحار الأنوار ج٧٥ ص١٨٥.

(٢) بحار الأنوار ج٧٥ ص١٨٥.

(٣) بحار الأنوار ج٧٥ ص١٦٠.

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ـ إلى قوله ـ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين﴾[١] ؟

فقال الإمام زين العابدين: «إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج»[٢].

وخلاصة القول: فإنّ الإمام زين العابدين الذي كان لا تبرح ذاكرته مأساة الطفّ ، ويديم البكاء حتى قال: «إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات . وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً؟» يحمل أعباء الإمامة في ظروف أدّت بالحكام إلى أن يرتكبوا جريمتهم النكراء بحق أهل بيت النبي . ولمّا سئل: كيف أصبحت؟ قال عليه السلام: «أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون ، يذبّحون أبناءنا ، ويلعنون سيدنا وشيخنا على المنابر ، ويمنعونا حقّنا»[٣] .

ولقد كانت فترة إمامته فترة صعبة وحرجة لم يتغير من السياسة شيء ، بل إنّ المجازر اتسعت وطالت الحرمين ، فيشكو بثّه ويدعو ربّه: «حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزّين، يرون حكمك مبدّلاً وكتابك منبوذاً وفرائضك محرّفة عن جهات أشراعك ، وسنن نبيك متروكة . اللهم العن أعداءهم الأولين والآخرين ، ومن رضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم»[٤] وفي وسط ذلك كان عليه أن يمضي في رسالته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحدّث الناس بحديث جده . فكانت فيما يهمّهم من أمور دينهم وأحكام شريعته ، وتبصيرهم بالمصلحة وما يعود عليهم بالنفع والبقاء .

---

(١) التوبة: ١١١ و ١١٢.

(٢) بحار الأنوار ج٩٧ ص١٨.

(٣) تذكرة الخواص ، سبط ابن الجوزي ص٣٢٨.

(٤) الصحيفة السجادية الكاملة ص ٣٨٢، الدعاء (٤٨)، نشر جامعة المدرسين في الحوزة العلمية.

وإذا كانت هذه الأوضاع التي يعيشها قد حالت دون أن يتخذ حلقة ، إذ كيف يتسنّى له العمل كالآخرين وهو مثقلٌ بهذه الأعباء والأحزان والهموم، فإن مآثره في الفكر والعمل كانت قدوة الصالحين ، وأسوة الزهّاد المتعبّدين ، ومنهجه في الحياة مثل للأئمة الطاهرين في أن يكون الدين غاية الدعوة والعدل عمادها ، فكانت وصيته إلى ولده ، ووصيته الإمام الباقر عليه السلام: «يا بني؛ أوصيك بما أوصاني به أبي ، فقد قال لي: يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلّا الله»(١).

ومن وصاياه لخليفته الإمام الباقر ما يزن به أصناف الناس ، ويرسم صور تصرفاتهم بميزان العاقل الحكيم وبريشة الخبير المفن . قال الإمام الباقر «أوصاني أبي قال :

لا تصحبنّ خمسة ، ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق . قال: قلت: جُعلت فداءك يا أبة من هؤلاء الخمسة؟

قال: لا تصحبنّ فاسقاً ، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها .

قال: قلت: يا أبة ، وما دونها ؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها .

قال: قلت: يا أبة ، ومن الثاني ؟

قال: لا تصحبنّ البخيل ، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه .

قال: قلت: يا أبة: ومن الثالث ؟

قال: لا تصحبنّ كذّاباً ، فإنه بمنزلة السراب يبعّد منك القريب ، ويقرّب منك البعيد .

قال: قلت: يا أبة ومن الرابع؟

(١) بحار الأنوار ج٧٢ ص٣٠٨.

قال: لا تصحبنّ الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

قال: قلت: يا أبة ومن الخامس ؟

قال: لا تصحبنّ قاطع رحم ، فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع»(١) .

ويُروى أنّ نقش خاتمه ﷺ كان «علمت فاعمل» وكفى بذلك دلالة على سبيل العصمة ومنهج الإمامة وبيان حاله من التقوى والإيمان .

استشهد ﷺ مسموماً بأمر من الوليد بن عبدالملك سنة (٩٥ هـ).

الإمام الباقر ﷺ

تولى الإمام الباقر الإمامة في عصر قوة الدولة الأُموية وامتداد سلطانها وشدّة نفوذها ، ولم يمنعه ذلك من دعوته الدينية وعمله في نشر تعاليم الإسلام والاضطلاع بمهام الإمامة(٢) . بل اتّجه إلى العلوم الدينية والحثّ على التمسّك بالدين ، وجعل لدعوته أُسلوباً يظهر الحقائق التي حاول الأُمويون إخفاءها . ولقد ازدحم العلماء على أبواب مدرسته وانتشروا في الآفاق يحملون عنه أصدق الحديث .

وكان عصره يشهد بداية نشاط الآراء والأقوال التي تعددت مصادرها وتباينت أغراضها ، وأهل البيت في صميم هذا النشاط موضع اهتمام القائمين به والساعين إليه؛ لأنّهم يريدون أن يكون للدين في آرائهم ممسك ولأقوالهم مرجع . أو لأنهم من أهل الفرق والبدع الذين يرمون إلى التشكيك

---

(١) صفة الصفوة ج٢ ص٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) عقدنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلاً من حياة الإمام الباقر «الإمام الصادق في ظل أبيه الباقر» ضمّ نبذاً من سيرته وإشارات إلى مدرسته وتلاميذه ونتناول هنا بعض الأمور التي لم نتعرض لها متحاشين التكرار والإعادة إلّا للضرورة من ص ١٣٧ ـ ١٧٧ .

والطعن ، فقصده العلماء للسؤال وكشف الحقائق كعمرو بن عبيد ، والحسن البصري ونافع مولى ابن عمر وغيرهم ممن يطول ذكرهم . ولكن نورد هنا ما كان من عمرو بن عبيد ـ شيخ المعتزلة ـ عندما وفد على الإمام الباقر عليه السلام ليسأله لا لغرض طلب العلم ، وإنما بوهم أن يفاجئ الإمام الباقر بما يعجز عن الإجابة عنه ، فقال له عمرو :

جُعلت فداك ما معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا﴾[1] ما هذا الرتق ؟

قال الإمام الباقر: «**كانت السماء رتقاً لا تنزل القطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تخرج النبات ، ففتق الله السماء بالقطر ، وفتق الأرض بالنبات**» فانقطع عمرو ، ومضى ثم عاد إليه فقال :

خبّرني عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾[2] ما غضب الله؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «**غضب الله تعالى عقابه . يا عمرو ، ومن ظنّ أنّ الله يغيره شيء فقد هلك**»[3] .

ودخل عليه أعرابي ، وقيل رجل من الخوارج ـ ولا فرق فهم من أشدّ الأعراب بعداً عن الدين ـ وقال له: هل رأيت الله حين عبدته؟ فقال: «**لم أكن لأعبد من لم أره**» . قال: فكيف رأيته؟ قال: «**لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يُدرَكُ بالحواس ، ولا يُشَبَّه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجوز في القضيات . ذلك الله الذي لا إله إلّا هو**» فقال الأعرابي: الله أعلم

---

(١) الانبياء: ٣٠.

(٢) طه: ٨١.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

حيث يجمل رسالته[1] .

ومما يحسب الآن من أعمال مجيدة في مجال الملك وتعريف مظاهر السلطان وسك العملة ، فهو في حقيقته يعود لإمامنا الباقر عليه السلام . فعبد الملك بن مروان تعاطى العلم ، وانخرط في سلك الفقه والرواية ؛ حتى جاءته فرصة التحكّم والتسلّط ، فتخلّى عن الحديث وما يقتضيه تعاطي العلم من سمات دينية ، وتحوّل إلى الدم والظلم ، وهو يستشعر منزلة أهل البيت ومكانتهم ، فكان يلجأ إليهم في أكثر الأُمور التي تهمّه ، ويبدو أن عداوته تدفعه إلى إخفاء ما يرجوه منهم ، لأن التظاهر باللجوء إلى أهل البيت يسيء إليه كثيراً . لمّا كتب ملك الروم لعبدالملك بن مروان يتهدّده أن يذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنانير بما يكرهون ، فعظم ذلك على عبدالملك ، واستشار الناس فلم يجد عند أحد منهم رأياً[2] فقال له روح بن زنباع: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر . ولكنك تتعمد تركه . فقال: ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . قال: صدقت ، ولكنه ارتجّ الرأي فيه .

فكتب إلى عامله بالمدينة ، أن أشخص إلي محمّد بن علي بن الحسين مكرّماً ، ومتّعه بمائة ألف درهم لجهازه ، وبثلاثمائة ألف لنفقته ، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه . وحبس عبدالملك رسول ملك الروم إلى موافاة الإمام الباقر ، فلما وافاه ، أخبره الخبر . فقال له الإمام الباقر: **«لا يعظم عليك ، فإنه ليس بشيء من جهتين :**

إحداهما: إن الله عزّ وجلّ لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٧٧.

(٢) شذور العقود للمقريزي ص ٧.

والثاني: وجود الحيلة فيه.

قال: وما هي ؟

قال: تدعو بصاغة ، فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير ، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد»[١].

ويتلبس عبدالملك بما يصدر عن الإمامة ، ويتطفّل على منهجها ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ، ويستخدم عماله ـ عمال السوء والبغي ـ للاتصال بمقام أهل البيت وتلقّي ما يصدر عنهم للتظاهر به أو استعماله في معالجة ما هم فيه . وقد مرّ بنا قبل قليل كيف فعل عبدالملك لمّا كتب ملك الروم يتوعّده ، فضاق عليه الجواب . وكتب إلى الحجاج ـ وهو إذ ذاك على الحجاز ـ أن أبعث إلى علي ابن الحسين ، فتوعّده وتهدّده ، وأغلظ له . ثم أنظر ماذا يجيبك ، فاكتب به إليّ . ففعل الحجاج ذلك ، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: «إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين لحظة ، وأرجو أن يكفينك في أوّل لحظة من لحظاته» وكتب بذلك إلى عبدالملك . فكتب به إلى صاحب الروم كتاباً فلمّا قرأه قال: ليس هذا من كلامه ، هذا من كلام عترة نبيّ[٢] .

والقصد: أنّ رجال الحكم الأموي نظروا إليه نظرة تهيّب وتحفظ ، ووقفوا أمام نشر تعاليمه وانتشار ذكره وعارضوها؛ لأن ذلك يهدّد ملكهم ، فسلكوا كل سبيل للإساءة ، وقد كان هشام بن عبدالملك من أكثرهم بغضاً وأشدّهم عداوة لآل البيت النبوي الكريم .

حجّ هشام بن عبدالملك ، فدخل المسجد الحرام متكئاً على يد سالم مولاه

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٣٠٤، حياة الحيوان للدميري ج٢ ص٥٥، والعقد المنير ص١٨، وهامش شذور العقود ص٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي لابن واضح ج٣ ص٤٧.

والإمام الباقر جالس في المسجد الحرام ، فقال له سالم: يا أمير المؤمنين، هذا محمّد بن علي بن الحسين عليه السلام . قال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم . قال: إذهب إليه فقل له: يقول لك أمير المؤمنين ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ فقال له الإمام أبو جعفر: «يحشر **الناس على مثل قرص النقي ، فيها أنهار متفجرة يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب»** فرأى هشام أنه قد ظفر به ، وإن في ذلك فرصة لإشاعة حاله ، لينفر عنه أهل العراق . فقال: الله أكبر ، إذهب فقل له: يقول لك ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذٍ؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام: «هم في النار أشغل ، ولم يشغلوا عن أن قالوا ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ . فسكت هشام[1] .

وليس أقبح من بذاءته وهو يتنمّر على الإمام الشهيد زيد بن علي ، وينال من أخيه الإمام الباقر ويقول له: ما يصنع أخوك البقرة؟!

فيجيبه الإمام زيد: سمّاه رسول الله الباقر ، وتسميه البقرة؟ لشد ما اختلفتما ، لتخالفته في الآخرة كما خالفته في الدنيا ، فيرد الجنة وترد النار[2] .

ولما انصرف هشام من حجه أنفذ إلى عامل المدينة بإشخاص الإمام الباقر وولده الصادق ، وإبقاهم ثلاثة أيام ، وأذن لهم في اليوم الرابع . ويبقى على هذه السياسة التي تستهدف الإساءة والقضاء على الإمام الباقر .

ولما بدرت من الحكّام الأُمويين بادرة على يد عمر بن عبدالعزيز ، تغيّرت العلاقة بين السلطة وبين الأئمة . فنرى عمر بن عبدالعزيز يطلب من الإمام

---

(١) الإرشاد ج٢ ص١٦٣ ـ ١٦٤، والإتحاف ص١٤٤، وروضة الواعظين ص٢٠٣.

(٢) انظر طرق الحديث النبوي إلى جابر بن عبدالله الأنصاري: «يوشك أن تبقى حتى تلقى ولداً لي من الحسين يقال له: محمد . يبقر العلم بقراً فإذا لقيته فأقرأه مني السلام» في الجزء الثاني من الكتاب ص١٤١.

الباقر أن يوصيه بما ينفعه في آخرته ودنياه ، فقال له ﷺ: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وأكبرهم أباً . فارحم ولدك ، وصِل أخاك وبرّ والدك . وإذا صنعت معروفاً فربّه» ـ أي أدمه ـ(١) .

ودخل عمر بن عبدالعزيز المدينة واجتمع بالإمام الباقر ﷺ فأوصاه الإمام بقوله :

«إنما الدنيا سوق من الأسواق ، يبتاع فيها الناس ما ينفعهم وما يضرّهم ، وكم قوم ابتاعوا ما ضرهم فلم يصبحوا حتى أتاهم الموت فخرجوا من الدنيا ملُومين ، ولما لم يأخذوا ما ينفعهم في الآخرة . فقسّم ما جمعوا لمن لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لم يعذرهم فنحن والله حقيقون أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نتخوف عليهم منها ، واتق في نفسك اثنتين: إلى ما تحب أن يكون معك إذا قدمت على ربك فقدّمه بين يديك . وانظر إلى ما تكره أن يكون معك إذا قدِمْتَ على ربك فارمه وراءك . ولا ترغبنّ في سلعة بارت على من كان قبلك وترجو أن يجوز عنك . وافتح الأبواب وسهّل الحجاب وأنصِف المظلوم وردّ المظالم . ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له»(٢) .

ولقد كانت فترة عمر بن عبدالعزيز يقظة وعي بما ألمّ بالأُمة من جور الأُمويين وما لحق بالمسلمين بفعل ظلمهم ، حاول فيها أن يضفي على سلطان بني أبيه شيئاً من أبراد التقى وأثواب الدين ، ولكن هيهات له ذلك؛ لأن أساس الملك قائم على الظلم ، وتاريخ بني أُمية بعمومه تاريخ شذوذ وانحراف ، ولكن الأيام حفظت لعمر بن عبدالعزيز ما رفع من سنّتهم

(١) عوالم العلوم للبحراني ج١٩ ص٢٦٧ .
(٢) بحار الأنوار ج٤٦ ص٣٢٦، وج٧٥ ص١٨٢ .

السيئة ، وما بدر منه من عدل .

أما الإمام الباقر عليه السلام فقد أفاض على ابن عبدالعزيز من إشراق الإمامة ومعين الخلافة الكبرى ، فأعطاه تلك الصورة الرائعة عن الحكم وسياسة الرعية ، والإمام أدرى بأن عمر لا يحقق ما يوصيه به لأسباب كثيرة .

والإمام الباقر في إمامته ومنزلته بين شيعته ، يعمل بمنهج الدعوة في التفريق بين السلطان الزمني والسلطة الروحية في الإمامة . روى الصدوق بسنده عن جابر عن الإمام الباقر عن أبيه عليه السلام أنه قال: «إذا كان أول يوم من شهر شوال نادى مناد: أيها المؤمنين أغدوا إلى جوائزكم» ثم قال أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر، جوائز الله عزّ وجلّ ليست كجوائز هؤلاء الملوك» . وروى أيضاً بسنده عن عبدالله بن سنان عن الإمام الباقر أنه قال: «يا عبدالله، ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر؛ إلّا وهو يجدّد لآل محمد فيه حزن» قال: قلت: وَلِمَ؟ قال: «لأنهم يرون حقهم في يد غيرهم»[1] .

ولقد انضمّ إلى الإمام الباقر من التابعين وغيرهم رجال من الثقات والعلماء والفقهاء ممن احتج بهم رجال الصحاح الستة ، وأجمعوا على تقدمهم وشهرتهم[2] وأصبح لأصحاب الإمام الباقر منزلة وأثر في الحياة العلمية يومئذ ، وكان الإمام يوجههم لإفتاء الناس ، فكان يقول لأبان بن تغلب: «إني أحب أن أرى في شيعتي مثلك»[3] بعد أن أمره أن يجلس في مسجد المدينة ويفتي الناس .

وازدهرت مدرسة الإمام الباقر بفكره عليه السلام وتوجيهه ، إذ جذب علمه

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٢ ص٦٢.

(٢) انظر ثلاثمئة الإمام الباقر ورواة حديثه في الجزء الثاني من الكتاب ص١٤٩.

(٣) نقد الرجال ج١ ص١٠.

الرجال من مختلف الأقطار الإسلامية ، وتوجه إلى مدرسته الرواة . ينقل سبط ابن الجوزي عن ابن سعد: كان ـ الإمام الباقر ـ عالماً عابداً ثقة ، روى عنه الأئمة أبو حنيفة وغيره . قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: لقيت محمّد بن علي الباقر؟ فقال: نعم ، وسألته يوماً فما رأيت جواباً أفخم منه(١) . وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر . لقد رأيت الحكم عنده كأنه عصفور مغلوب ، ويعني بالحكم الحكم بن عيينة ، وكان عالماً نبيلاً جنيلاً في زمانه(٢) . وفي رواية: رأيت الحكم عنده كأنه متعلم(٣) . ويقول القندوزي: قال بعضهم: ما رأيت العلماء كانوا أقل علماً إلّا عند الإمام الباقر(٤) .

ويبين الإمام عليه السلام كيف تكون النسبة بين مقومات الشخصية العلمية فيقول: **«إني لأكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه ،كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله»**(٥) .

وخلاصة القول: أنّ علم الإمام الباقر وعظيم منزلته الدينية جعلا منه قائداً روحياً اتّجهت إليه الأنظار ومالت إليه القلوب ، فاحتلّ منها ذلك المكان السامي والمنزلة الرفيعة . وقد احتفظ لنا التاريخ بكثير من تراثه الفكري؛ فقد كان يفيض على سامعيه من الخواطر والحِكَم متوجهاً بالنصح والإرشاد لمجتمعه .

---

(١) تذكرة الخواص ص٣٣٦.

(٢) تذكرة الخواص ص٣٤٧.

(٣) البداية والنهاية ج٩ ص ٣١٦.

(٤) ينابيع المودة ج٣ ص ١٥٩ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ج٢ ص ١٦١.

وقد كان عليه السلام يؤدّب أصحابه بآداب الإسلام ويحثهم على الطاعة ومكارم الأخلاق . فمن وصيته لجابر الجعفي: «واعلم إنّك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء . لم يحزنك ذلك . ولو قالوا أنك رجل صالح . لم يسرّك ذلك . ولكن أعرض نفسك على كتاب الله ، فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه خائفاً من تخويفه فاثبت وأبشر . فإنه لا يضرك ما قيل فيك»[1] . وقد مرّ ذكرها في الجزء الثاني[2] .

وينبه عليه السلام أتباعه إلى جوهر التشيع ومعدن الولاء لأهل البيت كما في رواية جابر عن أبي عبيدة الحذّاء قال عليه السلام: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً . لعلّك ترى أنّ القوم لم يكونوا ينامون؟» قال: قلت: الله ورسوله وابن رسوله أعلم . قال: فقال: «لا بد لهذا البدن من أن تريحه حتى يخرج نفسه ، فإذا خرج النفس استراح البدن ورجع الروح فيه قوة على العمل ، فإنما ذكرهم تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، أنزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأتباعه من شيعتنا ، ينامون في أول الليل ، فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء الله ، فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده ، فذكرهم الله في كتابه ، فأخبرك الله بما أعطاهم أن أسكنهم في جواره ، وأدخلهم في جنته ، وآمن خوفهم ، وأذهب رعبهم» قال قلت: جعلت فداك ، إن أنا قمت في آخر الليل أي شيء أقول إذا قمت؟ قال: «قل الحمد لله رب العالمين ، والحمد لله الذي يحيي الموتى ويبعث من في القبور . فإنك إذا قلتها ذهب عنك رجز الشيطان ووسواسه إن شاء الله»[3] .

ويتحسّس ظروف الإرهاب الأُموي وأصناف البلاء وألوان الرعب التي

(١) بحار الأنوار ج٧٥ ص١٦٢ .

(٢) الجزء الثاني من الكتاب ص١٧٦ ـ ١٧٤ .

(٣) بحار الأنوار ج٥٨ ص٥٥ .

خيّمت على قلوب محبي أهل البيت بعد سياسة معاوية ويزيد وبقية الأُمويين فيقول: «إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب . فإذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف»(١) . وذلك ليجعل أمر الحكام الظلمة غير دائم ، وأنّ الإمامة نظامها سماوي مبشر به من النبي الأعظم ويقول: الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمرّ اليقين بالقلب فيصير كأنّه زبر الحديد ويخرج منه ، فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكِبْر إلّا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه»(٢) . وقال ﷺ: «اصبر للنوائب ، ولا تتعرض للحقوق ، ولا تعط أحداً من نفسك ما ضرّه عليك أكثر من نفعه»(٣) .

ويتصدّى لمهماته وقيامه بالدعوة لأنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَسْئَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٤) فيقول ﷺ: «نحن أهل الذكر»(٥) .

وقال ﷺ: «شيعتنا من أطاع الله عزّ وجلّ واتقاه»(٦) . لكنه ﷺ يبيّن شرط هذه الطاعة ، فيقول صلوات الله عليه: «أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون أعماله بدلالته ما كان له على الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان» وقال ﷺ: «إياكم الخصومة فإنها تفسد القلب ، وتورث النفاق»(٧) .

لقد كان الإمام الباقر يبني النفوس بالإيمان ويربيها على تعاليم الإسلام ،

---

(١) حلية الأولياء ج٣ ص١٨٤ .
(٢) البداية والنهاية ج٩ ص٣٤٠ .
(٣) تاريخ اليعقوبي لابن واضح ج٢ ص٣٢٠ .
(٤) الأنبياء: ٧ .
(٥) حلية الأبرار ج٣ ص٣٩٣ .
(٦) حلية الأولياء ج٣ ص١٨٤ .
(٧) المصدر السابق .

ويوجه الأنظار إلى حق الإمام وسلطة الخلافة الكبرى الدينية التي تقوم على القاعدة الدينية والأصول الشرعية .

روي عنه ﷺ أنّ قوماً أقبلوا من مصر ، فمات رجل فأوصى إلى رجل بألف درهم للكعبة ، فلما قدم مكة سأل عن ذلك ، فدلوه على بني شيبة ، فأتاهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا: قد برئت ذمتك ادفعها إلينا . فقام الرجل فسأل الناس ، فدلوه على الإمام الباقر . قال الإمام ﷺ: «فأتاني فسألني ، فقلت له: إن الكعبة غنية عن هذا ، انظر إلى من أمّ هذا البيت وقطع ، أو ذهبت نفقته ، أو ضلّت راحلته ، أو عجز أن يرجع إلى أهله فادفعها إلى هؤلاء الذين سمّيتُ لك» قال: فأتى الرجل بني شيبة ، فأخبرهم بقول الإمام ﷺ فقالوا: هذا ضالّ مبتدع ، ليس يؤخذ عنه ، ولا علم له ، ونحن نسألك بحق هذا البيت وبحق كذا وكذا لما أبلغته عنّا هذا الكلام . قال: فأتيت أبا جعفر محمّد ﷺ فقلت له: لقيت بني شيبة فأخبرتهم ، فزعموا أنك كذا وكذا ، وأنك لا علم لك . ثم سألوني بالله العظيم لما أُبلغك ما قالوا . قال: «وأنا أسألك بما سألوك لما أتيتهم فقلت لهم: إنّ من علمي لو وليت شيئاً من أمور المسلمين لقطعت أيديهم ، ثم علقتها في أستار الكعبة ، ثم أقمتهم على المصطبة ، ثم أمرت منادياً ينادي: ألا إنّ هؤلاء سرّاق الله فاعرفوهم»[1] .

ثم تأتي مرحلة الدعوة في عهد الإمام الصادق بعد أن تولى الإمامة وتبوّأ مكان الزعامة بعد مرافقة للإمامة في أحداثها ، وإعداد لدوره وعهده في ظلالها . وقد مر بنا في أجزاء الكتاب السابقة فصول من حياته ﷺ ، وعلمنا اتجاهه إلى حفظ شريعة الإسلام ودعوته إلى التمسك بأحكام الدين . وقد تلقى الإمام الصادق انتقال الإمامة إليه وهو يمتلك تجربة غنية ودراية تامة

---

(١) الكافي ج٤ ص٢٤١ ح ١

بطبيعة الأحداث وتصاريف الأيام ؛ فظهرت حكمته وبدت حنكته ، وقد كانت أيام حياته من أشدّ الأيام صعوبة وهو يتحمل أعباء الدعوة ويقوم بواجبات الإمامة ،كان فيها التحوّل السياسي من جهة إلى جهة ، وكان فيها النمو الفكري واتساع الخلاف ، وعلو موجات الآراء والمقالات ، وكان فيها إيغال الحكام الجدد بدماء آل البيت واضطراب أنحاء البلاد الإسلامية . إلى غيرها من الظروف ، وما انطوت عليه من محن ومآزق ومعتركات .

روى الشيخ المفيد بسنده عن أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر ﷺ إلى ابنه أبي عبد الله ﷺ فقال: «ترى هذا ؛ هذا من الذين قال الله عزّوجلّ:﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

والإمام الصادق هو السادس من الذين يخلفون النبي ﷺ على أُمور شريعته وحفظ رسالته ، والذين أخبر النبي ﷺ عنهم بطرق أهل السنة أنه ﷺ قال: «في كل خلف من أُمتي عدول من أهل بيتي ، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . ألا وأن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل ، فانظروا من توفدون»[2] . وإلى جانب النص على إمامته والوصية ، فقد كان الإمام الصادق أعلم أهل زمانه وأجلّهم قدراً وأعلاهم منزله ، فاختص بالقيام بالنظر في مصالح المسلمين الدينية ، وقد رأينا أنه عاش في صميم الأحداث والوقائع التي مرّت بأهل البيت ﷺ ووعى وجوهها وطابعها الذي كانت عليه . فأحاط بالأخبار وتزود بالآثار ، فكان كل قول منه عن علم مسبق ،

(١) الإرشاد ج٢ ص ١٨٠.
(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٩٠.

وكل أمر سار عليه يعلم ما يقضي إليه كأن العواقب ترتسم في مرآة أمامه .

فكان أن اتجه إلى محاربة الظالمين ، وسار على هدي الإمامة ونهج آبائه في الدعوة إلى أحكام القرآن وتعاليم الإسلام في المودة والعدل ومكارم الأخلاق .

فأمر الإمام الصادق بعدم التعاون مع حكّام الظلم والانحراف . فقال: «**العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء**»(١) .

وسأله رجل من أصحابه عن البناء لهم وكراية النهر؟ فأجابه ﷺ: «**ما أحبُّ أن أعقد لهم عقدة ، أو وكيت لهم وكاءً ولا مَدّة بقلم ، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد**»(٢) .

وسئل ﷺ عن رجلين من أصحابه يكون بينهما منازعة في دين أو ميراث ، فتحاكما إلى السلطان أو إلى القضاء ، أيحلّ ذلك؟ فقال ﷺ: «**من تحاكم إلى الطاغوت فحَكَمَ له ، فإنما يأخذ سحتاً وإن كان حقه ثابتاً ، لأنه أخذ بحكم الطاغوت وقد أُمر أن يكفر به**» . قيل: كيف يصنعان؟ قال ﷺ: «**انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ، ونظر في حلالنا وحرامنا ، وعرف أحكامنا ، فارضوا به حكماً؛ فإني قد جعلته عليكم حاكماً ، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه ، فإنما بحكم الله استخفّ ، وعلينا ردّ ، والرادّ علينا كالراد على الله**»(٣) .

وسئل ﷺ عن قاض بين قريتين يأخذ من السلطان على القضاء

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٥٠ ح ١٦ .

(٢) راجع الجزء الثاني ص٦٣ من الكتاب .

(٣) الوسائل ج٢٧ ص١٣٦ باب ١١ من أبواب صفات القاضي حديث ١، التهذيب ج٦ ص٢١٨ و ٥١١، والاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

الرزق؟فقال: «ذلك السحت»[١] .

ويتكلّم ﷺ بسلطة الولاية والخلافة الدينية التي اختص بها ، فيقول في حديثه لعمّار بن أبي الأحوص عن الإسلام وأنه وضع على سبعة أسهم ، وقد مرّ ذكره عند الحديث عن سيرته ﷺ في أوّل هذا الجزء[٢] فقال في آخره: «فلا تخرقوا بهم ، أما علمت أن إمارة بني أُمية كانت بالسيف والعسف والجور ، وإن إمامتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد ، فرغّبوا الناس في دينكم وفيما أنت فيه»[٣] .

والإمام الصادق في دعوة الإمامة يعطي لنهج الدعوة مجالاً في التطبيق هيأته شهرة الإمام العلمية ، وإقبال الناس عليه ، وتأثر المجتمع به؛ لينشأ مجتمع الإمامة بخصائصه . عن محمد بن علي الحلبي قال: استودعني رجل من موالي بني مروان ألف دينار ، فغاب فلم أدر ما أصنع بالدنانير ، فأتيت أبا عبد الله الصادق ﷺ فذكرت ذلك له وقلت: أنت أحق بها . فقال «لا ، لأن أبي كان يقول: إنما نحن فيهم بمنزلة هدنة ، نؤدي أمانتهم ، ونردّ ضالّتهم ، ونقيم الشهادة لهم وعليهم ، فإذا تفرّقت الأهواء لم يسع أحد المقام»[٤] .

ويرد ذلك في مورد التأكيد على أداء الأمانات ، فيظهر في سياقها خصائص مجتمع الإمامة وسمات الدعوة . ونحوها رواية الحسين الشيباني أنه قال للإمام الصادق: إن رجلاً من مواليك يستحلّ مال بني أُمية ودماءهم ، وأنه وقع له عنده وديعة، فقال ﷺ: «أدّوا الأمانات إلى أهلها وإن كانوا مجوساً ، فإن ذلك لا

---

(١) وسائل الشيعة ٢٧ ص ٢٢١ ب ٨ من أبواب آداب القاضي ح ١
(٢) راجع الصفحة ص ٦٥ منه .
(٣) المواعظ العددية ص ٢٥٢ .
(٤) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي، كتاب الأمانات ج ٢ ص ١٩٦ رحلي .

يكون حتى يقوم قائمنا فيحلّ ويحرّم»[١] . لأن ذلك من حقوق الأشخاص ، ويندرج في باب الأمانة التي يجب الحرص عليها لضمان الأمن في المجتمع ، أما الأعمال التي تتعلق بالعدل ولها مساس بمصلحة المجتمع ، فتكون من الحقوق العامة ، وأمرها إلى الإمام الصادق يحكم فيها بحكم الدين .

ويبين الإمام الصادق ولايته فيقول: «الناس كلهم يعيشون في فضل مظلمتنا ، إلّا أنّا أحللنا شيعتنا من ذلك»[٢] .

وعن عمر بن أُذينة قال: رأيت أبا سيار مسمع بن عبد الملك بالمدينة ، وقد كان حمل إلى أبي عبد الله عليه السلام مالاً في تلك السنة فردّه عليه ، فقلت له: لم ردّ عليك أبو عبد الله عليه السلام المال الذي حملته إليه؟ فقال: إني قلت له حين حملت إليه المال: إني كنت وليت الغوص ، فأصبت أربعمائة ألف درهم ، وقد جئت بخمسها ثمانين ألف درهم ، وكرهت أن أحبسها عنك ، أو أعرض لها وهي حقك الذي جعله الله لك في أموالنا؟ فقال: «ومالنا من الأرض وما أخرج الله منها إلّا الخمس ، يا أبا سيّار ، الأرض كلها لنا ما أخرج الله منها من شيء فهو لنا» قال قلت له: أنا أحمل إليك المال كله . فقال لي: «يا أبا سيّار قد طيّبناه لك ، وأحللناك منه ، فضمّ إليك مالك وكلُّ ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون ، ويحلّ لهم ذلك إلى أن يقوم قائمنا»[٣] .

وتمضي الإمامة على عهد جعفر بن محمد الصادق في إقامة سلطانها الروحي ومجتمعها الديني ، وينتصب الإمام في وسط عالم ينوء بالجور وأفعال الطغاة ، يتصرف بما أوجبته الأحكام من حقوق للولاية الدينية

---

(١) الكافي ج٥ ص ١٣٢ ح ٢.
(٢) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج٢ ص٢٤ ح ٩٠.
(٣) التهذيب ج٤ ص١٤٤ ح١٠٣.

والإمامة الشرعية ، وفيما هو حق للإمام . عن عبد العزيز بن نافع قال:

طلبنا الإذن على أبي عبد الله عليه السلام وأرسلنا إليه ، فأرسل إلينا: «أُدخلوا اثنين اثنين» فدخلت أنا ورجل معي ، فقلت للرجل: أحب أن تستأذنه بالمسألة ، فقال: نعم . فقال له: جعلت فداك: إنّ أبي كان ممن سباه بنو أُمية ، وقد علمت أنّ بني أُمية لم يكن لهم أن يحرّموا ولا يحلّلوا ، ولم يكن لهم مما في أيديهم قليل ولا كثير ، وإنما ذلك لكم ، فإذا ذكرت الذي كنت فيه دخلني من ذلك ما يكاد يفسد عليّ عقلي . ما أنا فيه، فقال له عليه السلام: «أنت في حلٍّ مما كان من ذلك وكلّ من كان في مثل حالك من ورائي فهو في حلٍّ من ذلك» قال: فقمنا وخرجنا ، فسبقنا معتب[1] الى النفر القعُود الذين ينتظرون إذن أبي عبد الله عليه السلام فقال لهم: قد ظفر عبدالعزيز بن نافع بشيء ما ظفر بمثله أحد قط . فقيل له: وما ذاك؟ ففسره لهم فقام اثنان ، فدخلا على أبي عبد الله عليه السلام فقال أحدهما: جعلت فداك ، إنّ أبي كان من سبايا بني أُمية ، وقد علمت أنّ بني أُمية لم يكن لهم من ذلك قليل ولا كثير ، وأنا أحب أن تجعلني من ذلك في حِلٍ، فقال: «وذاك إلينا؟ ما ذاك إلينا، ما لنا أن نحلّ ولا أن نحرّم. فخرج الرجلان ، وغضب أبو عبدالله عليه السلام فلم يدخل عليه أحد في تلك الليلة إلا بدأه أبو عبد الله عليه السلام فقال: «ألا تعجبون من فلان ، يجيئني فيستحلّني من ما صنعت بنو أُمية ، كأنه يرى أن ذلك إلينا!»[2] ولم ينتفع أحد في تلك الليلة بقليل ولا كثير إلا الأوّلين ، فإنهما غنيا بحاجتهما . وذلك لأن الأوّلين كانا قد سألا فيما هو من حق الإمام وما يقع فيباب ما أوجبه الله للقائمين بالأمر من أهل بين النبوة .

---

(١) أحد الموالي القائمين بخدمة الإمام الصادق روى عنه الأصحاب وهو ثقة .

(٢) الكافي ج١ ص ٥٤٥ و٥٤٦ ح ١٥ .

ومن عموم الأخبار ، يبدو لنا بوضوح أنّ الإمام الصادق وضع السلطة الروحية التي تقوم على الإيمان بالعقيدة في مواجهة كيان الملك والسلطان الزمني الذي يتلبّس بالدين ، ويدّعي الولاية معتمداً على زبانية الجور ولعقة الصحون ممن يتزيّون بزي الفقه ولباس العلم ، ولهذا كان الإمام الصادق ينبه على أُولئك الذين يرتضون لأنفسهم ان يكونوا بالمحل الذي نبّه عليه جدّه الإمام السجاد في رسالته إلى الزهري وهو في ظل الأمويين .

يذكر هشام بن عباد أنه سمع الإمام الصادق يقول: «الفقهاء أُمناء الرسل ، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم»[1] وقد يحسب الذهبي نفسه قد أتى بشيء بقوله: مناقب جعفر كثيرة ، وكان يصلح للخلافة لسؤدده وفضله وعلمه وشرفه . فذلك ما عليه النص ، وما تواترت به الروايات ، إلاّ أنها الخلافة الكبرى في الدين ، وليست خلافة الملك والقوة ، تلك الخلافة التي فيها دوام الرسالة وبقاء الدعوة ، ولها هيآتها ورجالها من أهل العلم والفقه الذين يعظم أمر انحرافهم على الأئمة وركونهم إلى الطغاة ، لأن سلطان الدين لسعادة البشرية ورعاية مصالح الأُمة ودفع الضرر عنها ، فحرص الأئمة عليهم السلام على إبعاد شؤون الدين من علم وفقه وحديث وسائر وجوه الكيان الروحي للإسلام عن السلطان القائم على القهر وانتهاك الحرمات .

إنه عليه السلام أدار إمامته على قواعد الإصلاح والإرشاد وإقامة مجتمع ديني مستقل بروحيته عن مبادئ السياسية وقيم الملك الدنيوي ؛ لا يتصل بالسلطان الزمني إلاّ بقدر الضرورة أو تحت تأثيراتها . وأراد أن يكون القضاء بحكم الله بين شيعته ومريديه ، وينأى عن دواوين الحكّام وعمّال الملوك الذين

---

(١) تاريخ الإسلام، الذهبي ج٦ ص٤٨ .

يندر فيهم وجود من يلتزم الحق ولا يغلّب مصلحته الشخصية على مصالح الناس ؛ فراح يقول ﷺ ـ كما مر بنا قبل قليل ـ : «من تحاكم إليهم في حقّ أو باطل ، فإنما تحاكم إلى الجبت والطاغوت المنهي عنه ، ومن أمر الله أن يُكفَر به»[(١)].

وجعل ﷺ من المتخاصمين من كان قد روى حديث أهل البيت ونظر في حلالهم وحرامهم، وعرف أحكامهم هو الحكم وقال: «فليرضيا به حكماً ،فإني قد جعلته عليهم حاكماً»[(٢)] وأنّ الحكم ما حكم به أعدلهما وأفقههما ، وأصدقهما في الحديث وأورعهما ، فإن لم يتيسر للمتخاصمين ، وهما على صفة الولاء للإمام والتعلّق بحب ولايته ، ولم يظهر لهما ممسك يقدم لهما الحكم ، فيأمرهما الإمام بالتوقف عنده حتى يلقيا الإمام ، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات .

ولم ترهب الإمام الصادق ﷺ عداوات الحكّام والأحن الحي تملأ نفوسهم ، وقام بمسؤوليته في أداء الرسالة وتوجيه الأمة إلى ما فيه خيرها وسعادتها فانقادت إليه النفوس ، وآمنت بإمامته ، فكان اتجاه الناس إلى حضرته لا يقارن به تهافت العامة على أبواب الحكام ، بل تسمو العلاقة عن مثل هذا الانحدار ، والأمر واضح بين الاتجاهين بفروقهما ، فمع الإمام دين وتقوى ، ومع الحكام دنيا وطمع. قال إسحاق بن إبراهيم: كنت عند أبي عبد الله الصادق ﷺ إذ دخل عليه رجل من خراسان فقال: يا ابن رسول الله ، أنا من مواليكم ، وبيني وبينكم شقّة بعيدة ، وقد قلّ ذات يدي ، ولا أقدر أن أتوجه إلى أهلي ، ألا أن تعينوني؟ فنظر أبو عبد الله وقال: «أما تسمعون ما يقول أخوكم؟

(١) التهذيب ج٦ ص٢١٨ ح٥١٤.
(٢) التهذيب ج٦ ص٢١٨ ح٥١٤.

إنما المعروف ابتداء ، فأما ما أعطيت بعدما سأل؛ إنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه ، أفيبيت ليلته متأرقاً متمثلاً بين اليأس والرجاء ، لا يدري أين يتوجه بحاجته فيعزم على القصد إليك ، فأتاك وقلبه يجب ، وفرائصه ترتعد ، وقد نزل دمه في وجهه ، وبعد هذا فلا يدري أينصرف من عندك بكآبة الرد ، أم بسرور النجح؟ فإن أعطيته رأيت أنك قد وصلته ، وقد قال رسول الله ﷺ : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، وبعثني بالحق نبياً لما يتجشم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك»[1].

وعلى أي حال ، فإن سلطان الإمامة أصبح له كيان روحي معروف يقصده الناس من كل الأقطار ، وتؤمن من كل البلدان . يروي عبد الرحمن بن سيابة: لما هلك أبو سيابة ، جاء رجل من إخوانه إلي فضرب الباب علي ، فخرجت إليه ،فعزاني وقال: هل ترك أبوك شيئاً؟ فقلت له: لا . فدفع إلي كيساً فيه ألف درهم وقال لي: أحسن حفظها وكُل فضلها . فدخلت على أُمي وأنا فرح ، فأخبرتها ، فلما كان بالعشي أتيت صديقاً كان لأبي فاشترى لي بضايع سابري[2] ، وجلست في حانوت ، فرزق الله فيها خيراً كثيراً . وحضر الحج ، فوقع في قلبي ، فجئت إلى أمي وقلت لها: قد وقع في قلبي أن أخرج إلى مكة . فقالت لي: فرد دراهم فلان عليه فهاتها ، وجئت بها إليه ، فدفعتها إليه فكأني وهبتها له فقال: لعلك استقللتها فأزيدك؟ قلت: لا ، ولكن قد وقع في قلبي الحج فأحببت أن يكون شيئك عندك . ثم خرجت وقضيت نسكي . ثم رجعت إلى المدينة فدخلت مع الناس على أبي عبد الله ﷺ وكان يأذن إذناً عاماً ، فجلست في مآخير الناس وكنت حدثاً ، فأخذ الناس يسألونه

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٦١.

(٢) السابري: درع دقيقة النسج محكمة. الغدير ج٥ ص٣٩٣.

ويجيبهم ، فلما خفّ الناس أشار إليّ ، فدنوت إليه ، فقال لي: «**ألك حاجة؟**» فقلت له: جعلت فداك ، أنا عبد الرحمن بن سيابة . فقال لي: «**ما فعل أبوك؟**» فقلت: هلك. قال: فتوجّع وترحّم ، ثم قال لي: «**أفترك شيئاً؟**» قلت: لا . قال: «**فمن أين حججت؟**» قال: فابتدأت فحدثته بقصة الرجل ، فما تركني افرغ منها حتى قال لي: **فما فعلت في الألف؟** «قلت: رددتها على صاحبها. فقال لي: «**قد أحسنت**» وقال لي: «**ألا أوصيك؟**» قلت: بلى جعلت فداك ، قال «**عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة**»(١) .

قال أبو ربيع الشامي: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاصّ . فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق ، فلم أجد موضعاً أقعد فيه ، فجلس أبو عبد الله متكئاً ثم قال: «**يا شيعة آل محمد ، إنه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه ، ومن لم يحسن صحبة من صحبه ، ومخالقة من خالقه ، ومرافقة من رافقه . يا شيعة آل محمد ، اتقوا الله ما استطعتم ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم**»(٢) .

والقصد هنا من تقديم الروايتين بيان اتجاه الأنظار إلى الإمام الصادق ومدى اتساع دعوته وإقبال الناس عليه ، وهو يتمتع بكيان روحي يفوق في تأثيره سلطان القوّة ونفوذ الحكم ، وهو عليه السلام يعيّن خصائص هذا الكيان المستقل والذي يشتمل على الوجود العلمي لمدرسته ، وعلى النشاط الفكري لجماعته ، ويبيّن استقلالها وتفردها عن الحكام بالمصدر والمضمون . قال أبو بصير: سمعت أبا عبد الله الصادق يقول: «**اتقوا الله ، وعليكم بالطاعة لأئمتكم ، قولوا ما يقولون ، واصمتوا عمّا صمتوا ، فإنكم في سلطان من**

(١) بحار الأنوار ج٤٧ ص ٣٨٤.

(٢) بحار الأنوار ج٧٥ ص ٢٦٦ ح ١٧٨ .

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[١] فاتقوا الله ، فإنكم في هدنة ، صلّوا في عشائرهم ، واشهدوا جنائزهم ، وأدّوا الأمانة إليهم ، وعليكم بحج البيت ؛ فإن في إدمانكم الحج دفع مكاره الدنيا منكم وأهوال يوم القيامة»[٢] .

ثم يصف الإمام الصادق الطوائف التي يختلف عنها وينفصل اتجاهه عن اتجاهها ويقول: «إني لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلّا لأحد ثلاث: صاحب سلطان جائر ، وصاحب هوى ، والفاسق المعلن»[٣] .

أما توجيهاته عليه السلام ووصاياه لأصحابه فمنها: «اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس ، فإنه ما كان لله فهو لله ، وما كان للناس فلا يصعد إلى السماء ، ولا تخاصموا بدينكم ، فإن المخاصمة ممرضة للقلب ، إن الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤]. ذروا الناس فإن الناس قد أخذوا عن الناس ، وإنكم أخذتم عن رسول الله وعن علي ولا سواء ، وإني سمعت أبي يقول: إذا كتب الله على عبد أن يدخله في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى وكره»[٥] .

إنّ أهل البيت عليهم السلام جوّزوا الولاية إذا كان فيها صيانة العدل وإقامة حدود الله، والإحسان إلى المؤمنين والسعي في الإصلاح ومناصرة المظلومين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإلى جانب الأحاديث الواردة عن الأئمة عليهم السلام التي تبيّن ما على الولاة والموظفين ممن لهم من الأمر شيء ، فإن مشاعر الناس التي هاجت للمظالم التي لحقت بآل البيت وقيام الدعوة إلى الرضا من

---

(١) إبراهيم: ٤٦ .

(٢) بحار الأنوار ج٧١ ص ١٦٧ ح ٣٣.

(٣) روضة الواعظين: ص ٤٦٥.

(٤) يونس: ٩٩.

(٥) بحار الأنوار ج٥ ص٢٠٧ ح٤٣.

آل بيت النبي محمد : تخلق البواعث على الظهور في مواجهة الظالمين إلى السيف واعتباره وسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أمّا فعل الإمامة وتوجيه صاحب الأمر الشرعي فيتمثل في جوانب من دعوة الإمام الصادق في قوله: «من تولى أمراً من أمور الناس فعدل ، وفتح بابه ورفع ستره ، ونظر في أمور الناس كان حقاً على الله عزوجل أن يؤمّن روعته يوم القيامة ويدخله الجنة»[١].

وقال ﷺ:

«إذا أراد الله برعيته خيراً جعل لها سلطاناً رحيماً ، وقيّض له وزيراً عادلاً»[٢].

وكان عبد الله النجاشي والياً للمنصور على الأهواز ، وكان يرى رأي الزيدية ، وقدم المدينة ودخل على الإمام الصادق ، وسأله بمسائل عديدة ، فخرج منه وقد عدل عن رأيه وقال: هذا عالم آل محمد ، ولا زال يراسل الإمام ويسأله عن أهم الأمور وما يقربه إلى الله وإلى رسوله وهو بعمله في الولاية[٣]. فبعث إليه برسالته المشهورة وهي الميثاق الدائم الذي عليه سيرة الأئمة الطاهرين . ومن جوابه ﷺ: «إعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكفّ الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية ، والتأني وحسن المعاشرة مع لين في غير ضعف وشدّة في غير عنف»[٤].

«يا عبد الله، إياك أن تخيف مؤمناً ، فإن أبي محمد بن علي حدّثني عن أبيه عن جدّه علي بن أبي طالب أنه كان يقول: من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لا ظل

(١) روضة الواعظين ص ٤٦٥.
(٢) روضة الواعظين ص ٤٦٦.
(٣) انظر الجزء الثاني ص ٤٦١ والجزء الرابع ص ٢٠٥ من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.
(٤) بحار الأنوار ج٧٥ ص ٢٧٢.

إلّا ظلّه»[١].

وذكر الحلواني في نزهة الخاطر ، أن كاتب المهدي المعروف بأبي عبد الله سأل الإمام الصادق عمّا يستطيع به مداراة السلطان وتدبير أمره فأجابه الإمام عليه السلام بما يرشده لذلك ، وشرح له طرق السلوك في مداراة السلطان ، وأوصاه بأُمور هامة ، ونصحه في أشياء كثيرة . ولا يخفى أن السائل كان كاتباً للمهدي وهو في ولاية عهده . وكان ممن يوالي أهل البيت شأنه شأن كثير من القوّاد والأمراء والكتّاب الذين دخلوا في سلطان بني العباس لمساعدة الضعفاء ، ودفع الظلم عنهم قدر استطاعتهم بعد أن كان أساس التحاقهم بها وهو الظنّ بأنّ سلطانهم قام لنصرة آل البيت والرضا منهم .

أما ولاة الجور في عموم حكمهم ونظام سلطانهم ، فإن الإمام الصادق سنّ قاعدة التعامل معهم والتعاون وإياهم في حدود الضرورة ، والإلجاء لدفع ضررهم وشرّهم ، واتقاء ظلمهم ، فقال عليه السلام وهو يجيب سائله عن جهات معاش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات:

«جميع المعايش كلها من وجوه المعاملات فيما بينهم مما يكون لهم فيه المكاسب أربع جهات ، ويكون منها حلال من جهة ، وحرام من جهة .

فأوّل هذه الجهات الأربع: الولاية... ثم التجارة... ، ثم الصناعات... ، ثم الإجارة والفرض من الله تعالى على العباد في هذه المعاملات: الدخول في جهات الحلال ، والعمل بذلك الحلال منها ، واجتناب جهات الحرام .[٢]

فإحدى الجهتين من الولاية ، ولاة العدل الذين أمر الله بولايتهم على الناس . والجهة

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٥ ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٢) تحف العقول ص ٣٣١ ـ ٣٣٢.

الأخرى ولاية ولاة الجور، فوجه الحلال من الولاية ولاية الوالي العادل، وولاية ولاته بجهة ما أمر به الوالي العادل بلا زيادة ولا نقصان. فالولاية له والعمل معه، معونته وتقويته حلال محلل.

وأما وجه الحرام من الولاية فولاية الوالي الجائر، وولاية ولاته... ، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم حرام، معذّب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير. لأن كل شيء من جهة المعونة له معصية كبيرة من الكبائر، وذلك أن في ولاية الوالي الجائر دوس[1] الحق كله، فلذلك حرّم العمل معهم ومعونتهم والكسب معهم إلّا بجهة الضرورة إلى الدم والميتة»[2].

وهنا مقتضى القاعدة إقامة المعاملات ليس على أساس الإقرار بشرعية سلطانهم وولايتهم، ولا على أساس التعاون معهم في كل شأن وفي كل ما يأمرون به، وإنما الأمر هدنة تقدم فيها الروابط والصلات الاجتماعية، وما اتصل بالولاية فيجري مجرى الضرورة وأحكامها التي لا تتعدى الحدود التي أباحها الشرع في دفع الهلاك والمضرّة، وقد جعل الإمام الصادق لذلك كفارة من جنس العمل، فقال عليه السلام «كفارة عمل السلطان: قضاء حوائج الإخوان»[3].

وهناك بعض الأقوال للإمام الصادق التي تتعلق بهذه القاعدة كقوله: «من عذر ظالماً بظلمه؛ سلّط الله عليه من يظلمه. وإن دعا لم يستجب له، ولم يؤجره الله على ظلامته»[4].

قوله صلى الله عليه وآله: «من ولي شيئاً من أمور المسلمين وضيّعه، ضيّعه الله» وقوله: «من ظلم

---

(١) داس شيء: وطئه برجله.
(٢) تحف العقول ص ٣٣٢.
(٣) بحار الأنوار ج٧٥ ص ٢٠٦ ح ٥٧.
(٤) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٣١٩ ح ٢٦.

مظلمة أخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده»[١].

وفي وصيته إلى محمد بن علي بن النعمان ـ مؤمن الطاق :

«إن من كان قبلكم كانوا يتعلّمون الصمت وأنتم تتعلمون الكلام ـ كان أحدهم إذا أراد التعبّد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين ، فإن كان يحسنه ويصبر عليه تعبّد ، وإلا قال: ما أنا لما أروم بأهل»[٢].

«إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء ، وصبر في دولة الباطل على الأذى ، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقاً وهم المؤمنون ، إن أبغضكم إليّ المتراسون المشاءون بالنمائم ، الحسدة لإخوانهم ليسوا مني ولا أنا منهم . إنما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا ، واتبعوا آثارنا واقتدوا بنا في كل أمورنا.. يا ابن النعمان ، إذا كانت دولة الظلم فامش واستقبل من تتقيه بالتحية ، فإن المتعرض للدولة قاتل نفسه وموبقها ، إن الله يقول: ﴿وَلاَ تُلقُواْ بِأَيدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٣].

ويبدو جلياً أنّ الإمام يحذر من مواجهة دولة الظلم ، لأن رجالها في كلا العهدين انطوت نفوسهم على كره شديد لأهل البيت خصوصاً ، وحقد أسود لكل مناصر لهم في دعوتهم إلى إقامة الحق وإطفاء الباطل ، وما زال الإمام تحفّه المخاطر وتبقي بكل وسيلة محاولات الظلمة للقضاء على ذكر أهل بيته ورثة علم المصطفى ، هذا والأمر موصول كما جرت به الأقدار وأراده الله، فدولة الظلم بإزائها دعوة الحق وحملة الإيمان التي يقوم بها حجج الله المكلّفون بالخلافة الدينية حتى يقضي الله بخروج حجته القائم ، فكان الإمام الصادق كثيراً ما يقول:

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٢ ص ٣٣٠ ح ٦٢.

(٢) تحف العقول ص ٣٠٩

(٣) تحف العقول ص٣٠٩.

«لكـــــل أنـــــاس دولة يـــرقبونها ودولتـــنا فـــي آخـــر الدهـــر تـــظهر»[١]

ويقول عليه السلام :

«إذا قام القائم عليه السلام ، دعا الناس إلى الإسلام جديداً ، وهداهم إلى أمر قد دثر ، وضلّ عنه الجمهور ، وإنما سمّي المهدي مهدياً لأنه يهدي إلى أمر مضلول عنه، وسمي القائم لقيامه بالحق»[٢].

ومن قوله عليه السلام:

«إذا أذن الله تعالى للقائم في الخروج ، صعد المنبر ودعا الناس إلى نفسه ، وناشدهم بالله ، ودعاهم إلى حقّه ، وأن يسير فيهم بسيرة رسول الله ، ويعمل فيهم بعمله ، فيبعث الله جبرئيل عليه السلام حتى يأتيه ، فينزل على الحطيم ، ثم يقول له: إلى أي شيء تدعو؟ فيخبره القائم . فيقول جبرئيل: أنا أول من يبايعك ، فيمسح على يده ، وقد وافاه ثلاثمائة وبضعة عشر إلى المدينة»[٣].

وقال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[٤] «إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أخرجته قريش من مكة ، وهرب منهم إلى الغار ، وطلبوه ليقتلوه فعوقب . ثم في بدر عاقب لأنه قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وأبو جهل وغيرهم ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله بغى عليه ابن هند بنت عتبة بن ربيعة بخروجه عن طاعة أمير المؤمنين عليه السلام وبقتل ابنه يزيد الإمام الحسين عليه السلام بغياً وعدواناً ، والقائل شعراً :

---

(١) روضة الواعظين ص ٢٦٢ و٢٦٧.
(٢) بحار الأنوار ج٥١ ص ٣٠.
(٣) منتخب الأثر ص٤٦٨.
(٤) الحج: ٦٠.

ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً — ثم قالوا يا يزيد لا تشل
لست من خندف إن لم أنتقم — من بني أحمد ما كان فعل
قد قتلنا القرم من ساداتهم — وعدلناه ببدر فاعتدل

ثم قال تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ يعني بالقائم المهدي من ولده عليه السلام[1] ويروي عن أبيه الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هم القائم وأصحابه[2].

ثورات العلويين

وبمرور الأيام تزداد الشقّة بين حملة الرسالة وبين حكام الأمة بالباطل بُعداً، وتصبح سيرة العلويين مآثر خالدة من التضحيات والبطولة التي تحيي في النفوس مبادئ العدل وعقائد الإيمان ، وقد بات أساس حكم الأمويين معروفاً ، وسياستهم واضحة في قيامها على استهداف شخصية أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ، والنيل من مكانته في النفوس بعد أن أمّن معاوية التأثير في العوام والجهلة من أهل الشام ، ممن تحكمهم الأطماع والمنافع وبواسطة علماء السوء الذين جعلوا لباس صحبة معاوية للنبي محمد وغيره من الطلقاء ستاراً للجاهلية التي استسلمت يوم الفتح ، وأعطت عن يدٍ صاغرة لتهدأ إلى حين ، وقد وضعت في حسابها مسايرة الأحداث ومماشاة الإسلام ، فكانت تلك الأحداث التي اتجهت إلى إبعاد أهل بيت النبوة عن منازلهم

(١) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص ٥١٠ .
(٢) تفسير نور الثقلين ج٣ ص ٤٦٤ ح ١٨٩ .

الحقيقية ومراكزهم التي أرادها الله لهم ، لتأمين دوام الدعوة وبقاء الرسالة على أُصولها ومبادئها ، وكلما اتسعت مجالات الانحراف عن قواعد الإسلام وأحكامه ، أصبحت الدعوة إلى مقاومة الباطل والقضاء على الانحراف شديدة تنطلق بها الحناجر ، وتُزهق من أجلها الأرواح وتُهرق الدماء ، وقد جعل لأُمناء دعوة الإسلام في مواجهة الباطل والضلال أزماناً هم بالغوها بما عهد إليهم ، وجرت به مقاديرهم التي تمضي في مسلك الإمامة والخلافة الكبرى .

غير أنّ العلويين ـ وقد باتوا في مواجهة الجاهلية بأصنافها والباطل بطوائفه ـ كانوا سياج الإمامة وجندها ، فملأوا الأرض بآثار التقوى وشواهد الحق ، ووضعوا نصب أعينهم ما قدّر لأهل بيتهم وما وضع في أعناقهم وما وجب على أُمتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهم قدوة الناس وقادتها تتطلع إليهم النفوس في المهمات ، وتشرئب إليهم الأعناق في الملمات ، فلمّا وجدوا أن أُمية لا تقف عند حدٍ في عدائها لأهل البيت ، ولا ترعوي وتترك المجاهرة بالضلال والممالئة بالباطل؛ نهضوا بنداء أبيهم الحسين مرة أُخرى ، وأعادوا صفحات البطولة والفداء .

وقد سلك الأُمويون مسلكاً حاولوا فيه تشتيت العلويين وتمزيق صفوفهم ، بعد أن أحاطوهم بما يبقي نشاطهم تحت أعين عمالهم ، بتوجيه رقابة شديدة ، والاحتيال للتقرب منهم طمعاً في إزالة صفات النقمة والابتعاد عن حكم الأُمويين . تلك الصفات التي تضعف موقع الأُمويين في النفوس التي تنقرب منها ، وتلهب المشاعر في القلوب التي تقف إلى صف أهل البيت .

وقد كان هشام بن عبدالملك يزيد آخر في سلسلة الطغاة الأُمويين ، اتسم

بكل قبائحه ، واتصف بالبذاءة والحقد واللؤم ، وقد أدت السياسة التي يتبعها إلى أن يسمع ما يكشف الغشاوة ويزيلها عن عينيه لما دخل عليه الشهيد زيد بن علي، فقال له: ليس أحد من عباد الله دون أن يوصي بتقوى الله سبحانه ، ولا أحد فوق أن يوصى بتقوى الله سبحانه ، وأنا أوصيك بتقوى الله .

فقال هشام: أنت زيد المؤمّل للخلافة ، الراجي لها ، وما أنت والخلافة ، لا أم لك ، وأنت ابن أمة .

فقال زيد: لا أعلم أحداً أعظم منزلة عند الله من نبي بعثه وهو ابن أمة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ما يقصرك برجل جدّه رسول الله ﷺ وأبوه علي بن أبي طالب .

فوثب هشام ووثب الشاميون ودعا قهرمانه وقال: لا يبيتن هذا في عسكري الليلة . فخرج زيد عليه السلام وهو يقول لهشام: أخرج ثم لا تراني إلّا حيث تكره . ثم قال هشام : ألستم تزعمون أن أهل هذا قد بادوا؟ ولعمري ما انقرض من حقل هذا خلفهم[1] .

وكانت قضية الخلاف في أوقاف الإمام علي وولايتها مدخلاً عثبته أرجل الأمويين الدنسة ، وامتدت من طريقه أيديهم القذرة لإذكاء الخصومة بين بني الحسين وبني الحسن . ولا تدخل في تفاصيل هذا الخلاف الذي أسهبت المصادر في ذكره والكثير منها يحتاج إلى تدقيق وأناة في النظر ، لتبيّن دور الأمويين في كل ما نسب إلى أي من الطرفين ، وعندي أن هذه السبيل التي

---

(١) للمزيد، انظر الجزء الأول ص١٢١ ـ ١٢٧ وقد ضمّ كتابنا الذي أنجزناه «العلوي الثائر» ترجمة وبحثاً عن الشهيد زيد .

سلكها الأُمويون كان الغرض منها حمل العلويين على اللجوء إلى بني أمـية ، وفي ذلك خدمة لسياستهم ، إذ تـظهر العـلويين بـمظهر الاعـتراف بـسـلطان الأُمويين والتحاكم إليهم ، وقد أبـطل الطـرفان مـا اسـتتبع ذلك مـن سـياسة وأغراض أرادها الأُمويون ، فقد فطن عبدالله بن الحسـن وزيد بن علي لشماتة الوالي بهما ، فذهب عبدالله ليتكلم ، فـطلب إليـه زيـد فسكت ، وقـال زيـد للوالي: أمَ والله لقد جـمعتنا لأمر ماكان أبو بكر وعمر ليـجمعانا عـلى مـثله ، وإني اشهد الله أن لا أنازعه إليك محقّاً ولا مبطلاً ماكنت حياً . ثم قال لعبد الله: انهض يا ابن عم . فنهضا وتفرق الناس[1] . وقدكـان مـن فـعل الوالي لشـدّ الأنظار إلى هذا الخلاف إن كانت المدينة تغلي كالمرجل ، يقول قـائل كـذا ، وقائل كذا ، قائل يقول قال زيد كذا ، وقائل يقول قال عبدالله كذا .

ويتخوّف هشام بن عبدالملك من دخول زيد العراق ، فيكتب إلى عـامله: أنه رأى زيداً رجلاً جَدِلاً لَسِناً خَليقاً لتمويه الكلام وصوغه ، واجترار الرجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه في حججه ، وما يدلي به عند لدد الخصام من السـطوة على الخصم بالقوة الحاذة لنيل الفلج؛ وهشام بذلك يفصح عن خذلان منطقه وعجزه عن الوقوف أمام كلام زيد الذي يستمد من القـرآن حـججه؛ فيملأ قوله آيات بينات ، ويستملي من الحقائق لغته ، أما السطوة فـهي مـن فيض النبوة وتسديد الله ممّا منع منه هشام وأهله لفسـقهم وظـلمهم . فـتراه مـذعوراً يكـتب إلى عـامله بـهذا ، ومـنه: فـعجّل بـإشخاصه ـ أي زيـد ـ إلى الحجاز ، ولا تخلّه والمقام قبلك ، فـإنه إن أعـاره القـوم أسـماعهم فـحشاها من لين لفظه وحـلاوة مـنطقه مـع مـا يـدلي بـه مـن القـرابة بـرسول صلى الله عليه وآله

(١) تاريخ الطبري ج٨ ص٢٦٢ .

وَجَدَهُم مُيلاً إليه[١] .

ثم قامت ثورة الشهيد زيد في سنة (١٢٤ هـ) على اختلاف في الروايات ، منها إحدى وعشرين ومائة وما بين ذلك . فلما خفقت الراية على رأسه قال: الحمد لله الذي أكمل لي ديني ، والله إني كنت أستحيي من رسول الله ﷺ إن أرِدَ عليه الحوض غداً ولم آمر في أُمته بمعروف ولا أنهى عن منكر[٢] .

وحينما أُخبر الإمام الصادق ؈ عن مقتله وما جرى عليه ، بكى بكاء شديداً وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند الله احتسب عمّي» ثم قال: «مضى والله شهيداً ، كشهداء استشهدوا مع رسول الله وعلي والحسين» . وقال ؈: «فلعن الله قاتله وخاذله ، وإلى الله أشكو ما نزل بأهل بيت نبيه بعد موته ، ونستعين الله على عدوّنا وهو المستعان»[٣] .

وهكذا حلّت بالمسلمين فاجعة أُخرى ، وإن كان أمرها معروفاً فيما كان لدى الأئمة الأطهار من علم ، إذ قال له أبوه الإمام زين العابدين: «أُعيذك بالله أن تكون زيداً المصاب بالكُناسة» . وبلفظ: «أُعيذك بالله أن تكون صليب الكناسة»[٤] .

وثورة الشهيد زيد هي من مقتضيات الحال ، ومن الأعمال التي تنجم عن جور الحكام وظلمهم لآل بيت النبي محمّد ، وهي إحياء للحق ، وعمل بأمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولذلك قال الإمام الصادق: «إن زيداً كان عالماً ، وكان معروفاً ، ولم يدعكم إلى نفسه ، وإنما دعاكم إلى الرضا من آل

---

(١) تاريخ الطبري: ج٩ ص١٩٨ .

(٢) عمدة الطالب ص٢٥٦ . وصحاح الأخبار لأبي المعالي الرفاعي ص٣٦ .

(٣) انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) أبو الحسين زيد الشهيد للسيد محسن الأمين ص٦٨ .

محمّد . ولو ظهر لوفى ما دعاكم إليه ، إنما خرج على سلطان مجتمع ينقضه»(١) .

وما اعتقده البعض من إمامته كان سببه خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمّد ﷺ فظنّوه يريد بذلك نفسه ولم يكن يريدها به ، لمعرفته باستحقاق ابن أخيه (الصادق) ؑ للإمامة من قبله ، ووصيته عند وفاته إلى أبي عبدالله ؑ(٢) .

وقول زيد بن علي مشهور: (في كل زمان رجل منّا أهل البيت ، يحتج الله به على خلقه ، وحجة زماننا ابن أخي جعفر ، لا يضلّ من تبعه ، ولا يهتدي من خالفه)(٣) .

وقد كان وقع المأساة عظيماً في نفس الإمام الصادق ، وأثرها شديداً في نفسه ، فلما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أرَ مهدياً على الجذع يصلب

رفع الإمام يديه إلى السماء وقال: **«اللهم سلّط عليه كلباً من كلابك»** فبعثه بنوأُمية إلى الكوفة ، فافترسه الأسد في الطريق ، فبلغ الإمام ذلك فخرّ ساجداً وقال: **«الحمد لله الذي أنجزنا وعده»**(٤) .

ويستفاد من الروايات أنه ؑ جلس للعزاء ، ودخل الناس عليه يعزّونه . يقول فضيل الرسان: دخلت على جعفر بن محمد أُعزّيه عن عمّه زيد ، ثم قلت له: ألا أُنشدك شعر السيد ـ الحميري ـ؟ فقال: **«أنشد»** . فأنشدته :

فالناس يوم البعث راياتهم خمس فمنها هالك أربع

---

(١) أبو الحسين زيد الشهيد السيد محسن الأمين ص٣٩ .

(٢) الإرشاد ص٢٥١ .

(٣) المناقب لابن شهرآشوب: ج٢ ص١٤٧ . وانظر الجزء الرابع من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص٩١ .

(٤) الكواكب الدرية للمناوي ، ونور الأبصار للشبلنجي ص١٤٧ .

قــــائدها العــــجل وفــــرعونهم ... وســــــامريّ الأُمــــة المــــقطع
ومــــارق مــــن ديــــنه مــخرج ... أســـــود عـــــبد لكـــــع أوكـــــلع
ورايــــــة قــــــائدها وجـــهه ... كأنـــــه الشـــمس إذا تـــطلع

وروى الشيخ أبو نـصر البـخاري عـن مـحمّد بـن عـمير أنـه قـال: قـال عبدالرحمن بن سيّابة: أعطاني جـعفر بـن مـحمّد الصـادق ﷺ ألف ديـنار، وأمرني أن أُفرّقها في عيال من أُصيب مع زيـد، فأصـاب كـل رجـل أربـعة دنانير(۱).

وتكفل الإمام الصادق بالحسين بن زيد، وربّاه وعلّمه. أما يحيى فخرج إلى المــدائـن، ثـم إلى الري، ومـنها إلى نـيسابور وسـرخس، حـتى قـتل بالجوزجان.

يروي عمير بن متوكل الثقفي عن أبيه قال: لقيت يحيى بن زيد بن علي ﷺ وهو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه، فسلّمت عـليه، فـقال لي: مـن أيـن أقبلت؟ قلت من الحج. فسألني عـن أهـله وبـني عـمّه بـالمدينة، وأحـفى السؤال عن جعفر بن محمد ﷺ فأخبرته بخبره وخبرهم، وحزنهم على أبيه زيد بن علي، فقال لي: قد كان عمّي محمّد بن علي ﷺ أشار على أبي بـترك الخروج، وعرّفه إن هو خرج وفارق المدينة ما يكون إليه مصير أمره، فـهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمّد ﷺ؟ قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري؟ قلت نعم. قال: بم ذكرني؟ خبّرني. قلت: جعلت فداك ما أُحب أن أستقبلك بما سمعته منه. فقال: أبالموت تخوفني؟ هـات مـا سـمعته. فقلت: سمعته يقول: إنك تقتل وتصلب كما قتل أبوك وصُلب. فتغير وجهه

(۱) أمالي الصدوق ص٤١٦ ح٥٤٦، ورجال الشيخ محمد طه نجف في ترجمة عبدالرحمن، نقد الرجال للتفرشي ج٢ ص٢٨٨.

وقال: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب﴾ ، يا متوكل، إن الله عزّ وجلّ أيد هذا الأمر بنا ، وجعل لنا العلم والسيف ، فجمعا لنا وخصّ بني عمنا بالعلم وحده[1] . فقلت: جعلت فداك ، إن رأيت الناس إلى ابن عمك جعفر ﷺ أميل منهم إليك وإلى أبيك؟ فقال: إن عمي محمد بن علي وابنه جعفراً ﷺ دعوا الناس إلى الحياة ، ونحن دعوناهم إلى الموت . فقلت: يا ابن رسول الله أهم أعلم أم أنتم؟ فأطرق إلى الأرض ملياً ، ثم رفع رأسه وقال: كلنا له علم ، غير أنهم يعلمون كلما نعلم ، ولا نعلم كلما يعلمون . ثم قال: أكتبت من ابن عمي شيئاً؟ قلت: نعم[2] .

وتنتشر ثورات العلويين وتمتد ، فهم سلالة أمير أهل العدل ويعسوب الدين وأول المسلمين إسلاماً الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وهم جند الدعوة ورجال الحق والإباء الذين يأبون الضيم ويأنفون الاستكانة للظالمين . وقد ارتكب الأُمويون من المجازر والمظالم ما يهز ضمائر أهل الذمة وأصحاب الملل والشرائع الأُخرى فضلاً عن استثارتها مشاعر المؤمنين واستهوا لهم ما حدث ، وجندوا كل ما تحت أيديهم للقضاء على ذكر الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وقتل وتشريد أهل بيته وأصحابه وشيعته ، فكانت النفوس تغلي بنار النقمة ، ولما أخذت دولة الأُمويين تنحدر إلى نهايتها ويظهر ضعفها؛ نمت حركة التحول والتغيّر في ظل الاتجاه الذي اتخذه العلويون ، وكانت مظالمهم مادة الحركة ومدارها . يقول أبو الفرج: فكان أول ما يظهرونه فضل علي بن أبي طالب وولده وما لحقهم من القتل والخوف

(١) سيأتي ذكر سيف النبي محمد ﷺ ووجوده عند الإمام الصادق بعد قليل إن شاء الله .

(٢) وردت الرواية في التقديم للصحيفة السجادية وإنما سقتها هنا للتدليل على أن العلم الذي يختص به الإمام لا ينازع حتى أن يحيى باستفساره الأخير كان يطلب التواصل مع ما يصدر عن الإمام الصادق .

والتشريد ، فإذا استتب لهم الأمر ادّعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعو إليه[1] .

وقد ذكرنا وبينا في الأجزاء السابقة من الكتاب أن العباسيين دخلوا في ثنايا هذه الدعوة ، وأظهروا ما أظهر الآخرون وهم في قرارات أنفسهم يخفون وراء الدعوة إلى الرضا من آل محمد أطماعاً خاصة ، وأغراضاً سلطوية لو أبدوها للفظهم الناس من بين صفوفهم، ورفضهم كافة بني هاشم .

وكان اجتماع الأبواء[2] وحضره جماعة من بني هاشم ، فقال صالح بن علي: قد علمتم أنكم الذين تمدّ الناس أعينهم إليهم ، وقد جمعكم الله في هذا الموضع ، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم ، وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين .

ويروي أبو الفرج أن أبا جعفر المنصور قال: لأي شيء تخدعون أنفسكم؟ ووالله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أميل أعناقاً ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى ـ يريد محمد بن عبدالله بن الحسن ـ .

وإذا نظرت فإن أبا جعفر ثاني الخلفاء العباسيين وممن أسسوا الدولة العباسية وهو قاتل محمّد بن عبدالله النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، ولكنه يومئذٍ لا يعدّ له وزن ولا تحسب له قيمة ، بل هو ليس بشيء إذا ما قورن بمحمد النفس الزكية بفقهه وورعه وجوده . وقد أظهر ذلك الأمر ، بل أكثر منه ما يحدث به عمير بن الفضل الخثعمي ، قال :

رأيت أبا جعفر المنصور يوماً ، وقد خرج محمّد بن عبدالله بن الحسن من

---

(١) مقاتل الطالبيين ص٢٣٣ .

(٢) موضع بين مكة والمدينة .

دار ابنه ، وله فرس واقف على الباب مع عبد له أسود ، وأبو جعفر ينتظره ، فلما خرج وثب أبو جعفر فأخذ بردائه حتى ركب ، ثم سوّى ثيابه على السرج ، ومضى محمّد فقلت ـ وكنت حينئذٍ أعرفه ولا أعرف محمّداً ـ : من هذا الذي أعظمته هذا الإعظام حتى أخذت بركابه ; وسوّيت عليه ثيابه؟ قال: أو ما تعرفه؟ قلت: لا . قال: هذا محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن ، مهدينا أهل البيت[1] .

وقد علمنا سابقاً كيف كان الإمام الصادق يبين مسألة المهدي ، كما أنّ حقيقة هذه الدعوى من جهة الأغراض السياسيّة معلومة ، أما حقيقتها من جهة العلويين فليست محققة ولا مضمونة الصحة ، لأن الحسينيين ـ من آباء عبدالله وابنه محمّد ـ لم يدّعِ أحد منهم الإمامة ; وقد قضى الحسن المثنى ولم يظهر منه ما يخالف النص والولاية ، وحاشاهم ذلك ، فظهور الفضل في أبناء عمهم جلي ، وإلّا فمن يخفى عليه فضل زين العابدين علي بن الحسين السجّاد عليه السلام على الحسن بن الحسن وعبدالله بن الحسن . وفضل الباقر محمّد بن علي عليهما السلام على محمّد بن عبدالله بن الحسن وإبراهيم بن عبدالله بن الحسن[2] .

أما الإمام الصادق فلا يمكن أن ينعقد أمر يخص الأُمة ومصالح المسلمين دون رأيه ، فهو الذي يمثل الإمامة وله بين الناس الأثر البالغ . ولما اجتمع بنو هاشم ، وخطبهم عبدالله بن الحسن ، فحمد الله وأثنى عليه قال: إنكم أهل البيت قد فضلكم الله بالرسالة واختاركم لها ، وأكثركم بركة يا ذرية محمّد صلى الله عليه وآله . إلى آخر الخطبة التي قال فيها: فهلم نبايع محمّداً ، فقد علمتم أنه

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٢) انظر المسائل الجارودية في تعيين الخلافة والإمامة في ولد الحسين بن علي عليهما السلام للشيخ المفيد ص ٥٢ .

المهدي . فلا يعتقد منه الظاهر من القول ، لأن كثيراً من الروايات عن عبدالله نفسه تدفع ذلك ، منها رواية المقانعي بسنده عن محمّد بن بشر قال: قال رجل لعبد الله بن الحسن: متى يخرج محمّد؟ قال: لا يخرج حتى أموت . وهو مقتول .

وكان عمرو بن عبيد ينكر أن يكون محمّد بن عبدالله هو المهدي ويقول: كيف وهو يقتل ؟

وإذا سلّمنا صحة القول ، فلا وجه له إلّا التيمّن باسم المهدي ، أو الإشارة إلى صفة محمّد في الهداية والورع ،كتسمية النفس الزكية التي هي أوضح ولا تفضي إلى لبس ، وكذلك وصفه بالشبه .

وبعد أن انتهى عبدالله بن الحسن من خطبته في الاجتماع قالوا: لم يجتمع أصحابنا بعد ، ولو اجتمعوا فعلنا ، ولسنا نرى أبا عبدالله جعفر بن محمّد[١] .

وفيما وراء العلويين كان العلماء وأصحاب الفكر كالمعتزلة الذين كانوا أبرز الجماعات الفكرية في هذه الفترة ، بلغ من شهرتهم أن نسبوا الإمام زيداً إلى حركتهم ، وكذلك محمد النفس الزكية ، وهي نسبة لا أساس لها من الواقع ، ولا تتم في إطار المنطق؛ لأنّ الأولى أن ينسب بعض وجوه فكر المعتزلة إلى هذين الرجلين لا العكس .

يروي عبدالكريم بن عتبة الهاشمي قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام بمكة إذ دخل عليه أُناس من المعتزلة ، فيهم: عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وحفص بن سالم من رؤسائهم . وذلك أنه حين قتل الوليد ، واختلف أهل الشام بينهم فتكلموا فأكثروا ، وخطبوا فأطالوا .

---

(١) مقاتل الطالبيين ص١٧١.

فقال لهم أبو عبدالله جعفر بن محمّد عليه السلام: «إنكم قد أكثرتم عليّ فأطلتم، فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم أو ليوجز».

فاسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال. فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتّت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة ومعدن للخلافة وهو محمّد بن عبدالله بن الحسن، فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، ثم نظهر أمرنا معه، وتدعو الناس إليه، فمن كنا معه كان منّا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونردّه إلى الحق وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك لفضلك ولكثرة شيعتك. وجرت بذلك مناظرة احتج فيها الإمام بما عهد عنه من الوضوح والسطوة والفلج، ولولا أخذنا بالإيجاز وتجاوزنا في هذا الفصل ما قرر له من حدود؛ لأوردناها بطولها لغناها وشمولها، ولكن نكتفي بما ختم به الإمام الصادق قوله، إذ أقبل على عمرو وقال:

«اتق الله يا عمرو، وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني ـ وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ـ أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلّف»[1].

والظاهر أن بني هاشم عقدوا أكثر من اجتماع، منها ما حضره الإمام الصادق، ومنها ما لم يحضره، والنوع الأخير حال دون انعقاد أمرهم على شيء لغياب الإمام عنه. أما أن يكون اجتماعاً واحداً، وهو ما تشعر به رواية ابن الطقطقي فهو بعيد، ولا بد أن ابن الطقطقي جمع الأحداث في مدلول

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص٣٦٢ ـ ٣٦٣.

واحد ، ومن الخير إيراد روايته :

يقول ابن الطقطقي: كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون قد اجتمعوا في ذيل دولة بني أمية ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وميل الناس إليهم ومحبتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يدعوا الناس سراً ؛ ثم قالوا: لا بد لنا من رئيس نبايعه . فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان محمّد من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بني هاشم من علويهم وعباسيهم ، فحضره من أعيان الطالبيين: الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام ، وعبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وابناه محمّد النفس الزكية وإبراهيم قتيل باخمرى وجماعة من الطالبيين . ومن أعيان العباسيين: السفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس . فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية ، إلّا الإمام جعفر بن محمّد الصادق... إلخ[١] .

والغرض فإنّ العباسيين حاولوا دفع العلويين بالاتجاه الذي يمكنهم من تحقيق أغراضهم ، وزجهم في المعترك السياسي؛ لأنهم يعلمون بالخطة التي اختطها الإمام الصادق لنفسه ولأبناء عمومته ، من الانعزال عن تلك الاتجاهات ، والاحتفاظ بمركزهم الديني ، لأن الظروف غير مؤاتية للثورة ، وكل شيء يقع قبل أوانه يؤدي به التعجيل إلى الفشل ، ولكن العباسيين استطاعوا صدع الصف العلوي بجلب البعض إليهم من بني الحسن .

ويذكر أبو الفتح الشهرستاني ـ بعد ذكره لمقتل يحيى بن زيد ومحمّد

---

(١) الفخري ص١٤٦ و١٤٧ .

وإبراهيم(رض) ـ أنّ الإمام الصادق ﷺ أخبرهم بجميع ما تم عليهم ، وعرّفهم أن آباءه ﷺ أخبروه بذلك كله ، وأن بني أُمية يتطاولون على الناس حتى لو طاولتهم الجبال لطالوا عليها ، وهم يستشعرون بغض أهل البيت ، ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم . وكان يشير إلى أبي العباس وأبي جعفر بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس: «إنا نخوض الأمر حتى يتلاعب بها هذا وأولاده» إشارة إلى المنصور[١] .

وصفوة القول أنّ الإمام الصادق هو الوحيد الذي لا يقع تحت تأثير المنافع القريبة والمصالح الظاهرة ، فهو الإمام الذي أهّله الله للقيادة والعلم بعواقب الأمور ، واستشفاف ما وراء الحوادث ، فلم يخدع بتلك المغريات ويعرّض نفسه وأهل بيته ، بل المجتمع الإسلامي كله لخطر لا قبل لهم على دفعه .

ذكر كثير من المؤرخين أنّ أبا سلمة[٢] كاتب ثلاثة من أعيان العلويين وهم: جعفر بن محمّد الصادق ، وعمر الأشرف بن زين العابدين . وعبدالله المحض ، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم يسمى محمد بن عبدالرحمن ابن أسلم مولى رسول الله ﷺ وقال أبو سلمة للرسول: العَجَلَ العَجَلَ ، فلا تكونن كوافد عاد . وقال له: أقصد أولاً جعفر بن محمّد الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب فالق عبدالله المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالق عمر.

فذهب الرسول إلى جعفر بن محمّد أولاً ، ودفع إليه كتاب أبي سلمة ، فقال الإمام ﷺ: «مالي ولأبي سلَمة؟ وهو شيعة لغيري» فقال له الرجل: إقرأ الكتاب .

(١) الملل والنحل ج٢ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٢) انظر ترجمته في الجزء الرابع من هذا الكتاب ص٦٥.

فقال عليه السلام لخادمه: «أدن السراج مني» فأدناه . فوضع الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول: ألا تجيبه؟ قال عليه السلام: «قد رأيت الجواب ، عرّف صاحبك بما رأيت» .

فخرج الرسول من عنده ، وأتى عبدالله بن الحسن ، ودفع إليه الكتاب وقرأه ، وابتهج ، فلما كان غد ذلك اليوم الذي وصل إليه فيه الكتاب ، ركب عبدالله حتى أتى منزل أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، فلما رآه أبو عبدالله أكبر مجيئه وقال: «يا أبا محمد، (كنية عبدالله المحض) أمرٌ ما أتى بك؟» قال: نعم هو أجلّ من أن يوصف . فقال له: «وما هو يا أبا محمد؟» قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة ، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان . فقال له أبو عبدالله: «يا أبا محمد ، ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان ، وأنت أمرتهم بلبس السواد؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم؟ وهل تعرف منهم أحداً؟» فنازعه عبدالله بن الحسن الكلام إلى أن قال: إنما يريد القوم ابني محمداً لأنه مهدي هذه الأمة . فقال أبو عبدالله جعفر الصادق: «ما هو مهدي هذه الأمة ، ولئن شهر سيفه ليقتلنّ»[1] .

فقال عبدالله: كان هذا الكلام منك لشيء؟ فقال الصادق: «قد علم الله أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم ، فكيف أدّخره عنك ، فلا تُمَنّ نفسك بالأباطيل ، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك»[2] .

لقد بذل الإمام لأبناء عمه النصح ، وجهد أن يجنبهم المهالك ، ويبصّرهم

---

(١) إن عدم احتجاج الإمام الصادق بالمعروف من الأحاديث عن القائم المهدي ورد قول عبدالله بالنصوص التي يعرفها عبدالله أيضاً يحمل على الاعتقاد بأن القول بمهدية محمد ليس بما يعنيه الاعتقاد الحقيقي بالإمام المهدي وإنما لأغراض جذب الناس إليه وزيادة التعريف به .

(٢) الآداب السلطانية ص١٣٧، مروج الذهب ج٣ ص٢٦٩ .

بعاقبة ما يقدمون عليه ، بعد أن مرّت الأيام ، وحدث التحوّل السياسي . فقد جاءت محاولة أبي سلمة متأخرة؛ لذا نرى الإمام الصادق عليه السلام يشير إلى أبي مسلم وأهل خراسان ولبس السواد ، فكان عليه أن يحذّر الحسنيين ، فلقي منهم استنكاراً واتهاماً . ولكنه عليه السلام كان يرى ما لا يرونه ، ويعجزون عن معرفته ، حتى كأن العواقب ومجريات الأحداث القادمة يقرأها في كتاب أمامه .

كما أنّه عليه السلام لم يكشف من قبل عن رأيه في صور من التقرب كانت تبدر من أبناء عمومته تجاه الحكام الظلمة والتقائهم بالأمويين ، فيما كان عليه السلام مشغولاً بالواجبات الدينية ومعالجة ما يعاني منه المسلمون ، وحماية نفسه وشيعته من سلطان الجور وحكم الطغاة ، فلما قتل زيداً يوسف بن عمر وصلب جثته بالكناسة ، وبعث برأسه مع شبّة بن عقال ، وكلّف آل أبي طالب البراءة من زيد ، وقام خطباؤهم ، فكان أول من قام عبدالله بن الحسن ، فأوجز في كلامه ، ثم جلس . وقام عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ، فأطنب[1] . وإن صحّ ذلك ، ففيه تجاوز لمقتضيات الحيطة وضرورات التقية .

وإنّ الإمام الصادق في كيانه الروحي والفكري كان على نهجه في عدم التقرب إلى الحكام والالتقاء معهم إلاّ في حدود دفع الخطر والهلاك ، وكانت مصيبة زيد ـ كما أشرنا ـ قد آلمته كثيراً وأحزنته ، ولكنه عليه السلام أظهر موقع ثورة زيد والموقف منها . ولما بدأت في ظل العباسيين بوادر ثورة جديدة هي ثورة النفس الزكية بعد جهده في حملهم على العدول عن فكرة التعرض لبني

(١) زهر الآداب ج١ ص٧٩.

العباس بدولتهم ، وأن في طرق الإصلاح سعة ، والدعوة بين المسلمين بمبادئ العدل والإيمان هي أمان الأمة . ومن نتائج منهج الإمام أن يكون المسلم على علم بانحراف الحكام ، ويتعقب جورهم وفسادهم وباطلهم بالقول والوعي ، حتى كانت بيئة مدرسته ﷺ وأوضاع حياته إطاراً لسلطة الإمامة الروحية التي لها في الأحداث رأي يصيب كبد الحقيقة ، فرأى الإمام أن البيت العلوي مقبل على مأساة أخرى سيقدّم فيها الدماء والأرواح ، وكان عليه أن يسعى إلى حفظ هذه الدماء وحماية أهله ، فأتى محمداً النفس الزكية وقال له: «تحب أن يصطلم أهل بيتك؟» ولولا حرصه على ذلك لكان أو من يعلن الثورة ، ولكن كيف يدفع بأهله والناس إلى التهلكة؟ ولقد كان ﷺ من وفائه لأغراض العدل أن ترك ولديه موسى وعبدالله ، ولم يبخل بهما على الثورة العلوية التي أدى استئثار العباسيين وتنصلهم من أقرب الناس إليهم إلى إصرار محمد واندفاعه في الخروج؛ لأنه يرى نفسه صاحب الأمر والمنصور قد بايع له .

كما كان الإمام يرمي إلى أن يحفظ مكانة البيت العلوي الذي تمثلت به القيادة الروحية . غير أن حقد المنصور قد وجد الذريعة للاعتداء على مكانة أهل البيت وسفك دمائهم ، فعن الحسين بن زيد: إني لواقف بين القبر والمنبر ، إذ رأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر ، يراد بهم الربذة . فأرسل إليّ جعفر بن محمّد فقال: «ما وراءك؟» قلت: رأيت بني الحسن يخرج بهم في محامل . فقال: «أجلس» فجلست . قال: فدعا غلاماً له ، ثم دعا ربّه كثيراً ، ثم قال لغلامه: «اذهب ، فإذا حُملوا فأتِ فأخبرني» . قال: فأتاه الرسول فقال: قد أقبل بهم . فقام جعفر ، فوقف وراء ستر شعر أبيض من ورائه ، فطلع بعبدالله بن الحسن وإبراهيم بن الحسن وجميع أهلهم ، كل واحد

منهم معادله مُسْوَّد[١] فلما نظر إليهم جعفر ، هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ، ثم أقبل عليّ فقال: «يا أبا عبدالله، والله لا تحفظ لله حرمة بعد هؤلاء ، والله ما وفت الأنصار ولا أبناء الأنصار لرسول الله ﷺ بما أعطوه من البيعة على العقبة»[٢].

ونال حقد المنصور من الإمام الصادق نفسه ؛ بل انفلت عداؤه ، وحدث ما كان يخشاه الإمام ، فكلّم الإمام بكلام غليظ ونهره وقال: يا جعفر ، قد علمت بفعل محمّد بن عبدالله الذي تسمّونه النفس الزكية ، وما نزل به ، وإنما انتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فألحق الصغير بالكبير[٣] .

وعن علي بن عمر بن علي قال: سمعته ـ أي الإمام الصادق ـ حين أمره أبو جعفر أن يسير إلى الربذة فقال: «يا علي... سر معي» فسرت معه إلى الربذة ، فدخل على أبي جعفر ، وقمت أنتظره ، فخرج عليّ جعفر وعيناه تذرفان ، فقال لي: يا علي ما لقيت من ابن الخبيثة ، والله لا أمضي ، ثم قال: رحم الله ابني هند ، إنهما إن كانا لصابرين كريمين . والله لقد قضيا ولم يصبهما دنس...[٤] .

ونحن إذا نظرنا في التاريخ لرأينا أنّ سنّة معاوية وسياسة الحجاج باقيتان متأصلتان في الملك رغم التحول السياسي . فالمنصور بعد مذبحة أحجار الزيت التي استشهد فيها محمّد النفس الزكية ، ومذبحة باخمرى التي

---

(١) أي أنّ لكل واحد منهم جلس على الجهة الأُخرى من محمله شخص من العباسيين أو أنصارهم الذين يلبسون السواد شعاراً لهم ـ للمعادلة في حفظ استقرار المحمل ـ .

(٢) تاريخ الطبري ج٩ ص١٩٤، ومقاتل الطالبيين ص٢١٩.

(٣) نور الأبصار ص٢٩٧ .

(٤) مقاتل الطالبيين: ص ١٧٠ .

استشهد فيها أخوه إبراهيم يقول لجلسائه: تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان. فقام المسيّب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلّفنا عنه، والله ما خلق على جديد الأرض خلقاً أعز علينا من نبينا ﷺ وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك، فهل نصحناك أم لا؟ فقال له المنصور: أجلس لا جلست[1].

قال الأصمعي: أحضر يوماً إلى أبي جعفر هريسة الفستق، ومعها مصارين الدجاج محشوة بشحم البط والسكر ودهن الفستق. فقال: إن إبراهيم ومحمد أرادا أن يسبقاني إلى هذا، فسبقتهما إليه.

وذكر أيضاً أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر، فاستطابها فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه[2].

لقد كان الإمام الصادق يقول: «إن الله أخبر نبيه بما يلقى أهل بيت محمّد وأهل مودتهم وشيعتهم» والأخبار هذا اشتملت عليه علوم الإمامة التي وصلت إلى الإمام الصادق بالوصاية والنص.

وقد كان الإمام علي وارث علم محمّد وسلاحه، وهما مع الإمامة ومن علاماتها أنّ من صار إليه السلاح أوتي الإمامة، للدلالة على الأهلية بالخلافة عن الرسول في الرئاسة الدينية والزعامة الروحية. كذلك درعه ﷺ ولامته ومغفرته. ولذلك كان الادعاء بحيازة عبدالله بن الحسن لهذا السيف من ضروب الدعاوى لهم كقضية التشبه بالمهدي، ونفى الإمام الصادق ذلك قائلاً: «... ما رآه عبدالله بعينيه، ولا بواحدة من عينيه، ولا رآه أبوه. اللهم إلّا أن يكون رآه

---

(١) مروج الذهب ج٣ ص٢٩٨.

(٢) مروج الذهب: ج٣ ص٣٠٩.

عند علي بن الحسين عليه السلام... إن عندي لسيف رسول الله، وإن عندي لراية رسول الله ودرعه ولامته ومغفرته»(١).

وخلاصة القول، فإنّ موقف الإمام الصادق من الحكّام الظالمين هو الموقف الذي يثير في نفوس الحكام المخاوف، ويخلق لهم المصاعب من خلال بناء النفوس والأفكار على قيم العدل وشجب الباطل والفساد، والعمل على تحقيق علاقات في التعامل بين الأفراد تسودها روح المحبة والإخاء وعزّة النفس والإباء. دخل عليه رجل فقال: يا ابن رسول الله أخبرني بمكارم الأخلاق؟ فقال عليه السلام: «هي العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك»(٢).

وقال يوماً لأصحابه:

«إنّا لنحبّ من كان عاقلاً فهماً حليماً مدارياً صبوراً صدوقاً وفيّاً، إن الله عزّ وجلّ خصّ الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كان فيه، فليحمد الله على ذلك. ومن لم تكن فيه فليتضرّع إلى الله عزّ وجلّ وليسأله إياها»(٣).

وقال غير مرة: «ما قدّست أمة لم تأخذ لضعيفها من قويها بحقّه»(٤).

وقال عليه السلام: «اتقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون» فيسعى عليه السلام إلى تحقيق العدل في السلوك والتعامل والتزام العباد أولاً فيما بينهم بذلك؛ لأن الإصلاح بالأقوال والمواعظ الخلقية والاجتماعية لا تحقق أثرها، إلّا إذا كانت الأعمال مظاهرها. فوضع العمل الصالح والعدل والخلق الطيب قواعد

(١) انظر إرشاد المفيد ج٢ ص١٨٧ باختلاف يسير، واحتجاج الطبرسي ج٢ ص٣٧١ـ ٣٧٢.
(٢) بحار الأنوار ج٦٦ ص٣٦٨ ح٦.
(٣) بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٤٥ ح٥٦.
(٤) الكافي ج٥ ص٥٦ ح٢.

لدعوته في مكافحة الظلم بكافة أنواعه والوقوف إلى جانب المظلومين، ليظهر بذلك خطأ أُولئك الذين اغتصبوا حقوق الأمة وترأسوا عليها، وقد انحرفوا كل الانحراف عن مبادئ الإسلام وتعاليمه[١].

ولقد أراد بعض أصحابه ـ كما ذكرنا في أول هذا الجزء ـ حمله على إعلان الثورة، وذكروا له أنّ مائة ألف يضربون بين يديه. فرفض؛ لأنه يعوّل على دعوته في هزّ أركان الظالمين، ويرى مواصلة الجهاد بالطرق التي تضمن سلامة المجتمع وحماية أبناء الأُمة الإسلامية من الملوك الذين لا تخف شهوتهم للدماء، ولا يفتر ظلمهم للرعية وانتهاك الحرمات وسلب الأموال والحقوق.

لقد كان ﷺ يولي العدل أهمية كبرى، ويسعى إلى فضح سيرة الملوك الذين تسلّطوا على رقاب الأمة وأعوانهم الظلمة، ويكشف حقيقة حكمهم وواقع نظامهم الذي تلبّس بالإسلام وتستر بشعاراته. فعندما تمرّ الأيام وتحدث في بعض النفوس الصحوة ممن ارتضت إقرار الظلم ومساعدة الجبارين، يجعل الإمام ضمان حقوق الأُمة ومعالجة ما لحق بها من الظلم هو الأصل في السلامة والعودة إلى جادة الدين. فقد جاءه رجل ممن عمل للأُمويين، وكان في معاونة الحجاج، فقال للإمام ﷺ: إني لم أزل والياً منذ زمن الحجاج إلى يومنا هذا، فهل لي من توبة؟ فسكت الإمام ﷺ. ثم أعاد الرجل عليه الرجل، فقال ﷺ: «لا، حتى تؤدّي إلى كل ذي حق حقه»[٢].

والذين شاركوا في سلب أموال المسلمين، كانوا لا يجدون من الإمام

(١) انظر الإمام الصادق الدعوة الصامتة الجزء الرابع من هذا الكتاب ص ٧٣ ـ ٨٥.

(٢) انظر الفصول المهمة للحر العاملي باب جهاد النفس ج٢ ص ٢٢٣ ح٢.

الصادق ﷺ ذلك التسامح الذي يظهره غير أهل البيت ﷺ في إبقاء الصبغة الدينية على حكم الظلمة والفساق ، وهو تسامح على حساب العقيدة والأحكام ليكون إزهاق الأرواح تأويلاً ، وسلب الأموال وانتهاك حرمات المسلمين اجتهاداً . ولكنها عند الإمام الصادق حفظ الدين ، وصون الحقوق والمصالح ، والحكم بما أمر الله ورسوله . سئل ﷺ عن رجل أصاب مالاً من عمّال بني أمية وهو يتصدق منه ويصل قرابته ويحج ليغفر له ما اكتسب ويقول: إن الحسنات يذهبن السيئات . فقال الإمام ﷺ: «**إن الخطيئة لا تكفّر الخطيئة ، وإن الحسنة تحطّ الخطيئة**»[1] . فقيّد الإمام الصادق الفعل الذي يعين على التوبة بالحسنة ، وأن يكون خالصاً ليس من جنس أموال الظلمة وأعمالهم ، وأن بالطيب من الأفعال تحط الخطيئة . فكل ما يتصل بحال السلطان الظالم الغشوم وواقع ملكه قائم على غير هدى الإسلام وتعاليمه ، فلا يمت إلى عمل الخير بصلة ، ولا يحصل من الاتصال به حسنة تنال من الله القبول وتمحى بها السيئات .

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص٢٣٦ ح١ .

رُؤَسَاءُ المَذَاهِبِ

الإمام مالك بن أنس

ونعود إلى الحديث عن المذاهب الأربعة ورؤسائها . ونبدأ في البحث عن حياة الإمام مالك بن أنس .

وتختلف المصادر في سنة ولادته ، ولم تقطع كتب المناقب بصحة أحدها ، فظل الاختلاف في سنة مولده كالاختلاف في مدة حمله . فقيل إنه ولد سنة (٩٠ هـ)، وقيل سنة (٩٣ هـ)، وقيل سنة (٩٤ ، أو ٩٥ ، أو ٩٦ هـ) في المدينة المنورة . كما قيل في مدة بقائه في بطن أمه: سنتين ، أو ثلاث ، أو أربع . وقد تناولنا ذلك في القسم السابق من حياة مالك الذي تضمنه الجزء الثاني من الكتاب .

من هو مالك؟

هو أبو عبدالله بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر بن الحارث بن عثمان بن عمر بن الحارث ، وهو ذو أصبح من حمير بن سبأ وهي قبيلة يمنية ، وأمه أزدية وهي العالية بنت شريك[1] .

وطعن في صحة هذا النسب ، فقال محمد بن إسحاق: إن مالكاً وأباه وجده وأعمامه موالي لبني تيم بن مرة[2] .

وقد ادعى أنّ حصول هذه الشبهة في نسب مالك وعدم كونه عربياً أنّ مالك

---

(١) وقيل الغالية بالغين المعجمة .

(٢) الانتقاء لابن عبدالبر ص١١ .

ابن أبي عامر قدم المدينة متظلماً من بعض ولاة اليمن ، فمال إلى بعض بني تيم بن مُرّة فعاقده ، وصار معهم . ويلزم من ذلك أنه حليف ليصرف معنى المولى إلى المناصرة .

وليس الطعن مقتصراً على ابن إسحاق ، فإن ابن شهاب أُستاذ مالك حدّث عن أبي سهيل نافع بن مالك ـ عم مالك بن أنس ـ فقال: حدثني نافع بن مالك مولى التيميين .

كما يروي ابن عبدالبر البخاري بسند عن نافع بن مالك بن أبي عامر قال: قال لي عبدالرحمن بن عثمان بن عبيدالله وهو ابن أخي طلحة: هل لك إلى ما دعانا إليه غيرك فأبينا عليه ، أن يكون هدمنا هدمك ودمنا دمك ترثنا ونرثك؟ وينسب هذا إلى الربيع بن مالك ـ عم مالك ـ أيضاً ـ .

وكما طعن في أبي مالك وعدم صحة عروبته ; فكذلك الحال في أمه العالية ، وقيل إنها طليحة مولاة عبيدالله بن معمر . حكاه القاضي عياض[١] وابن عائشة . وقال ابن عمران التيمي: ما بيننا وبينه نسب ، إلا أن أمه مولاة لعمي عثمان بن عبدالله[٢] .

وقد أثرت هذه الأقوال على مالك ، وكانت السبب في تكذيب مالك لمحمّد بن إسحاق وطعنه عليه[٣] .

ولما بلغ مالك قول ابن شهاب قال: ليته لم يروِ عنه شيئاً[٤] .

---

(١) تزيين الممالك في مناقب الإمام مالك للسيوطي ص٤.

(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ص١٧.

(٣) الانتقاء ص١١.

(٤) الديباج المذهب ص٥٦.

عصر مالك وعلمه

قلنا فيما مرّ من الأجزاء السابقة : إنّ النزاعات الفقهية والمشكلات التي طرأت كانت سبباً في ظهور الأسماء ، وتغلّب جماعة دون أُخرى . وقد كان النزاع بين أهل العراق وبين أهل الحجاز سبباً في ظهور مدرسة الرأي ومدرسة الحديث ، وتزعُّم أبي حنيفة للأولى ، وتزعُّم مالك للثانية . وكانت مصالح الحكّام قد اقتضت أن تقف إلى جانب أبي حنيفة ، وتشدّ أزر أصحابه ، وتقدّم الموالي لتحط من قيمة العرب . ثم اقتضت أن توجّه الأنظار إلى مالك وتتبناه وتجعل منه إمام الدولة المطاع .

ثم لعب الغلوّ دوره في تعزيز اتجاه كلٍ من الطرفين؛ فوضعت الأحاديث والمنامات على لسان النبي محمد ﷺ كما في حديث: يكون في أُمتي رجل اسمه النعمان وكنيته أبو حنيفة هو سراج أُمتي ؛ هو سراج أُمتي ، هو سراج أُمتي[1] . وغالطوا الحقائق فقالوا: إن أهل الكوفة كلهم موالي لأبي حنيفة ـ أي عبيد ـ فأعتقهم[2] . يريدون نفي حقيقة أن أبا حنيفة كان مولى لبيت من بيوت الكوفة وكان لهم ولاؤه .

وقد دخل التعصب في إطار الأشخاص وتقديس الرؤساء؛ لأنّ الأحوال أدّت إلى اصطناع المذاهب وتعيين الرؤساء ، وراح الناس في ظل التنازع والتعصب يتحمون بالطائفة التي شبّوا في أفيائها وعاشوا بأوساطها ، وقد لجأ المالكية إلى حديث عالم المدينة ، فإن كان صحيحاً ، فأين ذهب عن مالك

---

(١) جامع مسانيد أبي حنيفة ج١ ص١٥.

(٢) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص١٧٤.

في حينها ليحتج به لنفسه؟ وذلك أول ما يتبادر ، لأن عموم حديث مالك وغاية جهده أن يجعل موقع المدينة ومنزلتها الشرعية في المكان الأول ، وعمل أهل المدينة متبعاً بحكم تشرفها بهجرة الرسول محمّد وهبوط الوحي ، ومكانة المدينة تجيب عليها السرائر وتعبّر عنها المشاعر قبل أن تنص عليها الأقوال والأفعال ، إلاّ أنها جعلت في صيغة يلتمس بها الظفر والفلج في وجوه وموارد هي من التصرف والسلوك ، وليس من مضامين العلم أو أغراض الشريعة المحضة .

لقد جعلوا من الحديث النبوي معتمداً في ترجيح المذهب المالكي من خلال ترجيح شخصية مالك وانطباقه عليه وحده ، وهو أنّه ﷺ قال: يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم . وفي رواية: يلتمسون العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم . وفي رواية: أفقه من عالم المدينة . وفي رواية: من عالم بالمدينة . وفي بعضها: آباط الإبل ، مكان: أكباد الإبل . وقد رواه البخاري عن ابن جريج موقوفاً على أبي هريرة، ومحمد بن عبدالله الأنصاري عن ابن جريج، ورواه أيضاً المقبري عن أبي هريرة: لا تنقضي الساعة حتى يضرب أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة يطلبون علمه . وخرجه النسائي مرفوعاً إلى أبي هريرة: يضربون أكباد الإبل ويطلبون العلم ولا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة . وروي عن أبي موسى الأشعري بلفظ: يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم ، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة . إلى آخر الروايات التي ذكرها كتاب المناقب كابن فرحون[1] .

وقد قلنا في القسم الأول ، إنّ الحديث لا يخلو من خدشة في السند ، فإن أبا الزبير ـ وهو أحد رواة هذا الحديث ـ قد تكلموا فيه وطعنوا .

(١) الديباج المذهب ص١٩ ـ ٥٣ .

كما أنّ صرف الحديث إلى إرادة مالك دون غيره يبقى ضعيفاً ولا يتجه . لأنّ الحديث يراد به المنزلة العلمية للمدينة أولاً ، ولرجل العلم فيها ثانياً الذي عيّن بصفات عامة تدور مع حركتها العلمية ومنزلتها ، ولا يتمكن شيوخ المالكية من نفي ذلك وهم يسوقون الحديث ، فابن فرحون يذكر تأويل محمّد بن إسحاق المخزومي: ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة ،كان بها أو بغيرها ، فيكون على هذا سعيد بن المسيب ـ كما يرى ـ لأنه النهاية في وقته . ثم من بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالك ، ثم بعدهم مالك ، ثم بعده من قام بعلمه وكان أعلم أصحابه بمذهبه ، ثم هكذا ، ما دام للعلم طالب ولمذهب أهل المدينة إمام ، ويجوز على هذا أن يقال هو ابن شهاب في وقته ، والعمري في وقته ، ومالك في وقته .

وتعلّق المالكية بدار الهجرة وشهادة السلف . قال القاضي عبدالوهاب: لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب ، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة فيقول هو إمامي .ونحن نقول إنه صاحبنا بشهادة السلف له ، وبأنه إذا أطلق بين العلماء قال عالم المدينة وإمام دار الهجرة فالمراد به مالك دون غيره من علمائها ، وقال القاضي عياض: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث من ثلاثة أوجه ، الأول: تأويل السلف أن المراد به مالك ، وما كانوا ليقولوا ذلك إلّا عن تحقيق . الثاني: شهادة السلف الصالح له وإجماعهم على تقديمه يظهر أنه المراد إذا لم تحصل الأوصاف التي فيه لغيره ولا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه . الثالث: ما نبه عليه بعض الشيوخ أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها إلى عالم ، ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك(١) .

---

(١) شرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٤.

وقد ذكرنا طائفة من العلماء في ذلك الوقت هم من شيوخ مالك وأعلم منه[1] كربيعة الرأي بن أبي عبدالرحمن ، والذي أراده العباسيون في مطلع دولتهم أن يدلي بدلوه بين الدلاء في تعضيد دولتهم وخدمتهم . ويروي مالك عن سيرة أُستاذه: لما قدم ربيعة بن أبي عبدالرحمن على أمير المؤمنين أبي العباس أمر له بجائزة ، فأبى أن يقبلها ، فأعطاه خمسة آلاف درهم يشتري بها جارية حين أبى أن يقبلها ، فأبى أن يقبلها . قال ابن وهب: وحدثني مالك عن ربيعة قال: قال لي حين أراد الخروج إلى العراق: إن سمعت أني حدثتهم شيئاً أو أفتيتهم ، فلا تعدّني شيئاً . قال: فكان كما قال ، لما قدمها لزم بيته فلم يخرج إليهم ولم يحدّثهم بشيء حتى رجع[2]... ولا بد أن روايته عن سيرة أُستاذه جاءت عقب وفاة ربيعة ، ومالك لم يتحول بعد إلى صف العباسيين ويتخلى عن ميوله وعواطفه السابقة التي تشده إلى الأُمويين وتجعله يتغاضى عن جرائمهم وما فعلوا بالحرمين وما ارتكبوا من مجازر بحق أهل المدينة ، فهو يبني تفوقه ويرجح نفسه بانتسابه إلى المدينة ، ويرى أن ينقاد غيره إليه كما يقول في رسالته إلى الليث بن سعد[3]:

اعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة ، مخالفة لما عليه الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه ، وأنت في أمانتك وفضلك ، ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن

---

(١) انظر الجزء الثاني من الكتاب ص٢٣٥.

(٢) تاريخ بغداد ج٦ ص٤٢٥.

(٣) أبو الحرث ـ الحارث ـ ابن عبدالرحمن الفهمي من أصبهان ولد بمصر سنة أربع وستين روى عن الزهري وعطاء ونافع كانت له حظوة وتخضع القضاة لأوامره فكان إذا رابه من أحد شيء كاتبه فيه فيعزل وفي الشذرات أن المنصور أراده لولاية مصر فأبى وتولى قضاءها.

تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه ، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿والسابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأَنصارِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وأُحِلَّ الحلال وحُرِّم الحرام... إلى آخر رسالته[1] .

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي[2] . فصلّى خلف مالك ، ووضع رداءه بين يدي الصف ، فلما سلّم الإمام رمقه الناس بأبصارهم ، فقال مالك: مَن هُنا من الحرس؟ فجاءه نفسان . فقال: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه ، فحُبس ، فقيل له: إنه ابن مهدي . فوجه إليه وحضر عنده فقال له: أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وأشغلت المصلين بالنظر إليه ، وأحدثت في مسجدنا شيئاً ما كنا نعرفه ، وقد قال النبي ﷺ: «من أحدث في ديننا شيئاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[3] .

ويروي كتاب مناقب مالك ، أنّ أُمه قالت له: إذهب إلى ربيعة ، فتعلّم من أدبه قبل علمه . قال مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب[4] فألقى أبي يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخي وأخطأتُ ، فقال لي أبي: ألهتك الحمام عن طلب العلم . فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز[5] سبع سنين . وفي رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمراً وأناوله صبيانه وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول! يريد أن ينفرد بالشيخ ولا يشاركه

---

(١) الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ص١٩٢.

(٢) هو الحافظ عبدالرحمن بن مهدي بن حسان الأزدي مولاهم أبو سعيد البصري اللؤلؤي، روى عن شعبة والثوري ومالك، ولقه أبو حاتم وأحمد، قال القواريري: أملى علينا ابن مهدي عشرين ألفاً من حفظه، كان يحج كل سنة، توفي سنة ١٩٨ هـ.

(٣) الاعتصام ج٢ ص٦٨، والمدارك ص ١٣٠.

(٤) و (٥) انظر ترجمتهما في الجزء الثاني ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

أحد بمجلسه ، ولا بد أن الصبيان قالوا بما أراد لهم أن يقولوا .

ويذكر مالك مدة اختلافه إلى ابن هرمز ثلاثين سنة ، فيشير إلى المدة دون ذكر ابن هرمز كما أراد ، والناس تعرف منه الإشارة .

كذلك أخذ مالك عن نافع مولى ابن عمر ، وقال: كنت آتي نافعاً نصف النهار وما تظلني الشجر من الشمس ، أتحيّن خروجه ، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أره ، ثم أتعرض له فأُسلّم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني ، ثم أحبس عنه ، وكان فيه حدّة ، وكنت آتي ابن هرمز من بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل[1] .

والقصد أنّ مالكاً أراد أن يتهيّأ للفتيا ، وأن يتأهل للحديث . ولكن موهبة الحفظ والذاكرة عنده كانت أظهر من غيرها ، فيروي أنه قال: حدثني ابن شهاب أربعين حديثاً ونيفاً فيها حديث السقيفة ، فحفظت ، ثم قلت: أعدها علي فإني نسيت النيف . فأبى ، فقلت: أما كنت تحب أن يعاد عليك؟ قال: بلى . فأعاد ، فإذا هو كما حفظت . واشتهر عنه ذلك وكان من أخص صفاته . يقول سفيان بن عيينة: دارت مسألة في مجلس ربيعة . فتكلم فيها ربيعة . فقال مالك: ما تقول يا أبا عثمان؟ فقال ربيعة: أقول فلا تقول ، وأقول إذ لا تقول ، وأقول فلا تفقه ما أقول . ومالك ساكت ، فلم يجب بشيء وانصرف[2] .

وأخرج الخطيب عن إبراهيم المزني قال: حججت سنة ، فأتيت المدينة ، فحدثني إسماعيل بن جعفر الخياط فقال: نزلت بي مسألة ، فأتيت مالكاً فسألته فقال: انصرف حتى أنظر في مسألتك . فانصرفت وأنا متهاون بعلمه ،

---

(١) الديباج المذهب ص٦٣.

(٢) الديباج المذهب ص٢٦.

وقلت: هذا الذي تضرب إليه المطي لم يحسن مسألتي . فأتاني آت في منامي فقال: أنت المتهاون بعلم مالك ، أما إنه لو نزل بمالك أدق من الشعر ، وأصلب من الصخر ، لقوي عليه باستعانته عليه بما شاء الله لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم(١) .

وقد لجأ مالك إلى المنامات بنفسه ، فكان يقول: ما بتُّ ليلة إلّا رأيت رسول الله ﷺ(٢) . وعن خلف بن عمر: دخلت على مالك فقال لي: انظر ماترى تحت مصلاي . فنظرت فإذا أنا بكتاب ، قال: اقرأه . فإذا فيه رؤيا رآها له بعض إخوانه . فقال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجده قد اجتمع الناس عليه ، فقال لهم: إني قد خبأت لكم طيباً وعلماً ، وأمرت مالكاً أن يفرقه على الناس . فانصرف الناس وهم يقولون: إذن ينفذ مالك ما أمره رسول الله ﷺ ، ثم بكى ، فقمت عنه(٣) .

وقال محمد بن رمح ، حججت مع أبي وأنا صبي لم أبلغ الحلم ، فنمت في مسجد النبي ﷺ بين القبر والمنبر ، فرأيت النبي ﷺ قد خرج من القبر متكئاً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فسلّمت عليهم ، فردوا عليّ السلام ، فقلت: يا رسول الله ، أين أنت ذاهب؟ فقال أُقيم لمالك الصراط المستقيم . فانتبهت ، فأتيت أنا وأبي مالكاً ، فوجدنا الناس مجتمعين عليه ، وقد أخرج لهم الموطأ أول ما خرج(٤) .

وقال محمّد بن رمح أيضاً: رأيت النبي ﷺ في المنام منذ أربعين سنة

---

(١) مناقب مالك للسيوطي ص١٢.

(٢) حلية الأولياء ج٦ ص٣١٧.

(٣) مناقب مالك ص٨ حلية الأولياء ج٦ ص٣١٧

(٤) مناقب مالك لعيسى بن مسعود الزواوي: ص١٧ .

فقلت: يا رسول الله، مالك والليث يختلفان في المسألة؟ فقال النبي ﷺ: مالك مالك ورث جدّي يعني إبراهيم[١].

وقال بشير بن أبي بكر: رأيت في النوم أني دخلت الجنة، فرأيت الأوزاعي وسفيان الثوري، ولم أرَ مالك بن أنس. فقلت أين مالك؟ قالوا: وأين مالك؟ رفع مالك رفع مالك. فما زال يقول: وأين مالك، وأين مالك، رفع مالك حتى تسقط قلنسوته[٢].

وروى أبو نعيم عن إبراهيم بن عبدالله وقول إسماعيل بن مزاحم المروزي قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس[٣].

وعن مصعب بن عبدالله الزبيري قال: سمعت رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فقال: أيّكم مالك؟ فقالوا: هذا. فسلّم عليه، واعتنقه، وضمه إلى صدره وقال: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ البارحة جالساً في هذا الموضع، فقال: ائتوا بمالك. فأُتي بك ترعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبدالله. وكنّاك وقال: اجلس. فجلست. قال: افتح حجرك. ففتحته، فملأه مسكاً منثوراً، وقال: ضمه إليك، وبثّه في أُمتي. قال: فبكى مالك وقال: الرؤيا تسر ولا تغر وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله[٤].

ويطول بنا المقام لو أحصينا الرؤى والمنامات وما تفيض به الأحلام. وقد أوردنا بعضاً مما كان على عهد مالك نفسه، وبذلك أصبح من حقهم أن يعتمدوا المنامات ركناً، وليجأوا إليها فيما يريدون ترجيحه وشيوعه،

---

(١) الجرح والتعديل ج١ ص٢٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حلية الأولياء: ج٦ ص٣١٧.

(٤) الانتقاء ص٣٩، وشرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٤.

وخلاصة القول : إن مالكاً عرف بالحفظ والذاكرة ، فاتجه إلى المنحى الذي يتفق مع موهبته ، ثم ظهر منه كراهيته للسؤال ، فمال إلى استخدام سلاح الاتهام بالبدعة . وغالباً ما يظن بالسائل أنه يريد المغالطة . ويقوم برده بهذه الآية: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ والحال يقتضي التهيؤ للمناظرة . والإقبال على الحوار؛ لأن الفترة قد شهدت بوادر اتساع الأقوال في الصفات وإثباتها أو تعطيلها ، وليس من الحكمة في شيء الزجر دون اقناع ، أو التعنيف وترك الحجاج ، ممّا يترك في نفس السائل الحيرة ، أو يؤكد في عقله الميل ومن ثم الانجراف .

يروي حفص بن عبدالله قال: كنّا عند مالك ، فجاء رجل ، فقال: يا أبا عبدالله، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وأظنك صاحب بدعة . وأمر به ، فأُخرج[1] .

والجواب بلا أدري أهون بكثير حتى وإن بات قاعدة يورثها مجلسه ، فلا عيب في ذلك : لأنّ السائل يتحرى عند غيره الإجابة ، وهو المعروف عن مالك أيضاً ، فعن الهيثم بن جميل قال: شهدت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة ، فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري . وغالباً ما يلجأ إلى (لا أدري) فعن ابن وهب أنه قال: لو شئت أن أملأ ألواحاً من قول مالك: (لا أدري) فعلت[2] .

ومن علماء المالكية من يتعجب من قول لا أدري[3].

* * *

(١) حلية الأولياء ج٦ ص٣٢٥.

(٢) المناقب للسيوطي ص١٢ وص١٦، وحلية الأولياء ج٦ ص٣٢٣.

(٣) انظر الجزء الثاني من هذا الكتاب ص٢٤٢.

إن عصر مالك كان من أكثر العصور إزدهاراً ، وقد أصبحت المدينة موطناً للعلم وموئلاً لطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية ، وامتازت بالتمسك بالحديث في مقابلة العراقيين وامتيازهم بالرأي والقياس ، وعظم العداء بين البلدين ، وأدى إلى اتهامات وخصومات ابتعدت كثيراً عن العلم .

كان أبو سعيد الرأي يماري أهل الكوفة ، ويفضّل أهل المدينة ، فجاءه رجل من أهل الكوفة واسمه شرشير وقالوا كلب في جهنم يسمى شرشيراً فقال :

عندي مسائل لا شرشير يعرفها … إن سيل عنها ولا أصحاب شرشير
وليس يعلم هذا الدين يعلمه … إلّا حنيفية كوفية الزور
لا تسألن مدينياً فتكفره … إلّا عن اليم والمثنى والزير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة: إنكم قد هُجيتم ، فردّوا . فرد عليه رجل من أهل المدينة يقول :

لقد عجبت لغا وساقه قدر … وكل أمر إذا ما جمّ مقدور
قالوا المدينة أرض لا يكون بها … إلّا الغناء وإلّا اليم والزير
لقد كذبت لعمر الله إن بنا … قبر النبي وخير الناس مقبور[1]

أمّا في المدينة ، فكان مالك بمنزلته يوجه الناس ضد أهل العراق ، وكان يقول لرجل من أهل الكوفة: لم يأخذ أوّلونا عن أوّليكم ، فكذلك لا يأخذ آخرونا عن آخريكم . ووصفها مالك بدار الضرب ، فقال: هي دار الضرب ، يضربون بالليل ما ينفقون . وكان ينسب إلى ربيعة القول: ما رأيت عراقياً تام العقل .

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص٤٠٨ .

ونسب إلى أحد علماء المدينة قوله: كأن النبي الذي بعث إلينا غير النبي الذي بعث إليهم .

وكان يقال بالمدينة: أتركوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب ، فلا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم[1] .

وفي وسط هذه المنازعات والخصومات التي استباحت الكثير من عصم الإيمان وروابط العقيدة ،كانت مدرسة الإمام الصادق تفيض بإشراقها من علم أهل بيت النبوة ، وتغني بإلهامها عقول العلماء ؛ فكان الإمام الصادق محيطاً بموارد النزاع وعارفاً بوجوه الخلاف بصورها على المسائل والآراء ، وصبغتها التي مضت عليها في المجالس والحلقات . ويجري علمه في أوساط الأُمة بأُصوله من الكتاب وأدلته من السنّة ، بشمول لا يتهيأ لبشر ، ودراية يعجز عنها غيره ، فكان أفقه الناس وأعلم أهل زمانه .

وكان أبو جعفر المنصور أول ما أراد أن يجعل أبا حنيفة وسيلته في التأثير على مكانة الإمام الصادق في النفوس والنيل من منزلته العلمية ، وذلك قبل أن يتحول إلى الإمام مالك .

قال الحسن بن زياد اللؤلؤي: سمعت أبا حنيفة ـ وسئل من أفقه من رأيت ـ ؟ قال: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق ، لمّا أقدمه المنصور بعث إلي فقال: يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمّد ، فهيء له من المسائل الشداد ، فهيأت له أربعين مسألة . ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة ، فأتيته ، فدخلت عليه ، وجعفر بن محمّد جالس عن يمينه ؛ فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمّد الصادق ما لم يدخلني لأبي

---

(١) مناقب الزواوي ص٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ .

جعفر ، فسلّمت عليه ، وأومأ إلي فجلست ، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة . فقال: «نعم» ثم أتبعها: قد أتانا ، كأنه كره ما يقول فيه قوم أنه إذا رأى الرجل عرفه ، ثم التفت إلي فقال: يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبدالله من مسائلك . فجعلت ألقي عليه ، فيجيبني فيقول: «أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا» فربما تابعنا ، وربما تابعهم ، وربما خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على الأربعين مسألة ، ما أخل منها بمسألة . ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس...[1] .

وممّا علم من منهج الإمام الصادق ومنطق قوله ، فإن تفسير الكتاب عنده ليس بالأخذ من الغير ، والحديث هو بإسناد آبائه الطيبين . فمن المؤكد هنا أن المسائل التي كانت عدة السلطان أبي جعفر وسلاحه في مواجهة الإمام الصادق كان يعرضها الإمام الصادق على مصادره وأُصوله ويناقشها ، فما وافق منها حسبه أبو حنيفة متابعةً ، وليس الأمر كذلك؛ لأنّ الإمام الصادق في علمه لا يتبع إلّا القرآن وسنّة النبي والأئمة من أهل بيته ، أما المخالفة فأمرها معروف .

وكما رأينا فإنّ مالكاً كان من طلاب مدرسة الإمام الصادق ومن تلاميذه. قال مالك عن صلته بالإمام الصادق: جعفر بن محمداختلفت إليه زماناً ، فما كنت أراه إلّا على إحدى ثلاث خصال: إما مُصَلّ ، وأما صائم ، وإما يقرأ القرآن[2] .

وقوله: ما رأت عين ، ولا سمعت أذن ، ولا خطر على قلب بشر أفضل من

---

(١) المناقب للموفق المكي ج١ ص١٧٣، وسير أعلام النبلاء ج٦ ص٢٥٦ .

(٢) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٠٤.

جعفر بن محمّد الصادق علماً وعبادة وورعاً[1] وقال مالك: لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة[2] والتبسّم ، فإذا ذكر عنده النبيﷺ أصفرّ ، وما رأيته يحدّث عن رسول اللهﷺ إلاّ على طهارة ، ولقد اختلفت إليه زماناً ، فماكنت أراه إلاّ على ثلاث خصال: إما مصلّياً أو صائماً وأما يقرأ القرآن . ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعبّاد الذين يخشون الله عزّ وجلّ[3] .

ومن المحدثين كثير يحملهم التقليد والتعصب على إغفال الجوانب المهمة في اختلاف مالك إلى الإمام الصادق والأخذ عنه والرواية له ، ويخال بعضهم كمصطفى الشكعة أن إظهار الصحبة يؤدي إلى المقارنة بينهما بميزان الاستواء والتعادل ، وليس الشكعة أول من يفعل ذلك ، ولا هذه أول النزعات المعلنة ، فقد علمناها منه في كتبه السابقة ، وقد وصلني كتابه «الأئمة الأربعة» فأثار في نفسي تساؤلات كثيرة ، وكلما تصفّحته كثرت الملاحظات وتعدّدت المؤاخذات ، ولو أشرت إلى بعضها لطال بنا الحديث. نرجو الله أن ييسر ويعين لتحرير الردّ عليه ، فقد بنى كتابه في الطعن على الشيعة على أساس الوهم والادعاء الباطل بوجود «التشيع المذهبي» وهي مقولة فُتِنَ بها الناظرون إلى التاريخ بمنظار الهوى ومصطلحات السياسة ، ممن عظم عليهم

---

(١) المجالس السنية للعاملي ج٥، والتوسل والوسيلة لابن تيمية ص٥٢ .

(٢) تروى عند بعض المالكية «كثير المزاح» ولا تستغرب الوصف بالمزاح أو الدعابة لأن عمر بن الخطاب وصف بها الإمام علياً، وكان قوله موضع نظر ورد إلاّ أن يبتدع بها اصطلاحا ويحدث بها مسمى جديداً فيكون معناها التقوى وشدة الالتزام بالدين أو حسن الخلق والمعاشرة فإن كان القصد ظاهر معناها فهي من الفلتات ولا يحمل عليهما إلاّ قصد الإساءة والنيل ودون ذلك عصمة الله ورعايته من دين راسخ وعلم وافر ومنزلة سامية وخصائص عالية هي الغاية في الكمال والنهاية في الرفعة .

(٣) مناقب الزواوي ص٣٣ ـ ٣٤ .

كون التشيع وعاء الإسلام وإطاره ، وأن رجاله وقادته هم سادة العرب وفرسانها رفعهم الله بعزّ الإسلام إلى موكب الدعوة وجيش الولاء لصاحب الرسالة النبي الهادي المصطفى ، ونبذوا حمية الجاهلية ونعرات القبلية ، فأصبحوا دعاة حق وحملة رسالة يتهافتون على الموت في سبيلها .

ومهما كان من أمر الشكعة فهو لا يقوى على إنكار الحقائق الناصعة التي تقود إليها وتنتهي جهوده في البحث عن الأئمة الأربعة فيقول: (ولم يكن مالك وأبو حنيفة وحدهما الآخذين من فيض الإمام جعفر من بين أئمة أهل السنة ، وإنما أخذ عنه واتصل به السفياتان الثوري وابن عينية وشعبة بن الحجاج وغيرهم)[1] .

ومما يقوله الشكعة: لقد تأثر مالك بكثير ممّا في جعفر . تأثر به في الحديث فروى له ، ولقد ضمّن مالك كتابه «الموطأ» عدداً من الأحاديث التي رواها . ولقد تأثر به مالك في أنه لم يجلس ليحدّث حديث رسول الله إلّا وهو على الطهارة . والقصد أنّا أردنا الإشارة إلى كتاب الشكعة ، ونتركه أمل تحرير الردّ عليه وإلحاقه بالمناقشات المجموعة .

وأما تأثر مالك بالإمام الصادق فإنّ مجالاته واسعة ، ولقد استمر المالكية على تعضيد مذهبهم بعد وفاة إمامهم ، معتمدين على حضور مالك عند الإمام الصادق والاستماع إلى حديثه ، وتلقّي تعاليمه في مدرسته ، فسمحوا لأنفسهم أن يتخيلوا أموراً لتكون لهم شهادة تؤيد المذهب ، فادّعوا أن الإمام الصادق أوصى إلى مالك عند وفاته ، ورووا عنه أنه دخل عليه قوم من أهل الكوفة في مرضه الذي توفي فيه ، فسألوه أن ينصّب لهم رجلاً يرجعون إليه في أمر

---

(١) د. مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص٣١٧ مصر ١٩٧٩م .

دينهم ، فقال: عليكم بقول أهل المدينة ، فإنها تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد ، عليكم بآثار من مضى ، فإني أعلمكم أني متبع غير مبتدع ، عليكم بفقه أهل الحجاز ، عليكم بالميمون المعين المبارك في الإسلام ، المتبع آثار رسول الله ﷺ فقد امتحنته فوجدته فقيهاً فاضلاً متبعاً مريداً لا يميل به الهوى ، ولا تزدريه الحاجة ، ولا يروي إلّا عن أهل الفضل من أصحاب رسول الله ﷺ فإن اتبعتموه أخذتم بحظكم من الإسلام ، وإن خالفتموه ضللتم وهلكتم ، ألستم تقولون إني هيئ من العلم غير محتاج إلى أحد من الخلق؟ فإنه قد أخذ عني كل ما يحتاج إليه ، فلا يميل بكم الهوى فتهلكوا ، إني أُحذركم عذاب الله يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم ، أحذركم ، فقد أرشدتكم إلى رجل نصبته لكم ، فإنه أمين ، مولود في زمانه ، قالوا: مَن هو بيّنه لنا؟ قال: ذلك مالك بن أنس ، عليكم بقول مالك . ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني بريء من ظنّهم وتخرصهم ومن رواة السوء منهم ، اللهم إنك تعلم أنه قد قيل عن عيسى بن مريم ما لم يقل ، وروي عن مالك ما لم يكن ، وقيل عن عزيز ما لم يقل ، وروي عنه ما لم يكن ، وقيل عن علي بن أبي طالب ما لم يقل ، وروي عنه ما لم يكن ، فمن روى عنّي ما لم نقل ، فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين[1] .

والرواية صريحة الوضع ، نقلناها كاملة للتدليل على مسلك النزاع والخصام في استحلال الوضع ، والتماس الظفر بالإقرار بالوقائع العلمية للبناء عليها في مورد إنكارها وتجاهلها في مواضعها الأصلية ، لأنها في سياقها حجة

(١) المناقب للزواوي ص ١٠ .

لغيرهم . وصفوة القول ، فإن أصحاب الحديث أرادوا أن يثقلوا موازينهم بهذه المبتدعات حتى اضطرهم الأمر إلى الوضع لإدناء مالك من منزلة الإمام الصادق ، ووضعه في التأهل لاحتلال تلك المنزلة بعد وفاته ، ولتكون له الرئاسة بوصية وعهد من الإمام الصادق ، وذلك من الجهل بمكان فإذا اتسع المجلس لمالك في مجال التلمذة والأخذ العلمي ، فلا تتسع الوصاية له أو لغيره من الناس إلّا من نص عليه في خبر الإمام ، وجاء ذكره في آثار الولاية المحفوظة والمعهودة عند أولياء الأمر من الأئمة الهداة المعصومين .

وكذلك فإن كُتّاب المناقب جعلوا من اسم الإمام الصادق وسيلة لإضفاء القدسية على سيرة مالك كما فعل القاضي عياض بدعواه أنّ الإمام الصادق قال: قيل لمالك اخترت مقامك بالمدينة وتركت الريف والخصب؟ فقال: وكيف لا أختاره وما بالمدينة طريق إلّا سلك عليها رسول الله ﷺ وجبريل ﷺ ينزل عليه من عند رب العالمين في أقل من ساعة[1] . ولا نعلم مناسبة لذلك ولا وجهاً ، والدعوى لا تساعد المالكية في تشبثهم بدار الهجرة؛ لأن الإمام الصادق أعرق أصلاً وعلماً فيها .

وبالجملة فإنا قد اعتمدنا في بيان منازل رؤساء المذاهب على أقوال معاصريهم وأقرانهم من العلماء ، فإن فعلنا لا نجد ما يدل على امتيازه وتفرده بخصائص تؤهله للمرجعية دون غيره ، وقد ذكرنا الكثير منها لتكوين الاطلاع والعلم اللازم للموازنة والمقارنة بين شخصيات رؤساء المذاهب وأئمتها .

---

(١) ترتيب المدارك ج١ ص٥٩.

سئل أحمد بن حنبل عن مالك، فقال: حديث صحيح ورأي ضعيف[1] .

قال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك ، لكن الحظوة لمالك[2] .

قال الشافعي: الليث أفقه من مالك ، إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به .

وفي رواية: الليث أفقه من مالك إلّا أنه ضيعه أصحابه[3] .

وقال سعيد بن أيوب: لو أن الليث ومالكاً اجتمعا ، لكان مالك عند الليث أبكم ، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد[4] وقد أطلعنا ـ سابقاً ـ على بعض رسالة مالك إلى الليث ومنها :

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبيل ، ويتبعون تلك السنن ، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به ، لم أرَ لأحد خلافه للذي في يديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها ، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا ، وهذا الذي مضى عليه من مضى لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ، ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم .

وكان من ردّ الليث على مالك: إن كثيراً من أولئك السابقين الذين عناهم بقول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه . وأن أصحاب رسول الله قد اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة ، ويقول له: (ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب

(١) تاريخ بغداد: ج١٣ ص٤٤٥ .

(٢) شذرات الذهب: ج١ ص٢٨٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الرحمة الغيثية لابن حجر ص٦، وتذكرة الحفاظ ج١ ص٢٠٩ .

رسول الله ﷺ سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة ، ورأسهم يومئذٍ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبدالرحمن ، وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك) مشيراً إلى تلمذته عليهما وحضوره عندهما .

وسأل علي بن المديني يحيى بن سعيد: أيما أحبّ إليك ، رأي مالك أو رأي سفيان؟ قال: رأي سفيان ، لا يُشك في هذا .

وقال: سفيان فوق مالك في كل شيء .

ودخل عليه محمّد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ـ وهو حَدَث ـ فقال: ما تقول في جُنُب لا يجد الماء إلّا في المسجد؟ فقال مالك: لا يدخل الجنب المسجد . قال: فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة وهو يرى الماء؟ قال: فجعل مالك يكرر، لا يدخل الجنب المسجد . فلما أكثر عليه قال له مالك: فما تقول أنت في هذا؟ قال: يتيمم ويدخل فيأخذ الماء من المسجد ويخرج فيغتسل . قال: من أين أنت؟ قال: من أهل هذه ـ وأشار إلى الأرض ـ فقال: ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه . فقال: ما أكثر من لا تعرف؟ ثم نهض . قالوا لمالك: هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . فقال: محمد بن الحسن ، كيف يكذب وقد ذكر أنه من أهل المدينة؟ قالوا: إنما قال من أهل هذه ، وأشار إلى الأرض . قال: هذا أشدّ عليّ من ذلك[1] .

وإذا عدنا إلى الحديث واعتمدنا رأي أحمد بن حنبل بعد أن اطلعنا على وصفه مالكاً بالضعف في الرأي ، فإن أحمد يقول: كان مالك من أثبت

---

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص١٧٤ ـ ١٧٥ .

الناس ، وكان يخطئ[1] .

وهو في جميع الأحوال لا يسلم سنده ولا يخلو طريقه من اختلاف؛ ولذلك يرجح الحفّاظ في كثير من الأحاديث سند غيره كما في حديث «أنا وكافل اليتيم في الجنة . . . الحديث» فرجح أبو زرعة وأبو حاتم سند ابن عيينة على رواية مالك[2] .

وقد اختار مالك حبيب بن أبي حبيب الورّاق كاتباً له ، وهو معروف بالكذب ومتروك . قال ابن حبان : كان يورق بالمدينة على الشيوخ ، ويروي عن الثقات الموضوعات كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم . وقال ابن معين : كان يقرأ على مالك ويتصفّح ورقتين وثلاثاً ، فسألوني عنه بمصر ، فقلت: ليس بشيء . وقد كذّبه أبو داود وآخرون ، وهو متروك إلّا أنّه كان قريباً من مالك ، وجعله وسيلة عرضه للحديث[3] .

مالك بين الأموية والعباسية

لقد اتصف مالك بميول أُموية واضحة ، وقد رأينا أنّه أدرك من العهد الأُموي أربعين سنة ، ومن العهد العباسي أكثر من ذلك . ولا بد أنّ هذه الميول كانت متوارثة في عائلته منذ جدّ أبي مالك ، وهو أبو عامر الذي برز من بيت مالك بسبب دعاوى الصحبة التي ليست بشيء ، ولكن أبرز أعمال جدّ أبي

---

(١) شرح علل الترمذي ج١ ص٤٣٧.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص٨٤٢.

(٣) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٨١، وميزان الاعتدال ج١ ص٢٦٠، والمجروحين لابن حبان ج١ ص٢٦١، وشرح علل الترمذي ج٢ ص٨٣٠.

مالك كونه أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلاً إلى قبره[١] ، وهي رواية يبادر بها أبو عامر قال: كنت أحد حملة عثمان حين قتل ، حملناه على باب ، وان رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به ، وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً ، حتى واريناه في قبره في حش كوكب .

أما الرواية عن عبدالله بن ساعدة فهي: لبث عثمان بعدما قتل ليلتين ، لا يستطيعون دفنه ، ثم حمله أربعة: حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة[٢] . فأين جدّ أبي مالك؟

أما مالك ، فإن حرصه وتوخّيه في الرواية أدياه إلى أن يكون ركيزة لحديث موضوع في معاوية أخذه عن أستاذه نافع ، عن ابن عمر وهو: كنت عند رسول اللهﷺ فأُهدي إليه سفرجلاً ، فأعطى أصحابه واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات وقال: إلقني بهنّ في الجنة .

ويتقلد مالك حديث الوضوء من مسّ الذكر ، وبإسناده مروان وبسرة بنت صفوان وأنها سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ . وبسرة مجهولة لم تكن صحبتها أو مكانتها إلّا من صنع الأمويين وحاشيتهم ، ولكن مالك بن أنس يرى مكانتها في علاقتها بالأُمويين؛ لذا فهي مقبولة عنده وغير مجهولة ، ولا يفيد طعن رجال الحديث في روايتها وقلة صحبتها ـ إن وجدت ـ فيقول مالك: أتدرون من بسرة بنت صفوان؟ هي جدّة عبدالملك بن مروان أُم أُمّه فاعرفوها[٣] فكان إمام المدينة نسي الزرقاء .

---

(١) مناقب السيوطي ص٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج٥ ص١٤٤ .

(٣) كتاب الاعتبار لابن حازم الهمداني ص٤٣ .

ويتبع الأُمويين بميوله ، ويتمنى أن يكون في المدينة مثل عبدالرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ويقول مالك: ليت أن الله زيّن حرمنا بمثله[١] كأن لم يكف ما فعل أسلاف الداخل وأبناء معاوية الأول من جرائم ، وما انتهكوا من حرمات ، حتى كان الرجل من أهل المدينة بعد وقعة الحرة إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول: لعلها قد افتضت في وقعة الحرة[٢] . والمدينة التي يحتج بفضلها مالك ويسعى إلى أن يقتدي به الآخرون لأن فيها الصحابة وهو من أهلها أيضاً ، ختم الحجاج أعناق الصحابة من أهلها كجابر ابن عبدالله الأنصاري وأنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي ليذلّهم .

أمّا رأيه في التفضيل ، فهو من آثار هذه الميول . فهو يرى أن الإمام علياً كسائر الصحابة . روى مصعب ـ وهو أحد تلامذة مالك ـ أنّه سأل مالكاً :

من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: أبو بكر قال: . ثم من؟ قال: عمر . قال: ثم من؟ قال: عثمان . قال: ثم من؟ قال: هنا وقف الناس .

ولكنه أخذ يتردّد في ضمّ عثمان إلى الشيخين لأنّه التحق بركب العباسيين فيما بعد ـ كما سيأتي ـ وسار على ما يسير عليه المنصور في ذلك ، فإنّه لما دخل عليه مالك قال له المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قال مالك: أبو بكر وعمر . فقال المنصور: أصبت ، وهذا رأي أمير المؤمنين ـ يعني نفسه ـ وكانت موافقة مالك للمنصور واتباعه السلطة من المحفزات على اتخاذ مالك عالماً لها .

قال الشيخ أبو زهرة: إنّ مالكاً يخالف بذلك ـ أي التفضيل ـ إمامين آخرين

---

(١) مالك لأمين الخولي ص ٢٠٠ نقلاً عن شرح العيون لابن نباتة.

(٢) الفخري ص١٠٧ .

عاصراه: أحدهما أسنّ منه ومات قبله وهو أبو حنيفة . وثانيهما أصغر منه وهو تلميذه الشافعي . فإنّ أبا حنيفة لا يعد علياً كسائر الناس بل «يرفعه» إلى مرتبة الراشدين من الخلفاء ، ويقدمه في الترتيب على عثمان . والشافعي يعلن محبته لعلي ، ويحكم على خصومه بأنهم بغاة...[١] .

ونحن نقول إنّه خالف إماماً ثالثاً وهو أحمد بن حنبل ، فما كان رأيه كرأي مالك ، بل كان يعدّ علياً من أهل بيت لا يجارون ، ولا يقاس بهم أحد ، وذلك عندما سأله ولده عبدالله: من أفضل الناس؟ قال: أبوبكر وعمر ، وعثمان . ثم سكت ، فقال له فعلي: فقال: يا بني ، علي من أهل بيت لا يقاس بهم أحد . وله كثير من الآراء في تفضيل الإمام علي ،حتى أنه ألف كتاباً في مناقب الإمام علي ، فهو يرى أن ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لعلي[٢] .

ولا يصح اعتبار التفضيل سبباً في تعرضه إلى الأذى على يد جعفر بن سليمان والي المدينة سنة (١٤٦هـ) وإطلاق اسم المحنة على هذه الحادثة التي تعرض بها إلى الأذى ، فقد جرّد من ثيابه ، ومدّت يداه ، وضرب بالسياط حتى انخلعت كتفاه لعدم رضا الطالبيين عن مذهب مالك بهذا الخصوص .

وعلينا أن نقف عند هذه الحادثة؛ لأنّها الفاصل بين الميول الأُموية في حياة مالك والميول العباسية التي ظهرت عليه بما لا ينسجم مع ماضيه . إذ أنّ دخوله في أمر ثورة محمّد النفس الزكية أمر غير متوقع؛ فلذلك لا غرابة في عدم الإجماع على سبب واحد لهذه الحادثة . فإضافة إلى ما ذكرناه من القول

---

(١) مالك: ص ٧٠ .

(٢) مناقب أحمد لابن الجوزي ص ١٦٣ .

في أنّ عدم الرضا من قبل الطالبيين كان سبباً في ذلك لرأي مالك في التفضيل . فهناك قول إنّ السبب هو مجاهرة مالك بمخالفة ابن عباس في جواز نكاح المتعة ، فقيل له في قول ابن عباس فيها ، فقال: كلام غيره فيها أوفق لكتاب الله . وأصرّ على القول بتحريمها ، فطيف به على ثور مشوّهاً ، فكان يرفع القذر عن وجهه ويقول: يا أهل بغداد أنا مالك بن أنس فُعل بي ما ترون لأقول بجواز المتعة[1] .

وهذا بعيد عن الواقع ، لأنّ الحادثة وقعت في المدينة ، وإذا سلّمنا صحة هذا السبب ، فهل أصرّ مالك على رأيه فيما بعد؟ ووافقته الدولة وتخلّت عن رأيها وقربته؟ أم أنه وافق رأيها وتنازل عن إصراره ، وترك ما وافق كتاب الله لما وافق رأيهم ؟

ولا يبعد أن يكون وراء وضع هذه الصور المتعددة أنصار مالك لغرض اشتهاره وتوسيع دائرة ذكره .

ومهما يكن ، فإنّ سبب الحادثة الأقرب ، هو التظاهر بتأييد ثورة محمد النفس الزكية . والرواية كما في الطبري وابن الأثير: أن مالك بن أنس استفتي في الخروج مع محمّد وقيل له: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر . فقال: إنما بايعتم مكرهين وليس على كل مكره يمين . فأسرع الناس إلى محمد ، ولزم مالك بيته[2] . أما ابن عبدالبّر فيروي ـ من بين ما يروي ـ أن أبا جعفر نهى مالكاً عن الحديث «ليس على مستكره طلاق» ثم دسّ إليه من يسأله عنه ، فحدّث به على رؤوس الناس ، فضربه بالسياط[3] .

---

(١) شذرات الذهب ج١ ص ٢٦١ .

(٢) الطبري: ج٦ ص٢٠٦ ـ وابن الأثير ج٥ ص ٢٥١ .

(٣) الانتقاء ص٤٣ ـ ٤٤ .

والفرق بين الروايتين كبير ، فإذا اعتبرنا الثانية ، فإنّ رواية مالك للحديث تأتي من اختصاصه في حفظ الحديث والرواية ، وتشدّده في رواية الحديث الذي يرتأيه ويصحّحه . فهو يجمع لموطئه ، وعامل موهبته هو الحفظ . ويأتي نهي المنصور في ظروف بحثه عن محمد النفس الزكية واستعداد العلويين للثورة .

أما الرواية الأُولى فليس دور مالك في الثورة بهذا الشكل ، فقد علمنا ظروف الثورة والحركة العلوية التي يناهضها مالك ، ومن المبالغة بمكان أن يكون رأي مالك هو سبب إسراع الناس ، وذلك ما ينفرد به الطبري ومن ورائه ابن الأثير .

وخلاصة القول ، أن الحديث الصحيح الذي منع المنصور مالكاً من روايته كان مصداقاً للتحلل من بيعة المنصور . وإنما كان مالك يرويه لكونه حديثاً وليس لغرض يخدم حركة العلويين ، فلما قامت الثورة ، قال مالك بما كان يرويه . وتظاهره بذلك لا يخلو من كراهيته لما فعل العباسيون بالأُمويين . ومن ثم كان انصرافه إلى بيته بانتظار ما سيسفر عنه الأمر . ولو صحّ هذا التأييد فما هو عذره في السكوت عن جرائم أبي جعفر المنصور في بني الحسن ، ودفنهم وهم أحياء ، وقتل النفس الزكية ؟!

والمنصور هو هو من شدّة عدائه وحقده على من يناوئ حكمه ويمالئ أعداءه ، ولو كان هناك ما يشمّ من مالك غير نشاطه اليومي في الرواية التي خشي أثرها المنصور ، لما كان هذا الاعتذار منه لمالك ، وبهذا الشكل الذي يصفه لنا مالك بلسانه: لما دخلت على أبي جعفر ، وقد عهد إليّ أن آتيه في الموسم . قال لي: والله الذي لا إله إلّا هو ما أمرت بالذي كان ، ولا علمته ، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإني أخالك أماناً لهم من

عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة ، فإنهم أسرع الناس إلى الفتن ، وقد أمرت بعد والله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق على قتب ، وأمرت بضيق محبسه ، والاستبلاغ في امتهانه ، ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك[1] .

ولا نكتشف أي إشارة للاتهام أو الاعتذار في سبب معين ، وقول مالك أو روايته يأتي مبيناً لرأي المنصور في مالك ، لا يشوبه غضب متجبر أو ظالم كالمنصور ، بل هو يشعر مالك بأن لوجوده بين أهل المدينة أثراً في التخفيف من نقمته ، أولئك الذين يصفهم المنصور بأنهم أسرع إلى الفتن . والأمر بمقتضى الرواية المالكية لا يعدو رواية الحديث والتظاهر ، وقد يكون من مالك بفتحة ضيقة من وراء بابه ، يرفع بها صوته ، مردّداً ما منعه المنصور من روايته في تلك الظروف ، وبعدها إحكام رتاج الباب حتى انتهاء الأحداث .

ولو كانت هذه الحادثة لعلوية أنزلها الله في قتب مالك ، لكان مصيره بلا شك كمصير الآخرين من الفقهاء والرجال الذين سلط المنصور عليهم نقمته لانحيازهم إلى محمّد النفس الزكية ، وكابن هرمز الذي اختلف إليه مالك ثلاثين سنة للتفقه ـ كما مر بنا ـ وعبدالعزيز بن محمّد الدراوردي ، وعبدالرحمن بن أبي الموالي الذي ضربه المنصور أربعين سوطاً لكي يدله على محمد فلم يدله ، وعبدالله بن عمر بن حفص الذي أخذ أسيراً ، فأتي به المنصور فقال له : أنت الخارج عليّ ؟ قال : لم أجد إلّا ذلك أو الكفر بما أنزل الله على محمد . وعثمان بن محمد بن خالد بن الزبير الذي هرب بعد قتل محمد ،

---

(١) وضوء النبي ﷺ ج١ ص٣٧٣، عن تاريخ المذاهب الإسلامية ص٤١٧، ترتيب المدارك ج١ ص٢٢٩، الأئمة الأربعة للشرباصي ص٨٩

فأتى البصرة فأخذ منها وأتي به المنصور فقال له: هيه يا عثمان ، أنت الخارج عليّ مع محمّد؟ قال: بما بايعته أنا وأنت بمكة ، فوفيت ببيعتي ، وغدرت ببيعتك . قال المنصور: يا ابن اللخناء ، قال: ذاك من قامت عنه الإماء . فأمر به فقتل . وغيرهم كثير .

ولا نريد أن نبرئ المنصور تماماً من بعض الأسباب التي تتعلق برواية الحديث ولا تتعداه ، وهو أمر عابر لم يترك أثراً في نفس المنصور التي تتسم بالحقد ، وإلّا فهناك رواية تبين أن جعفر بن سليمان هو الطرف في منع رواية الحديث ، وقد تصرف بعقلية العباسي الذي ينتمي إلى أسرة لها الحكم والطاعة ، ورواية حديث ليس على مستكره طلاق يؤدّي إلى تبرير نقض إيمان بيعة بني العباس[١] . وقيل له: إنه لا يرى خلافتكم . فضربه سبعين سوطاً ، ومدّت يده حتى انخلعت[٢] .

كما لا نريد أن نظلم مالكاً ، فقد دافع عن الفقهاء الذين يغلي صدر المنصور عليهم بحقده الأسود عندما قال له: ما هذا الذي يبلغنا عنكم معاشر الفقهاء وأنتم أحق الناس بالطاعة ، وأعرفهم بما يلزم من حق الأئمة؟ فقال مالك: فقلت يا أمير المؤمنين إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٣] . فجرى بينهما كلام ومذاكرة ، إلى أن ذكر له مالك أنه لما بعث إليه ليلاً وطلبه خاف منه القتل على نفسه . فقال أبو جعفر: حاشا لله يا أبا عبدالله أن أثلم ركناً للمسلمين ، فإن لم أكن بالذي أبنيه لهم ، فلست بهادمه لهم . ثم عرض عليه

(١) الانتقاء ص ٤٤.

(٢) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٠.

(٣) الحجرات: ٦.

الذهاب معه إلى بغداد[١] .

وبالجملة . فإن كل آراء المنصور في مالك هي آراء حسنة ، ومن ينظر إلى موقف المنصور وثباته إزاء مالك ، يعلم أن «أمر المحنة» ليس كما صوّره الطبري وابن الأثير وغيرهما . وما اختيار المنصور لمالك في أمر الفقهاء إلّا لما عهده من مالك من موافقة في الاعتقادات التي عليها الحكم العباسي ؛ وقد رأينا قول مالك في التفضيل ، وفي عثمان .كما أن من لواحق قول مالك المعروفة ـ والتي تنم عن الأُموية الواضحة ـ وجعله الإمام علياً كسائر الصحابة الآخرين هو قول مالك: وليس من طلب الأمر كمن لم يطلبه . ومحمّد النفس الزكية تتناوله ـ ولا شك ـ هذه القاعدة ، فكل الوجوه في سيرة مالك تنفي الميل العلوي ، وإنما نمو ميل عباسي ليس على بقايا الميل الأُموي ولكن إلى جانبه؛ لأن رأي مالك في الإمام علي متفق مع الولاة والخلفاء[٢] . ومما يلاحظ أنّ مالكاً لم يسطع نجمه إلّا بعد أن احتضنته الدولة وذلك في سنة (١٤٩ هـ) أي بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام بسنة . فقد كانت الشهرة التي تلف مدرسة الإمام الصادق هي معارضة الدولة ، وتطبيق منهج إصلاحي يبصّر الأُمة ، ويحملها على الالتزام والتمسك بأحكام الدين ، ولم يؤثر موقف الحكام العباسيين على انتشار مذهب أهل البيت ، فقد كانت مدرسة الإمام الصادق من أبرز الحركات الفكرية ، ومن أشهر معالم النهضة العلمية . وكانت الدولة العباسية في طفولتها تعارض حركة انتشار المذهب ـ من وراء الستار ـ إذ ليس في إمكانها التظاهر بالمعارضة؛ لأنهم كانوا بحاجة ملحّة

---

(١) المدونة الكبرى ج ١ ص ٧٤.

(٢) مالك لأبي زهرة ص ٧٢.

لاستمالة أعيان أهل البيت ، للتأثير في نفوس الناس الذين يدينون لهم بالولاء ، ويتفجعون لما أصابهم من ويلات وما لحقهم من مصائب ، وليس للعباسيين نفوذ يستطيعون به حماية الدولة ، فكان لا بد من الاستعانة بزعماء الشيعة لتثبيت أركانها وحمايتها .

ولم يكن هناك شهرة لأحد سوى الإمام الصادق ، وقد رأينا كيف كان الإمام الصادق يمثّل خطراً أتعب المنصور أمره ، فحاول مرات أن يقتل الإمام ، وقد كلأه الله بعنايته ونجّاه من شره . ويذكر أنّ المنصور وصف الإمام الصادق بالشجى المعترض حلقه .

أمّا مالك بن أنس : فقد كان في حياة الإمام الصادق كأحد رجال المدينة ، قادته شهرة مدرسة الإمام الصادق إلى ما بين يدي الإمام ، فكان أحد طلابها ، ولم ينتشر ذكره إلّا بعد سنة (١٤٨ هـ) وهي سنة وفاة الإمام الصادق عليه السلام .

ولا يخفى أنّ غرض المنصور من وراء إظهار مكانة مالك وإبرازه ، هو منزلة الإمام جعفر بن محمّد الصادق . فقد علمنا محاولته في استعمال فقه أبي حنيفة ومكانته للتأثير على منزلة الإمام الصادق ، ومرّ بنا أمر هذه المحاولة . ويتّجه المنصور بنفس تلك الدوافع إلى مالك؛ لأن من قام بأمر الإمامة بعد الصادق هو وصيّه الإمام موسى بن جعفر . رجل الصلاح والدين والعبد الصالح كما وصفه الناس وهم يلتفّون حوله ولقّبوه بالعالم .

فلاحت للمنصور فكرة إخضاع العلم الديني للحكم ، وربطه بالدولة بتوحيد الأحكام واستعمال القوة ، فروى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه . فكلمه مالك في ذلك . فقال: ضعه ، فما أحد

اليوم أعلم منك . فوضع الموطأ[١] .

ولم يغب عن مالك مغزى ذلك ، فأجابه: يا أمير المؤمنين لا تفعل . أما هذا الصقع فقد كفيتكه ، وأما الشام ففيه الرجل الذي علّمته - يعني الأوزاعي - وأما أهل العراق فهم أهل العراق .

فكان المنصور يشدّ أزر الأوزاعي ويراسله .

وأخبر المنصور مالكاً أن من لا يرضى سيضرب عليه بالسيف ويقطع عليه ظهورهم بالسياط[٢] وفي رواية: كتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة فيعملون به ، فمن خالف ضربت عنقه[٣] . وكان عند الرشيد محل إجلال وتقدير ، وله علاقة مع الرشيد قوية وحميمة ، وكان لا يتردّد في الشكوى إلى الرشيد ممّا يهمه ، فكان يشكو إليه ما عليه من دين ، ويطلب المساعدة في زواج ابنه محمد[٤] .

موطأ مالك

يتّضح أنّ موطأ مالك كان الكتاب الذي طلبه العباسيون ، وقد وضع المنصور بنفسه خطة الكتاب ، فبعث إلى مالك حين قدم ، فقال له: إنّ الناس قد اختلفوا بالعراق ، فضع للناس كتاباً تجمعهم عليه . فوضع الموطأ[٥]، والظاهر أنّ بعض كتّاب المناقب من المالكية حاولوا التمويه على اشتراط

---

(١) الديباج ص٢٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الزواوي ص ٢٤ .

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ١١٠ .

(٥) الجرح والتعديل ج ١ ، ص ١٢ .

المنصور أو خطته الكتاب الذي يريده من مالك ، فوضعوا روايات أخرى منها: أنّ المنصور قال: يا أبا عبدالله ضع هذا العلم ودوّن كتاباً وجنّب فيه شدائد عبدالله بن عمر ، وَرُخَصَ عبدالله بن عباس وشواذّ بن مسعود ، واقصد أواسط الأمور وما أجمع عليه الصحابة(١) .

أما الرواية التي تتضافر على صحتها المدلولات والأقوال ، فهو قول المنصور: يا مالك عليك بما تعرف أنّه الحق عندك ، ولا تقلدنّ علياً وابن عباس أو نحو هذا(٢) .

ونرى أنّ ذكر ابن عباس من الزوائد أيضاً التي قام بها كتاب المناقب ، ولعلهم استعظموا أن يكون أساس كتاب المذهب هو التحذير من الإمام علي .

إنّ العباسيين تخلّوا عن ذاك الالتزام بسيرة الإمام علي عليه السلام ، وانتهت أغراضهم من ذكر فضائله ومعالم سيرته ؛ فتحوّلوا ـ بعد قيام دولتهم ـ إلى العداء والنصب . أما ابن عباس فقد بقي رمزاً لديهم تجرّهم إليه العصبية وتشدّهم إلى ذكره مصالح حكمهم ، وليس لعلم أو منزلة ، فهم على حلّية نكاح المتعة لا لعدم النص على نسخها وعدم جواز منعها أو تحريمها من قبل أحد غير النبي محمد ، ولكن لأن ابن عباس يقول بجواز نكاح المتعة ، وقد رأينا أنّ مسألة نكاح المتعة كان من جملة الأسباب التي احتملت في تعرّض مالك للأذى .

ولهذا فاشتراط المنصور أو خطته كانت موضع تنفيذ ، ووفى مالك بالشرط ، إذ لم يروِ عن علي عليه السلام في موطئه ، ويروى أنّ الرشيد قال له: لَمْ نَرَ

(١) الديباج وشرح الموطأ للزرقاني ج١ ص٧.

(٢) انظر الديباج المذهب ص٧٢ ـ ٧٣، المدونة الكبرى ج١ ص٧٥ .

في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس؟ فقال: لم يكونا ببلدي ولم ألق رجالهما . ويعتذر الزرقاني فيقول: فإن صح هذا فكأنّه أراد ذكراً كثيراً . وإلاّ ففي الموطأ أحاديث عنهما[1] .

ونال الكتاب شهرة ، وأصبح موضع تقديس حتى أطلقوا عليه اسم الصحيح وقالوا: إنّه لا مثيل له ، ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عزّ وجلّ[2] .

ووضعوا عن رسول الله منامات في مدحه ، وأنّه قال: ليس بعد كتاب الله عزّ وجلّ ولا سنّتي في إجماع المسلمين حديث أصحّ من الموطأ[3] . وقالوا: إنّ النبي سمّى الكتاب بهذا الاسم... إلى غير ذلك .

وقد روي عن مالك أنّه قال: عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة ، فكلهم واطأني عليه ، فسمّيته الموطأ . وقيل: لما ألف الموطأ ، ألقاه في الماء وقال: إن ابتلّ فلا حاجة لي به . فلم يبتل منه شيء[4]

وكان قد جمع فيه عشرة آلاف حديث ، ثم هذّبه ونقّحه ، فلم يبق من ذلك العدد إلاّ ألف وسبعمائة حديث . وقيل: خمسمائة[5] . وقيل: أقل وأكثر لاختلاف النسخ زيادة ونقصاً وإسناداً وإرسالاً .

وجملة ما في الموطأ ١٧٢٠ حديثاً ، المسند منها ٦٠٠ ، والمرسل ٢٨٨ والموقوف ٦١٣ . ومن قول التابعين ٢٨٥ .

وقد بلغ من اهتمام العباسيين بالموطأ أنهم عرضوا على مالك أن يُكتب

---

(١) شرح الموطأ ج١ ص٨.

(٢) مقدمة النص لابن عبدالبر ص٩

(٣) كشف المغطى في فضل الموطأ ص٢.

(٤) أوجز المسالك إلى موطأ مالك ج١ ص٣٦.

(٥) شرح الزرقاني على الموطأ ج١ ص٧.

بماء الذهب ويعلّق في الكعبة . وأنّ الرشيد قام يمشي مع مالك إلى منزله ليسمع منه الموطأ ، فأجلسه معه على المنصة ، فلما أراد أن يقرأه على مالك قال له: تقرؤه علي؟ قال مالك: ما قرأته على أحد منذ زمان ، قال: فيخرج الناس عني حتى أقرأه أنا عليك . فقال: إنّ العلم إذا منع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة[١] .

سيرة مالك

وكيف كان ، فإنّ مالك بن أنس نال الحظوة عند بني العباس . فقد مكّنه المنصور في الحجاز من أن يتمتع بسلطة تنفيذية مع ما خوّله من السلطة التشريعية ، وكان من أهم مظاهر إلحاق مالك بالدولة العباسية واعتباره عالمهم ، أنّ منادي المنصور كان في أيام الحج يعلن: بأن لا يفتي إلّا مالك .

ولما قام المهدي بالأمر بعد أبيه ، عظمت منزلة مالك ، وكان يحترمه ويصله بهدايا جزيلة ، ويعطيه عطاءاً وافراً ، ويقرب مجلسه ، وينفّذ ما يريده ، وكان المهدي يشيد بشأن مالك .

ولما جاء الرشيد لم تتغير منزلة مالك ، بل كانت تزداد ، وكان الرشيد يقصده إذا دخل المدينة ويجلس بين يديه إظهاراً لمنزلة مالك وجلباً لأنظار الناس إليه . وأمر عامله ألّا يقطع أمراً دون مالك .

وقد رأينا مالكاً قبل إلحاقه بالدولة وهو يسعى إلى العلم ، فلم يظهر عليه إلّا الرغبة في السماع .ومن المفاخر أن يؤدي به طلب العلم إلى أن ينقض سقف بيته ويبيع خشبه ـ كما يروي ابن فرحون ـ غير أنّ إقبال الحكّام عليه أحدث

(١) شذرات الذهب ج١ ص ٢٦١.

انقلاباً في مسلكه وسيرته واستجابب لما تضفيه عليه السلطة .

فعندما يحاول أولياء وأقرباء بعض المسجونين في سجون المدينة المنورة التوسط لدى المنصور ، ويلجأ المنصور إلى الصيغة التي تجنّبه اللوم ونسبة الظلم إليه بإدخال العلماء وأهل الدين في المعاينة ، نجد مالكاً يجيب وفق ما يريد المنصور . ومعلوم أنّ أمر المدينة كان يشق على المنصور ، وكانت السجون التي فيها تعكس مشاعر المنصور تجاه أهلها ، فلما ولي عبدالصمد على المدينة عاقب بعض القرشيين وحبسه حبساً ضيّقاً ، فكتب بعض قرابته إلى المنصور وشكى ذلك إليه وأخبره . فكتب المنصور إلى المدينة وأرسل رسولاً وقال: إذهب فانظر قوماً من العلماء ، فأدخلهم عليه حتى يروا حاله وتكتبوا إلي بها ، فأدخلوا عليه في حبسه مالك بن أنس ، وابن أبي ذئب ، وابن أبي سبرة وغيرهم من العلماء فقال: أكتبوا بما ترون إلى أمير المؤمنين . قال: وكان عبدالصمد لما بلغه الخبر حلّ عنه الوثاق ، وألبسه ثياباً ، وكنس البيت الذي كان فيه ، ورشّه ، ثم أدخلهم عليه . فقال لهم الرسول: أكتبوا بما رأيتم . فأخذوا يكتبون: يشهد فلان وفلان . فقال ابن أبي ذئب: لا تكتب شهادتي ، أنا أكتب شهادتي بيدي إذا فرغت ، فارمِ إليّ بالقرطاس . فكتبوا: محبساً ليناً ، ورأينا هيئة حسنة . وذكروا ما يشبه هذا الكلام ، ثم دفع القرطاس إلى ابن أبي ذئب ، فلما نظر في الكتاب فرأى هذا الموضع قال: يا مالك داهنت وفعلت وملت إلى الهوى . أكتب: رأيت محبساً ضيقاً ، وأمراً شديداً . وجعل يذكر شدّة الحبس[1] .

وأخذ مالك باستعمال العنف والمعاملة بالقسوة ، فكان إذا حدّث يقوم على

(١) تاريخ بغداد ج٢ ص٢٩٩.

رأسه الحرس ، فإذا تكلم أحد أو اعترض عليه ؛ أشار للحرس فيسحبون المتكلم ويخرجونه من المجلس ، وإن اقتضى السجن سُجن ، وقد رأينا سابقاً كيف أمر بحبس ابن مهدي وكان يصلي خلفه ، ومن سياق القصة يتبين لنا أنّ الحرس كان معه حتى وهو يؤم الناس في صلاتهم ، لأنّ مالكاً سأل: من هنا من الحرس؟ فجاءه نفسان ، وطلب منهما أن يحبسا ابن مهدي[١] .

وممّا يؤلم أن تتعدى الشدّة الحدود إلى القسوة التي لا علاقة لها بحكمة تشريع الحدود ، كما كان عليه الحال في قصة الرجل الذي عدا على أخيه ، حتى إذا أدركه دفعه في بئر ، وأخذ رداءه وأبو الغلامين حاضران ، فقال جماعة من أهل العلم: الخيار للأبوين في العفو أو القصاص . فقال مالك: أرى أن تضرب عنقه الساعة . فقال الأبوان: أيقتل ابن بالأمس ، ونفجع في الآخر اليوم؟ نحن أولياء الدم ، وقد عفونا . فقال الوالي: يا أبا عبدالله ، ليس ثمّ طالب غيرهما وقد عفوا . فقال مالك: والله الذي لا إله إلّا هو لا تكلمت في العلم أبداً أو تضرب عنقه . وسكت ، فارتجت المدينة ـ فلما رأى الوالي عزمه ، قدّم الغلام ، فضرب عنقه ، فلما سقط رأسه ، التفت مالك إلى من حضر فقال: إنما قتلته بالحرابة حين أخذه ثوب أخيه ، ولم أقتله قوداً ، إذ عفا أبواه .

ويسري تأثير السلطة إلى منهجه ، دخل عليه رجل فقال: ما تقول فيمن قال: القرآن مخلوق؟ فقال مالك: زنديق اقتلوه . فقال: يا أبا عبدالله ، إنما أحكي كلاماً سمعته؟ قال: لم أسمعه من أحد ، إنما سمعته منك[٢] .

وقال سحنون: أخبرني بعض أصحاب مالك أنّه كان عنده جالساً ، فأتى

---

(١) مالك للخولي ص٢٧٤ نقلاً عن ترتيب المدارك .

(٢) مناقب السيوطي ص١٤ .

رجل فقال: يا أبا عبدالله مسألة . فسكت ثم قال: مسألة . فسكت ، ثم أعاد عليه ، فرفع رأسه كالمجيب له فقال له السائل: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استواؤه؟ قال: فطأطأ مالك رأسه ساعة ، ثم رفعه فقال: سألت عن غير مجهول ، وتكلمت في غير معقول ، ولا أراك إلّا امرأ سوء ، أخرجوه[1] . ووردت سابقاً بلفظ آخر ، ولكن تجمعها النهاية .وفي الحلية: وأظنك صاحب بدعة . وأمر به فأُخرج[2] .

وما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول قال رسول الله ﷺ إلّا حبسه مالك في الحبس ، فإذا سئل فيه ، قال :يصحح ما قال ثم يخرج . ولقد كان ابن كنانة وابن أبي حازم والدراوردي وغيرهم سمعوا مع مالك من مشايخ ، وتركوا الحديث عنهم هيبة له حتى مات ففشا ذلك فيهم[3] .

وابن فرحون ينقل في وصفه: كان كالسلطان له حاجب يأذن عليه ، فإذا اجتمع الناس ببابه أمر آذنه فدعاهم ، فحضر أوّلاً أصحابه ، فإذا فرغ من يحضر ، أذن للعامة. وإذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل . خرج إليهم وأفتاهم . ولا بد هنا من ملاحظة قول ابن القاسم الذي يورده ابن فرحون بعد أسطر قليلة من النصوص التي تصف مالكاً . قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: إني لأُفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ، ما اتفق لي فيها رأي إلى الآن . وكان يقول: ربما وردت عليَّ المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي . وقال ابن عبدالحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة ، قال للسائل: انصرف حتى

---

(١) الزواوي ص٣٢.

(٢) حلية الأولياء ج٦ ص٣٢٥.

(٣) الديباج ص٢٤.

أنظر . فينصرف ويتردد فيها[١] .

أما إذا طلب الناس الحديث ، قيل لهم: اجلسوا . فيدخل مغتسله ، فيغتسل ويتطيب ، وتُلقى له المنصة ، فيخرج إليهم ، ويوضع عود ، فلا يزال يتبخّر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ وكان لا يوسع لأحد في حلقته ولا يرفعه ، يدعه يجلس حيث انتهى به المجلس . ومع هذا كان إذا استزاده أحد من الناس في الحديث يشير إلى السودان الذين يقفون عند رأسه ، فيخرجونه من الدار[٢] .

وكان يلبس طيلساناً طرازياً وقلنسوة متركة وثياباً مروية جياداً ، وفي بيته وسائد يقعد عليها أصحابه وقوّم الطيلسان بخمسمائة ، وكان يقع جناحه على عينيه ، وقيل في هذه الهيئة: إنّه أشبه شيء بالملوك . ووصف منزله بأنّه كان مبسوطاً بأنواع المعارش[٣] .

ولقد كان متأنقاً في ملبسه ومأكله أيضاً ، فقد مات وترك مائة عمامة وخمسمائة زوج نعلاً ، وكان يهدى إليه الهداية الفاخرة ، واشتهى يوماً كساءً قرمزياً ، فأُهدي إليه سبعة منها .

وأهدى إليه يحيى بن يحيى النيسابوري هدية باع من فضلتها ثمانين ألفاً . قال قتيبة: كنّا إذا أتينا مالكاً خرج إلينا مطيباً ، قد لبس من أحسن ثيابه ، فتصدّر ودعا بالمراوح ، فأعطى كل إنسان مروحة[٤] .

وقد نصح بعضهم مالكاً بالتواضع ، وترك ما هو عليه . فكتب إليه يحيى بن

---

(١) الديباج المذهب ص٦٩.

(٢) الانتقاء ٤٢.

(٣) البداية والنهاية ج١٠ ص١٧٤.

(٤) تذكرة الحفّاظ ج١ ص١١٦.

يزيد بن عبدالملك النوفلي المدني ـ وكان من أهل الحديث ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى بن يزيد بن عبدالملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطيء ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطي ، وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماماً رضوا بقولك ؛ فاتق الله يا مالك ؛ وعليك بالتواضع ؛ كتبت إليك بالنصيحة كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام .

ويكتب إليه مالك كتاباً يقرّ في آخره بما آخذه به يحيى ويقول: فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وإني لأعلم أنّ ترك ذلك خير من الدخول فيه[١] .

والخلاصة ، إنّنا لم نجد عند أحد من رؤساء المذاهب، أو العلماء الذين كان لهم حظ وافر من تقريب السلطة لهم، ما وجدناه عند مالك ؛ فهذا الإمام أحمد كان يتحلى بروح إنسانية عالية بعيدة عن الميل والعنف ـ مع تشدده ـ فقد سئل يوماً عن حبس أهل البدع ، فأنكر ذلك بحجة أنّ لهم والدات وأخوات . أي أنّه كره أن يتعدى عقابهم إلى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة ، وما عدا القول بخلق القرآن والرؤية ، فإنا نرى الإمام أحمد يسمح بالمناظرة والقول .

ومن العجب أن يستجيب رجل الدين للدولة، ويؤثر فيه ميلها إليه بحكم مصالحها واحتضانها له لأغراضها ، ويسمح لنفسه بأن يعامل الآخرين بهذا

---

(١) إحياء علوم الدين ج١ ص ١١٤.

الشكل من النكال . فيشمل ذلك طلبة العلم أو العلماء ، وأنهم ـ كما رأينا ـ تركوا أن يحدّثوا بشيء لأنّه كان يعاقب من يروي عن النبي حديثاً فيسجنه ما لم يصح عنده . فماذا يعتذر له بذلك؟ فليسوا أصحاب جدل ولا شبهة هوى أو بدعة ، وإنما علماء عاصروه وهم أعلم منه أو في طبقته ، وما علمنا ذلك إلاّ من شؤون الملوك وسلاطين الزمان . لكن أدى رضا السلطان واحتضانه لمالك إلى أن يكون مثله؛ فيزدحم الناس على بابه ، ويقف الحجّاب عليها يمنعونهم من الدخول عليه ، فإذا أذن لهم ازدحموا .

قال أبو مصعب: كانوا يزدحمون على باب مالك ، فيقتتلون على بابه من الزحام ، وكنّا عنده فلا يكلم هذا هذا ، ولا يلتفت ذا إلى ذا ، والناس قائلون برؤوسهم هكذا «مبالغة في الإنصات» وكان الأُمراء تهابه ، وهم مستمعون ، وكان يقول في المسألة: لا أو نعم . فلا يقال: من أين لك هذا .

وقد أنكر عليه بعض العلماء ما رأوه من حاله وأعماله ، وترك الحديث عنه الحكم بن نافع الحمصي وهو أحد العلماء ، ومن احتج الشيخان بحديثه ، فإنه رأى مالكاً ولم يسمع منه لما رأى من الحجاب والفرش[1] .

وتكلم فيه أيضاً إلى جانب ابن أبي ذؤيب وابن إسحاق عبدالعزيز بن أبي سلمة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وابن أبي يحيى وابن أبي الزناد ، وعابوا أشياء من مذهبه ، وتكلم فيه غيرهم . وتحامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة ، وعابه قوم في قعوده عن مشاهدة الجماعة في مسجد رسول الله ﷺ[2] وقال الخطيب: قد ذكر بعض العلماء أنّ مالكاً عابه جماعة

---

(١) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٦١ .

من أهل العلم في زمانه بإطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح والديانة والثقة والأمانة[1] .

وما يرويه الإمام الشافعي في أوّل اتصاله بمالك يؤيد ذلك ، عندما أخذ من والي مكة وصية إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك .

قال الشافعي :

فأوصلت الكتاب إلى الوالي ، فلما قرأه قال: يافتى ، إنّ مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه . فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى أن يوجه إليه ليحضره؟ قال: هيهات ، ليت إني إذا ركبت أنا ومن معي ، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا . قال: فواعدته العصر ، وركبنا جميعاً ، فوالله لكان كما قال ، لقد أصابنا من تراب العقيق . قال: فتقدم رجل ، فقرع الباب ، فخرجت إلينا جارية سوداء ، فقال لها الأمير: قولي لمولاك أني بالباب . قال: فدخلت ، فأبطأت ، ثم خرجت فقالت: إنّ مولاي يقرئك السلام ويقول: إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف . فقال لها: قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة . فدخلت وخرجت وفي يدها كرسي ، فوضعته ، ثم إذا أنا بمالك... إلخ الرواية[2] .

ولنتأمل تهيّب الوالي من الوصول إلى مالك ، فهو أمر غير معهود ، بل وغريب ، ولكن مصلحة الملوك اقتضت ذلك . فقد نقل أنّ المنصور كان

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٧٥، ومناقب الشافعي للفخر الرازي وتوالي التأسيس .

يطلب من مالك أن يبدي رأيه في ولاته على الحجاز . وقال له :

إن رابك ريب من عامل المدينة أو عامل مكة أو أحد من عمّال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شرّ في الرعية ، فاكتب إليّ بذلك ، أنزل بهم ما يستحقّون[1] .

فامتناع مالك في أوّل الأمر كان لظنّه أنّ الطارق من طلبة العلم . أما عندما علم بأنه من قبل والي مكة فقد تغيّر الحال؛ لأنّ ذلك من شؤون الدولة . ولذلك فإنّ العلم يفرض علينا أن نستغرب صدور مثل هذه التصرفات في السلوك والمظهر من رجل له مكان الصدارة في مجلس العلم . ويبوّئ نفسه مقام المرجعية لأحكام الشريعة ، لأنها أُمور لا يتوقع صدورها إلّا من الحكام الذين عدمت عندهم مقاييس العدل والمساواة .

وعلى أيّ حال ، فإنّ الإمام مالكاً انتشر ذكره في الحجاز بعوامل السلطة ، فقرّبه الحكّام وألزموا الناس بالرجوع إليه ، فأقبلت عليه الدنيا واستجاب هو لأشكال هذا الإقبال .

ونرى فيما قدّمناه كفاية ، وقد أصبحت الصورة عن الإمام مالك متكاملة ؛ وكان القسم الأوّل في الجزء الثاني قد ضمّ الأُمور الفقهية ، ولم نأتِ هنا على ما بحثناه في السابق من الجوانب التي تتعلّق بالمذهب المالكي .

وفاته

كثر الاختلاف في وفاة مالك كاختلافهم في ولادته ، فقيل أنه مات في ١٠ ربيع الأول ، وقيل ١٤ منه ، وقيل ١٣ ، وقيل ١٢ من شهر رجب سنة (١٩٩هـ)

---

(١) مالك بن أنس إمام دار الهجرة لعبد الحليم الجندي ص ٢٥٤ .

أو سنة (١٩٨ هـ) وقيل في صفر (١٩٩ هـ) أو في سنة (١٨٠ هـ).

وشيّع جثمانه، وصلّى عليه الخليفة العباسي، ودفن بالبقيع، ونصبوا على قبره فسطاطاً، ورثاه الشعراء منهم ابن أبي المعافي:

ألا قل لقوم سَرَّهُم فقدُ مالك ... إلّا إنّ فقد العلم إذ مات مالك
فماليَ لا أبكي على فقد مالك ... وفي فقده سدّت علينا المسالك
ومالِيَ لا أبكي عليه وقد بكت ... عليه الثريا والنجوم الشوابك

وقالوا: إن امرأة رثته بقولها:

بكيت بدمع واكفٍ فَقْدَ مالك ... وفي فقده ضاقت علينا المسالك
ومالي لا أبكي عليه وقد بكت ... عليه الثريا والنجوم الشوائك[1]

إلى آخر الأبيات وهي مشابهة لأبيات ابن أبي المعافي، ولا نستغرب هذا الاختلاف، فقد اشتبه الرواة أو نسبوا شيئاً غير صحيح.

أولاده وأحفاده

خلف مالك ولدين هما: يحيى ومحمد، وابنة اسمها فاطمة، زوّجها لابن أخته إسماعيل بن أبي أويس، وكان يحيى يروي عن أبيه نسخة من الموطأ وهي التي تروي عنه باليمن.

قال العقيلي: إنّ يحيى بن مالك حدّث عن أبيه بالمناكير[2] وقال القروي: كنا نجلس عند مالك، وابنه يحيى يدخل ويخرج، ولا يقعد، فيقبل علينا مالك، ويقول: إنّ ممّا يهون عليّ أنّ هذا الشأن لا يورّث، وأنّ أحداً لم يخلف

---

(١) الانتقاء ص٤٦.

(٢) ميزان الاعتدال ج٣ ص٣٠١.

أباه ومجلسه إلاّ عبدالرحمن بن القاسم .

وقال مصعب الزبيري: كان محمد بن مالك يجيء وهو يحدّث وعلى يده باشق ونعل كيساني وأرخى سراويله عليه[١] .

وكان لمحمد هذا ولد اسمه أحمد ، سمع من جده مالك ، وهو معدود من رواته ، ولكنهم ضعّفوه وتركوه ، بل تركوا أباه وعمه كذلك .

وليس لمالك غير هؤلاء ، وقيل: إنّ له ولداً رابعاً اسمه حمّاد وليس له ذكر . ولا عقب لمالك يذكر في التاريخ .

(١) الديباج المذهب ص١٨ .

الإمامُ الشّافعيُّ

لم نفرغ من حياة الإمام الشافعي ببحثنا عنه في الجزء الثالث ، لأنّ كثرة ما ذكر عنه ، وسعة مواطن حياته ، وتعدد مزاياه يحتاج إلى استفاضة وإسهاب ، وأغلب المسائل التي تتعلّق بمراحل عمره لفّها اللّبس وأحاطتها التناقضات ، لأنّ الحقيقة غشيتها سحب العاطفة ، أو لوّنتها ردود الأفعال المختلفة . وشعورنا بإجلال شخصية أو حبّها ربما يكون لعوامل هي بعيدة عن واقعها ، كما أنّ البعد عنها والنفرة منها ربما تكون لردّ فعل وهي لا تستحق ذلك ، وربما يكون أيضاً عن واقع يحمل على عدم الرضا ويبعث على النفور إذا كان الشعور نابعاً عن عقل ورؤية ،كما تبرز ما للشخصية من خصال . أما إذا غلبت الميول وسيطرت العاطفة أو تحكمت ردود الفعل ، فهناك تقع الحيرة ، ويحدث التناقض؛ لأنّ الحقيقة استكنّت بمعزل عن العاطفة وردود الأفعال .

وها نحن نستأنف البحث عن حياة الإمام الشافعي بمنهجنا القائم على اتّباع الحقّ والتماس الحقيقة .

نسبه

هو أبو عبدالله محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبديزيد بن هشام بن المطلب بن عبدمناف .

ولد سنة (١٥٠ هـ) نهار الجمعة آخر يوم من رجب ، وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة ، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال .

وأمّا في الآخرة فإنّ الرحمة وإن كانت موجودة ـ حتى ورد في الاثر أنّ إبليس (لعنه اللّه) يطمح في مغفرة اللّه تبارك وتعالىٰ ـ إلّا انّ لها حدّاً أكّده القرآن الكريم كثيراً وهو حد (العدل الإلهي)، ثمّ صرّح بأنّه سيملأ جهنّمَ من الجنّة والناس أجمعين.

قال تعالىٰ:

﴿ ... وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك لأملأنّ جهنّمَ مِنَ الجِنّة والناس أجْمَعين ﴾[1].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنا كُلّ نَفْسٍ هُداها وَلكِن حَقّ القولُ مِنّي لأملأنّ جَهَنّمَ مِنَ الجِنّة والناس أجمعين ﴾[2].

الرابعة ـ العدل الإلهي:

وهي خصيصة (العدل الإلهي) وقد أُبرزت بقوله تعالىٰ ﴿ مالِكِ يَوْمِ الدِين ﴾ فذلك اليوم هو يوم العدل لا (الرحمة بسعتها في الدار الدنيا)، ولذا لم يرد التعبير بقوله (رَحِيم أو رحمان يوم الدين)، حيث إنّ محور حركة الإنسان في الدار الدنيا الذي يتم من خلاله تكامله وتطوّره هو الإرادة والاختيار، وقد يقع من خلالها بالخطأ والمعصية وحينئذ فقد وضع اللّه تعالىٰ أمامه باب الرحمة المفتوح وهو التوبة، ولولاها لتوقّفت حركته وتكامله ولسدّ الباب عليه. وأمّا محور حركته في الدار الآخرة فهو القهر والإلزام علىٰ ما ذكرنا في تفسير معنىٰ ﴿ يوم الدين ﴾ ومن الإلزام ينشأ الجزاء والعقاب ولا يكون للإرادة الإنسانية والاختيار دور معيّن يومذاك، وتكون العلاقة إذن علاقة (العدل الإلهي) الذي

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) السجدة: ١٣.

يعني الإلزام والجزاء.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن لا تكون هناك عقوبات تعبّر عن العدل الإلهي في الدار الدنيا، أو لا تكون هناك رحمة في الدار الآخرة، بل الأمر على العكس، فإنّ العقوبات في الدار الدنيا موجودة أيضاً، ولذا نزلت الآيات الإلهية في الكافرين والظالمين، وباب الرحمة موجود في الدار الآخرة؛ ولذا وضعت الشفاعة والعفو عن السيئات بسبب الحسنات وغير ذلك من الأبواب. بل المقصود من ذلك ما أشرنا إليه (بشكل عام) وهو أنّ الخطّ العام الحاكم في الدنيا هو خطّ الرحمة، والخطّ العام الحاكم في الآخرة هو خطّ العدل الإلهي.

ويبدو من خلال الآيات القرآنية أنّ الحدّ الفاصل بين ميزان الرحمة والعدل الإلهي في الدار الآخرة هو العناد والتمرّد والشرك والكفر، الذي يعبّر عنه القرآن الكريم في كثير من الموارد بالاستكبار، لانّ ملاك العدل الإلهي هو الظلم، ومعنى العدل الإلهي هو إنزال الجزاء بالظالم، وأنّ للظلم هذا درجات، ودرجته التي لا يمكن التجاوز عنها هي درجة (الشرك والكفر والاستكبار)؛ قال تعالىٰ:

﴿ والذينَ كـذّبُوا بآيـاتِنا وَٱسْـتَكْبَرُوا عَـنْها أُولئِكَ أَصْـحابُ النـارِ هُـمْ فِـيها خالِدُون ﴾[1].

﴿ وَقالَ رَبّكُمْ ادْعوني أسْتَجِبْ لَكُمْ إنّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَـيَدْخلونَ

---

(١) الأعراف: ٣٦.

جَهَنَّمَ داخِرين ﴾[1].

﴿ قيلَ ادْخُلوا أبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها فَبِئْسَ مَثْوَى المتكَبِّرين ﴾[2].

﴿ إنَّ اللّه لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَك بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاء... ﴾[3].

﴿ ... يا بُنَيَّ لا تُشْرِك باللّه إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظيم ﴾[4].

﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَـهُمُ اللّعنَةُ وَلَـهُمْ سوءُ الدار ﴾[5].

ولعلّ من أروع النصوص الإسلامية التي تتحدّث عن هذه المعادلة بين الرحمة والعدل الإلهي ما ورد في دعاء كميل بن زياد النخعي المعروف الذي يرويه عن إمام المتّقين علي بن أبي طالب عليه السلام :

«فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك وقضيت بـه مـن إخلاد معانديك لجعلت النار كلّها برداً وسلاماً وما كان لاحد فيها مقراً ولا مقاماً، لكنّك ـ تقدّست أسماؤك ـ أقسمت أن تملأها من الكافرين : مـن الجـنّة والنـاس أجمعين، وأن تخلّد فيها المعاندين، وأنت جلّ ثناؤك قلت مبتدئاً وتطولت بالانعام متكرّماً أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»[6].

---

(١) غافر : ٦٠.

(٢) الزمر : ٧٢.

(٣) النساء : ٤٨ و ١١٦.

(٤) لقمان : ١٣.

(٥) غافر : ٥٢.

(٦) مفاتيح الجنان : ٦٦.

ثانياً ـ الاهداف التربوية والعقائدية :

يتضمّن هذا المقطع الشريف مجموعة من الاهداف يمكن تلخيصها في قسمين رئيسين :

الاول ـ الاهداف التربوية :

ويمكن أن نلاحظ هنا :

١ ـ يمثّل هذا المقطع تربية للإنسان علىٰ أدب الدعاء، إذ بدأ بقوله تعالىٰ ﴿ الحمد للّه ﴾. ويبدو من مجموعة من الروايات أنّ هناك آداباً معيّنة للدعاء لا بدّ من مراعاتها بغية استجابته، وأحد هذه الآداب الاساسية هو أن يبدأ الداعي بحمد اللّه وتمجيده.

٢ ـ تربية الإنسان علىٰ أن تكون علاقته باللّه تبارك وتعالىٰ هي علاقة الشكر من خلال حمده؛ ويذكر المتكلّمون أنّ حق الطاعة للّه على الإنسان وإلزام الإنسان بواجباته تجاه اللّه إنّما هو من باب شكر المنعم والمحسن. وهذا الحمد في قوله تعالىٰ ﴿ الحمد للّه ﴾ وإن كان في الواقع هو كلام إلهي، إلّا أنّه جاء في صدد تعليم الإنسان هذه القضية المركزية في حركته التربوية، فهو شكر من الإنسان للّه تبارك وتعالىٰ. ولذلك جاء بشكل ابتدائي دون أن يقول (قل الحمد للّه...) حتى يصبح كلاماً إلهياً يجري مجرىٰ كلام الإنسان نفسه علىٰ ما أشرنا إلىٰ ذلك في تفسير ﴿ الحمد للّه ﴾.

٣ ـ طرح قضية الحاجة في العلاقة التكاملية باللّه تبارك وتعالىٰ من خلال قوله ﴿ ربّ العالمين ﴾ إذ يشعر الإنسان بأنّه محتاج في تكامله إلىٰ ذلك المربّي الذي يسدّ نقص وحاجة هذا العبد بمنّه وإحسانه ثمّ ينعكس هذا الشعور حمداً

لذلك المحسن والمنعم وهكذا.

٤ ـ إنّ تكامل الإنسان الروحي لا يتم ـ كما يقول الاخلاقيون ـ إلّا من خلال توازن شعور الإنسان بالخوف والرجاء في علاقته مع اللّه تبارك وتعالىٰ، كما أشار إلىٰ ذلك القرآن الكريم حينما حذّر من قضية الأمن من عذاب اللّه وقضية اليأس من روح اللّه؛ قال تعالىٰ:

﴿ ... إنّه لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إلّا القَوم الكافرون ﴾[1].

﴿ قُلْ يا عِبادي الذين أسْرفُوا عَلىٰ أنفُسهم لا تَقْنَطوا مِنْ رَحْمَةِ اللّه إنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذنُوبَ جَميعاً... ﴾[2].

﴿ أفَأمِنوا مَكْرَ اللّه فَلا يَأمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلّا القومُ الخاسِرون ﴾[3].

﴿ أفَأمِنوا أنْ تَأْتِيهُم غاشية مِنْ عَذاب اللّه أوْ تَأتِيَهُم الساعة بغتة وهُم لا يشعرون ﴾[4].

﴿ وَأمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبّه وَنَهىٰ النفسَ عَنِ الهَوىٰ فَإنّ الجنّة هيَ المَأوىٰ ﴾[5].

﴿ أولئِكَ الَّذِينَ يَدْعونَ يَبْتَغونَ إلىٰ رَبّهِمُ الوَسيلَة أيُّهُمْ أقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَه ويَخافُونَ عذابَه إنّ عَذَابَ ربّك كان محذوراً ﴾[6].

---

(١) يوسف: ٨٧.

(٢) الزمر: ٥٣.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) يوسف: ١٠٧.

(٥) النازعات: ٤٠ و ٤١.

(٦) الإسراء: ٥٧.

وقد تضمّن هذا المقطع الشريف كلا الحالتين، فمن خلال قوله تعالىٰ ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ينفتح أمام الإنسان باب الرجاء برحمة اللّه عزّ وجلّ الواسعة والمستمرة والثابتة، ومن خلال قوله تعالىٰ ﴿ مالِكِ يَوْمِ الدين ﴾ يعيش الإنسان حالة الخوف من يوم الإلزام والقهر الذي سيعامل فيه من خلال العدل الإلهي.

وحينئذ لن يعتمد الإنسان على رحمة اللّه اعتماداً يؤدّي به إلى الإهمال أو التمرّد أو المعصية، ولا يكون خائفاً منه خوفاً بحيث يجعله في موقع اليأس من روح اللّه، والقنوط من رحمته.

الثاني ـ الاهداف العقائدية :

يمكن أن نستخلص مجمل العقائد الإسلامية المهمة والاساسية من خلال هذا المقطع القرآني الصغير ومنها :

١ ـ أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ هو خالق كل شيء (مبدأ كل شيء) وهذه هي فكرة الإيمان باللّه وتوحيده، وأنّ هذا الخلق يتّصف بالحسن والجمال والكمال، وهي الفكرة العقائدية الأُولىٰ في العقيدة الإسلامية.

٢ ـ أنّ اللّه المهيمن علىٰ مسيرة الإنسان يرعىٰ هذه المسيرة بالتربية باتجاه التطور والتكامل ﴿ ربّ العالمين ﴾ وبذلك تنبثق الفكرة الثانية في العقيدة الإسلامية وهي فكرة الرسالات الإلهية التي جاءت لهداية الناس وتربيتهم وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة، كل ذلك انطلاقاً من علاقة الرحمة الإلهية بالإنسان.

٣ ـ أنّ هذه الرحمة الإلهية محدودة بالعدل الإلهي الذي أعدّ الدار الآخرة للإلزام والقهر والجزاء والحساب، وهذه هي الفكرة الثالثة الاساسية في العقيدة الإسلامية، وهي فكرة الدار الآخرة.

ولا شك أنّ فكرة الإمامة والعدل الإلهي التي هي من العقائد الإسلامية الصحيحة يمكن أن نستنبطها من فكرتي النبوة والمعاد، لأنّ الإمامة هي امتداد للنبوة، والمعاد هو تجسيد للعدل الإلهي والاختيار الإنساني في الدار الدنيا علىٰ ما أشرنا.

وبهذا الفهم نرى أنّ هذا المقطع يدل على العقائد الاساسية الإسلامية دون حاجة إلى أن نضيف شيئاً إلى المعاني من خارج هذه الآيات الكريمة القصيرة.

معنى المقطع الثاني

ويتضمّن قوله تعالىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]، ونشير في دراسة مضمونه العام إلىٰ بحثين:

البحث الأوّل ـ مضمون العلاقة بين العبد والله :

يتناول هذا المقطع الشريف العلاقة بين الله والعبد في بعدها الثاني وهو علاقة (العبد بالله) تبارك وتعالىٰ، فهذه الآية إذن ترتبط بالآيات السابقة ارتباط سياق، وتمثّل الطرف الثاني لحالة التكامل التي أُشير إليها في المقطع الاول، إذ هناك عاملان مؤثّران في عملية تكامل الإنسان:

أحدهما : يرتبط بالله تبارك وتعالىٰ ويتمثّل بالمضامين التي تناولها المقطع

---

(١) الحمد : ٥.

الاول من الخلق الحسن والتربية والرحمة والعدل والجزاء.

والآخر: يرتبط بالإنسان نفسه وموقفه من اللّه تعالىٰ ويتمثّل بالشكر والعبادة للّه تعالىٰ والشعور بالحاجة إليه والاستعانة به، التي يتناولها المقطع الثاني.

ولكي تتّضح صورة هذا العامل، لا بد من الإشارة إلىٰ مجموعة من الامور المستفادة منه، وهي:

أولاً: الإرادة والاختيار في العبادة والتعبير عن الاستعانة:

ذلك أنّ المراد من قوله تعالىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ إمّا:

١ ـ اخبار الإنسان عن حالة قائمة فيه فهو بصدد بيان جملة خبرية، أي: أنّه إنسان يعبد اللّه ويستعين به، فكما يقول الإنسان (أنا حيّ) يقول (أنا عابد للّه) و(أنا مستعين باللّه)، فكأنّ الإنسان يخبر عن حاله وواقعه بأنّه موجود ومخلوق عابد اللّه ومستعين به، ونفس هذا الإخبار والاعتراف بهذه الحقيقة هو نحو من أنحاء العبادة والشكر.

٢ ـ أو أن يكون مضمون هذه الآية هو جملة إنشائية ـ وهو الارجح ـ والمراد منه إنشاء وإيجاد موقف من مواقف العبادة والاستعانة فكأنّه يريد أن يوجد العبادة، ويقول: أنا الآن بصدد عبادتك والاستعانة بك. كما يقول البائع عندما يريد أن يوجد عقد البيع «بعتك الدار» أو «إيّاك أبيع الدار».

وعلىٰ كلا الاحتمالين فإنّ الهيئة التركيبية لجملة ﴿ إيّاك نعبد ﴾ تدل علىٰ حصر العبادة ـ الخضوع المشوب بالتقديس التأليهي والتعظيم ـ باللّه تبارك وتعالىٰ، إذ يذكر أهل اللغة بأنّ تقديم المفعول على الفعل والفاعل، فيه دلالة علىٰ حصر الفعل بالمفعول، ويستفاد من هذا الحصر أيضاً بأنّ خضوع الإنسان للّه تبارك وتعالىٰ خضوع مطلق ينسحب علىٰ كل أعماله وتصرّفاته.

كما أنّ هذا الخضوع هو خضوع اختياري، وبذلك يختلف عن الخضوع والعبادة الثابتة ـ لكل الموجودات والكائنات ـ الذي تحدّث عنه القرآن الكريم.

قال تعالىٰ:

﴿ إنْ كُلّ مَنْ في السماوات والارض إلّا آتي الرحمن عبداً ﴾[١].

﴿ ولِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ في السماوات والارض طَوْعاً وكَرهاً... ﴾[٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ أنّ اللّه يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السماوات ومَنْ في الارض والشمسُ وَالقَمَرُ والنّجومُ والجِبالُ والشّجرُ والدّواب وكَثيرٌ مِنَ الناس... ﴾[٣].

وهذا مستفاد أيضاً علىٰ كلا الاحتمالين، فلو قلنا بأنّ مضمون ﴿ إيّاك نعبد ﴾ هو إنشاء للعبادة وإيجادها لدلّ علىٰ إرادة الإنسان إنشاء العبادة حال النطق فهو خضوع وعبادة اختيارية، وأمّا لو كانت ذات مضمون اخباري فإنّ تغيّر اسلوب الحديث من الحديث عن الغائب ﴿ الحمد للّه... ﴾ إلىٰ الحديث عن الحاضر المخاطب ﴿ إيّاك نعبد... ﴾ يفهم منه التعبير عن حالة الاختيار أيضاً.

وعلىٰ كل حال فإنّ الفهم العرفي لـ ﴿ إيّاك نعبد ﴾ يدل علىٰ أنّ العبادة الصادرة عن الإنسان عبادة اختيارية.

وهذا أمر واضح نفهمه أيضاً من الشرع ومن الفقه الإسلامي الذي جعل (قصد القربة) عنصراً أساسياً في مفهوم العبادة وهو عنصر اختياري، فإذا توفّر

---

(١) مريم: ٩٣.

(٢) الرعد: ١٥.

(٣) الحج: ١٨.

هذا العنصر في فعل ما يكون هذا الفعل عبادياً وإلاّ فلا.

إذن، فالعبادة التي تمثّل جزء العامل الآخر المؤثّر في مسيرة تكامل الإنسان لا بدّ أن تشتمل علىٰ عنصر الاختيار وأن تكون عبادة اختيارية.

ومثل هذا الحديث يقال في الاستعانة حيث يراد بـ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ التعبير عن الإرادة الاختيارية في الاستعانة بالله تعالىٰ.

ثانياً ـ تطابق الإرادة مع الاحكام الشرعية :

والامر الآخر الذي يمكن أن نفهمه من الآية الكريمة بعد إدخال عنصر الإرادة والاختيار في الموضوع هو أنّ عملية تكامل الإنسان إنّما تتحقّق مع وجود هذا الاختيار، ولكن فيما إذا تمكّن هذا الإنسان من أن يجعل إرادته واختياره متطابقاً مع الحكم الشرعي وما يسمّىٰ بالإرادة التشريعية للّه تبارك وتعالىٰ في مقابل الإرادة التكوينية القاهرة في هذا الكون الذي يشير إليها القرآن الكريم في مثل قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1].

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[2].

ولعلّ من الآيات التي ورد فيها استعمال كلمة الإرادة في الإرادة التشريعية هي قوله تعالىٰ:

﴿ ... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴾[3].

---

(١) النحل : ٤٠.

(٢) يس : ٨٢.

(٣) البقرة : ١٨٥.

﴿ ... ما يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾[1].

فالإنسان بصفته موجوداً يختلف عن بقية الموجودات[2] في أنّ تكامله لا يكون من خلال إرادة اللّه التكوينية فحسب ـ مع ما لها من دخل في ذلك، إذ أحسن اللّه خلقه، وأعطاه العقل والإدراك والفطرة ـ بل لا بد له من استخدام إرادته للوصول إلىٰ هذا التكامل، وهنا لا بد من أن تتطابق إرادته مع الإرادة التشريعية للّه تعالىٰ التي تشمل كل واجب ومحرّم ومستحب ومكروه، بل وحتى المباحات[3].

وكلّما كان هذا التطابق واسعاً وشاملاً لكلّ تصرّفات الإنسان كلّما كانت مسيرة هذا الإنسان التكاملية أسرع وأفضل.

ومن هنا كانت عبادة الإنسان مختلفة في آثارها ونتائجها التكاملية عن عبادة السماوات والارض، لأنّها عبادة اختيارية وإرادية كما ذكرنا وعبادة السماوات والأرض قهرية بل إنّ الإنسان في جانبه التكويني هو خاضع للّه تعالىٰ أيضاً فهو كالسماوات والأرض من هذه الناحية.

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) قد يشترك الجنّ مع الإنسان في هذه الخصوصية بمستوىً ما باعتبار امتلاكه للإرادة، وأنّه مكلّف كما يفهم من بعض الآيات الكريمة.

(٣) الإباحة والحلّية قد تعبّر عن مصلحة أيضاً في إطلاق العنان للإنسان ومنحه الحرية فإذا تطابق سلوك الإنسان مع الإباحة والإطلاق والحرية تحقّق التكامل بخلاف ما إذا ألزم نفسه ببعض الالتزامات ـ كما في الرهبانية المذمومة ـ فإنّه لا يتكامل بهذا الالتزام.

وأمّا العبادة هنا فلها مضمون آخر اختياري، فعندما تتطابق هذه العبادة مع الحكم الشرعي تصبح طريقاً أساسياً لتحقيق هذا التكامل.

وبهذا يمكن أن نفهم ضرورة أن تكون العبادة (توقيفية) حتى تتطابق مع الحكم الشرعي، لأنّ الشارع المقدّس وقف العبادة علىٰ صيغ معيّنة وإطارات معيّنة لا يصح للإنسان أن يتعدّاها ولا يكفي الاختيار في تحقيق التكامل ما لم تكن العبادة وفق الصيغ الشرعية، وإلّا كانت بدعة وتكون سبباً لانتكاسة الإنسان في مسيرته.

ثالثاً ـ معطيات الأسلوب القرآني:

وأما فيما يتعلّق باستخدام القرآن الكريم لصيغة الخطاب المفرد والمتكلّم الجمع ﴿ إيّاك نعبد ﴾ ولم يقل (إيّاكم نعبد) أو (إيّاكم أعبد) أو (إيّاك أعبد) فاستخدم ضمير المفرد المخاطب للّه تبارك وتعالىٰ، وهيئة فعل المضارع الدال على الجمع للعبد، فإنّ بالإمكان استخلاص مجموعة من الخصوصيات من هذا الاستخدام قد توضّح بصورة أكبر ما أشرنا إليه من معنى في ﴿ إيّاك نعبد ﴾، ومن هذه الخصوصيات:

١ ـ إنّ ضمير المخاطب المفرد (إيّاك) يدلّ على الإخلاص والتوحيد في العبودية مع التعبير عن حالة الحضور، حيث إنّ ضمير الجمع قد يوهم الشرك والتعدّد، وإن كان يستخدم لتعظيم الفرد ـ أحياناً ـ ولكن العبادة بنفسها غاية في التعظيم والتقديس، فهو مدلول عليه بمفهوم العبادة ومن خلال مادتها اللغوية.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ مسألة التوحيد في العبودية، أي (الإخلاص) وجعلها العنصر الاساس في قدرة الانسان على الوصول إلى الدرجة العالية من التكامل.

قال تعالىٰ:

﴿ إنّا أنزَلْنا إليْكَ الكِتابَ بِالحقّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِين * ألا للّهِ الدِّينُ الخالِصُ وَالذينَ اتَّخَذوا مِنْ دونِهِ أولياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلىٰ اللّهِ زُلْفىٰ إنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في ما هُمْ فيهِ يَخْتَلِفُون إنَّ اللّهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ ﴾[١].

﴿ قُلْ إنّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾[٢].

﴿ وَالذينَ اجْتَنَبوا الطّاغُوتَ أنْ يَعْبُدوها وَأنابوا إلىٰ اللّهِ لَـهُمُ البُشْرىٰ فَبَشِّرْ عِبادِ * الذينَ يَسْتَمِعونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعونَ أحْسَنَهُ أُوْلئِكَ الذينَ هَداهُـمُ اللّـهُ وَاوُلئِكَ هُـمْ أُوْلو الألْبابِ ﴾[٣].

وفي آيات أُخرىٰ إشارة إلىٰ أنّ الذي أُنزل على الانبياء عليهم السلام وأمر الناس به وطُلب منهم ما هو إلّا العبادة المخلصة؛ قال تعالىٰ:

﴿ وَما أُمِروا إلّا لِيَعْبُدوا اللّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدين حُنَفاء وَيُقيموا الصلاة ويُؤْتوا الزَّكاة وَذلِكَ دِينُ القَيِّمة ﴾[٤].

﴿ هُوَ الحيّ لا إلهَ إلّا هُوَ فادْعوه مُخْلِصينَ لَهُ الدين ... ﴾[٥].

وانّ إخلاص الانسان في عبادته سبيل نجاته وعدّه في صف المؤمنين؛

---

(١) الزمر: ٢ ـ ٣.

(٢) الزمر: ١١.

(٣) الزمر: ١٧ ـ ١٨. ويلاحظ في هذا المقطع من سورة الزمر هذا التركيز الكبير علىٰ قضية الاخلاص في العبادة.

(٤) البيّنة: ٥.

(٥) غافر: ٦٥.

قال تعالىٰ:

﴿ إلّا الذينَ تابوا وَأصْلَحوا واعْتَصَموا بِاللّهِ وأخْلَصوا دينَهُمْ للّـهِ فَـأُوْلئِكَ مَـعَ المُؤْمِنين ... ﴾(١).

فالدين الذي هو دين اللّه إنّما هو الدين الخالص، والعبادة لا بد أن تكون خالصة منزهة عن شائبة الشرك؛ فقد كانت قضية الشرك باللّه من أهم القضايا الاساسية التي واجهها الإنسان وعالجها القرآن الكريم في مختلف سوره ومراحل نزوله؛ حيث كانت مطروحة في التأريخ البشري وفي البيئة التي نزل فيها القرآن بشكل خاصّ ولا زالت حتىٰ يومنا الحاضر.

وإضافة إلىٰ دلالة ضمير المفرد المخاطب علىٰ مسألة الإخلاص ونفي الشريك، فإنّ في تقدّمه على الجملة ﴿ إيّاك نعبد ﴾ دلالة علىٰ حصر العبودية به تعالىٰ الذي يفهم منه (الإخلاص الكامل) له تعالىٰ، أيضاً.

وفي اسلوب الخطاب دلالة على (الحضور)، وقد اهتمّ القرآن الكريم في آيات عديدة ببيان حقيقة حضوره عزّ وجلّ مع الإنسان في كل مكان وزمان وقربه منه وأنّه يسمع الإنسان ويراه ويعرف سرّه ونجواه؛ قال تعالىٰ:

﴿ ... وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيهِ مِنْ حَبْلِ الوَريد ﴾(٢).

﴿ وَنَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرون ﴾(٣).

﴿ أمْ يَحْسبونَ أنّا لا نَسْمَعُ سِرّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ... ﴾(٤).

---

(١) النساء: ١٤٦.

(٢) ق: ١٦.

(٣) الواقعة: ٨٥.

(٤) الزخرف: ٨٠.

ولكنّ حضور الإنسان وقربه من الله الذي يمثّل الجانب الآخر من القرب إنّما يتحقّق بالعبادة الخالصة.

٢ ـ تدلّ الصياغة في ﴿ إيّاك نعبد ﴾ علىٰ أنّ العبادة مسؤولية جماعية وليست مسؤولية فردية، حيث يمكن أن توحي العبارة بذلك فيما لو كان الفعل بصيغة المفرد (إيّاك أعبد)، فالإنسان مسؤول عن عبادته ومسؤول عن أن يعبد الآخرون معه اللّه تعالىٰ، كما جاء التعبير عن ذلك في عدّة آيات، قال تعالىٰ:

﴿ ... وَتَوَاصَوْا بِالحقّ وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾(١).

﴿ وَلتَكُنْ مِنْكُمْ أُمّةٌ يَدْعونَ إلىٰ الخيرِ وَيَأمرون بِالمَعْروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُـنْكَر وَاوُلئِكَ هُمُ المُـفْلِحون ﴾(٢).

﴿ الذينَ إنْ مَكَّـنّاهُمْ في الأرْضِ أقاموا الصّلاةَ وآتَوا الزّكاة وأمَروا بِالمَـعْروفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللّهِ عاقِبَةُ الأُمور ﴾(٣).

﴿ وَالمُـؤْمِنونَ وَالمُـؤْمِنات بَعْضُهُمْ أوْلِياء بَعْض يَأمُرونَ بِالمَعْروفِ وَيَـنْهَوْنَ عَـنِ المُنْكَر وَيُقِيمونَ الصّلاةَ وَيُؤْتون الزكاةَ وَيُطيعونَ اللّهَ وَرَسولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إنَّ اللّهَ عَزيزٌ حَكيم ﴾(٤).

٣ ـ وعندما تكون صيغة الفعل (نعبد) تدلّ أيضاً علىٰ أنّ عبادة الإنسان الاختيارية هي حالة منسجمة مع ما هو موجود وقائم في الكون كلّه، إذ أُشير سابقاً

---

(١) العصر: ٣.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) الحجّ: ٤١.

(٤) التوبة: ٧١.

إلىٰ أنّ ظاهرة العبادة للّه ظاهرة موجودة في كل الكون الذي يسير بها نحو تكامله من خلال الإرادة التكوينية، وتشمل هذه الظاهرة حينئذ الإنسان أيضاً، ولعلّ هذا هو الذي تشير إليه الآية (١٨) من سورة الحج، التي ذكرناها سابقاً، حيث جاء التعبير ﴿ وكثير من الناس ﴾ في مقام العطف علىٰ سجود الشمس والقمر والنجوم، غاية ما في الأمر أنّ تكامله الأعلىٰ لا يتم إلّا من خلال انسجام إرادته مع الإرادة التشريعية للّه تبارك وتعالىٰ ـ كما قلنا ـ.

٤ ـ كما إنّ هيئة الفعل الدالّة على الجمع (نعبد) تجعل الفرد مندكاً وذائباً في الجماعة ولا يرى العابد نفسه شيئاً أمام اللّه تبارك وتعالىٰ، وبذلك يعالج الإنسان حالة الانانية التي هي المصدر الأساس لنمو عنصر الطغيان ووجود حالة الطاغوت في شخصيّته، وهذا بخلاف ما لو ورد التعبير بـ(إيّاك أعبد)، فقد يحسّ الإنسان بأنّه شيء مستقل في مقابل اللّه تعالىٰ الواحد الاحد، فهو وجود قبالة وجود اللّه، غاية ما في الامر أنّه وجود عابد للّه تعالىٰ، وحينئذ تتكرّس عنده حالة الانانية من خلال هذا الشعور الخاطئ.

رابعاً ـ الاستعانة تعبير عن الحاجة :

ويمكن أن نفهم جميع الابعاد والخصوصيات في ﴿ إيّاك نستعين ﴾ ممّا ذكر من خصوصيات لعبارة ﴿ إيّاك نعبد ﴾، إذ إنّ الفرق بينهما انّما هو في الفرق بين مادتي (الاستعانة) و (العبادة)، وأما الابعاد الأُخرىٰ المرتبطة بالهيئة واسلوب التعبير وصياغته فهي تأتي بنفسها في ﴿ إيّاك نستعين ﴾ فلا نحتاج أن نعيدها.

وأما الاستعانة فهي عنصر أساس أيضاً في التكامل المرتبط بالإنسان كالعبادة، والآية بجزئها الثاني ﴿ إيّاك نستعين ﴾ في معرض تنبيه الإنسان

إلىٰ أنّ تكامله لا يتم بمجرّد أن يكون مريداً لذلك، بل هو لا يستطيع شيئاً إلّا بإرادة اللّه تبارك وتعالىٰ وبالاستعانة به.

وانّ هذه الاستعانة استعانة مطلقة أيضاً وتنسحب علىٰ كل وجوده.

وانّ إحساس الإنسان بالحاجة إلى اللّه ـ الامر الذي يفرض الاستعانة باللّه تبارك وتعالىٰ ـ سيكون علاجاً لما قد يحدث في نفسه من شعور من خلال ﴿ إيّاك نعبد ﴾ من أنّ ارادته ارادة مستقلة عن إرادة اللّه، بل هي إرادة خاضعة لإرادته عزّ وجلّ، خصوصاً بعد أن أشير إلىٰ أنّ تكامل الإنسان لا يتم إلّا من خلال تطابق إرادته مع إرادة اللّه عزّ وجلّ، الامر الذي يوحي بوجود إرادتين مستقلة إحداهما عن الأُخرىٰ.

وقد أكّد القرآن الكريم هذا الامر من خلال آيات كثيرة، وبيّن أنّ الإرادة والإشاءة الحاكمة علىٰ كل الإرادات والمشيئات هي إرادته عزّ وجلّ؛ قال تعالىٰ:

﴿ إنّما أمْرهُ إذا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقول لَهُ كُنْ فَيَكون ﴾(١).

﴿ وَما تَشاؤونَ إلّا أنْ يَشاءَ اللّه ... ﴾(٢).

﴿ وَلا تَقُولَنّ لِشَيءٍ انّي فاعِلٌ ذلِك غَداً * إلّا أنْ يَشاءَ اللّه ... ﴾(٣).

إضافة إلىٰ أنّ الشعور بالحاجة الذي تعبّر عنه (الاستعانة) يعالج في الإنسان أيضاً (الهوىٰ) والميل إلى الطغيان، حيث يرى نفسه يملك الإرادة والاختيار، بحيث يتصرّف أحياناً بما يخالف الإرادة التشريعية للّه تعالىٰ.

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) التكوير: ٢٩.

(٣) الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

البحث الثاني ـ الاهداف التربوية والعقائدية :

يتضمّن هذا المقطع مجموعة من القضايا العقائدية والتربوية المهمة، ومنها :

أولاً ـ الأهداف العقائدية :

حيث تمّ تأكيد ـ من خلال ﴿ إيّاك نعبد ﴾ ـ جانب التوحيد الخالص والعبادة الخالصة للّه تبارك وتعالىٰ وهي أهم فكرة عقائدية في الإسلام، ومن خلال ﴿ إيّاك نستعين ﴾ أكّدت حاجة وفقر الإنسان للاستعانة باللّه تبارك وتعالىٰ في كل أعماله وتصرّفاته التي هي فكرة عقائدية أيضاً، حيث تدل علىٰ أنّ الإنسان (حادث) ومخلوق للّه تعالىٰ (الغني).

ثانياً ـ الأهداف التربوية :

١ ـ يفهم من خلال قوله تعالىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (العبادة المطلقة الشاملة)، وهذا يدل علىٰ أنّ بإمكان العبد أن يجعل حالة العبادة تعم كل تصرّفاته وأفعاله حتى تلك التي يهواها في نفسه من أكل وشرب وغرائز مختلفة، حيث يمكنه أن يمارس كل ذلك بقصد التقرّب للّه تعالىٰ والشكر له علىٰ هذه النعم، واعطاء هذه الفرصة الكبيرة للإنسان للتعبير عن عبادته وشكره هو من أفضل النعم الإلهية عليه، ولعلّ الميزة الاساسية التي يتفاضل بها الانبياء وغيرهم من المعصومين علىٰ بقية البشر ـ إضافة إلى العصمة من الذنوب ـ هي انّهم يحوّلون جميع أعمالهم وتصرّفاتهم إلىٰ أعمال عبادية يقصدون بها التقرّب إلى اللّه تعالىٰ ـ كما يذكر ذلك عن الأئمة المعصومين عليهم‌السلام ـ.

٢ ـ وانّ الإنسان كلّما اقترب من الحالة الواقعية لـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بمعنى المطلق الشامل، أي بمعنىٰ أنّه يجعل كل وجوده خاضعاً للّه تعالىٰ كلّما اقترب من اللّه

عزّ وجلّ وترقّ في سلم التكامل والتطوّر، لأنّ طريق التكامل للإنسان هو العبادة الاختيارية له.

٣ـ وانّ الإنسان ليس له وجود مستقل قبالة الجماعة، وأنّ تكامله ـ وإن كان بالإمكان أن يحصل بشكل فردي ـ تكامل محدود، وأنّ الحالة الفضلىٰ للتكامل ما تتم من خلال الجماعة، ولذلك جعل مكلّفاً وموظّفاً لتغيير الجماعة وإيجاد التكامل فيها.

٤ ـ وانّ الإنسان لا يمكنه أن يسير في طريق التكامل اعتماداً علىٰ إرادته واختياره فحسب، بل لا بدّ له من الاستعانة باللّه تبارك وتعالىٰ حتى وإن كان عابداً مختاراً، وإنّ تكامله ومستقبله مرهون بيد اللّه ولا يستطيع أن يرسمه هو وحده، إذ لا بدّ فيه من أن تتطابق إرادته مع إرادة اللّه التشريعية. وهذا الامر لا يحصل إلّا من خلال العون الإلهي.

معنى المقطع الثالث

ويتضمّن قوله تعالىٰ: ﴿ اهْدِنا الصِراطَ المُسْتَقِيم * صِراطَ الذينَ أنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينْ ﴾[1].

ويقع الحديث فيه ضمن بحثين رئيسين:

البحث الأوّل ـ المضمون الإجمالي:

وهذا المقطع الشريف ترابط سياقي مع سابقيه، لأنّه تضمّن دعاءً وطلباً

---

(١) الحمد: ٦ ـ ٧.

من العبد تجاه اللّه تبارك وتعالىٰ، وهذا الدعاء بمضمونه يمثّل هدف وطموح مسيرة الإنسان التكاملية التي حدّدت من خلال المقطع الاول والثاني السابقين، لأنّه لا بدّ من وجود هدف وطموح لكل مسيرة تكاملية، وهذا المقطع يمثّل هذا الهدف وهذا الطموح، كما أنّه استجابة للشعور بالحاجة إلى اللّه تعالىٰ، حيث يعبّر الدعاء عن مصداق هذه الحاجة، وبذلك يتّضح الارتباط السياقي بين هذا المقطع وما قبله من المقطعين الشريفين.

وقد أشار هذا المقطع إلىٰ جملة من المعاني والمضامين العالية، منها :

أولاً ـ التكامل نزعة فطرية في الإنسان :

إنّ التكامل يمثّل بالنسبة إلى الإنسان حالة ونزعة فطرية وثابتة فيه تنعكس علىٰ إرادته واختياره، ولولاها لما كان له طلب ودعاء من اللّه. لانّ اللّه تعالىٰ خلقه بأحسن خلق وفرض عليه العبادة وأعانه عليها لحاجته وفقره وعوزه لهدايته إلىٰ كل هذه الحقائق، فلولا وجود هذه النزعة الفطرية نحو الكمال لما كانت هناك حاجة إلىٰ طلب المزيد من اللّه والمتمثّلة بالمقطع الثالث من السورة المباركة.

وبهذه النزعة افترق الإنسان عن بقية الموجودات التي وإن فرض وجود التكامل في مسيرتها أيضاً، إلّا أنّها حالة قهرية تكوينية تتحقّق من خلال النظام الكوني المتطوّر والمتكامل، والإنسان بهذا البعد خاضع لهذا النظام ويتكامل من خلاله : نطفة، فعلقة، فمضغة،....

﴿ يا أَيُّها النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ

لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً... ﴾[١].

فخصوصية التكامل والتطوّر وإن كانت شاملة لأنّها تعبير عن الكمال الإلهي ـ وكل ما يصدر من اللّه متّصف بالكمال والحسن ـ إلّا أنّها في الجانب التكويني، وأمّا التكامل الذي يتحقّق بشكل إرادي فهو من خصائص الإنسان، وهو يمثّل نزعة فطرية فيه تدفعه في طلب مزيد منه.

ثانياً ـ التوفيق الإلهي سبب للوصول إلى الهدف:

إنّ تفسير حاجة الإنسان إلى مزيد من الهداية حتىٰ بعد أن يهتدي ويقف موقف العبودية والاستعانة باللّه تعالىٰ، راجع إلىٰ أنّ الإنسان وإن تيسّرت له أسباب الهداية الذاتية، مثل العقل الذي يهديه إلى اللّه بما تفضّل اللّه به عليه، وكذلك الفطرة التي تجعله يتّجه إلى اللّه تعالىٰ، لأنّ الإنسان ينزع إلى الكمال كما ذكرنا، واللّه هو الكمال المطلق، فلا بدّ أن يتّجه إليه بفطرته.

ولكن بالرغم من كل ذلك هو بحاجة إلى الهداية الخارجية لعدم كفاية العقل والفطرة وحدهما في تحقيق هدايته وتكامله وإيصاله إلى الدرجات العالية في مواقع القرب من اللّه تبارك وتعالىٰ.

وهذه الهداية الخارجية تارة تكون هي الوحي الإلهي والكتب السماوية والرسالات الإلهية التي جاءت علىٰ يد الانبياء والمرسلين، وأُخرىٰ تكون بالتدخل الإلهي المباشر في الهداية.

ولا شك أنّ الإنسان يشعر دائماً بالحاجة إلى الهداية الخارجية الثانية والتي يعبّر عنها بعض المفسّرين بالتوفيق الإلهي، لأنّ الإنسان يرىٰ أنّ مجرّد دلالة

---

(١) الحجّ: ٥.

العقل والفطرة الإنسانية وكذلك خط النبوّة والرسالات الإلهية على الطريق إلى اللّه غير كافٍ في تحقّق الهداية خارجاً ـ وإن كانت كافية في إقامة الحجة عليه من اللّه تعالىٰ ـ حيث قد يتحقّق الجحود والتمرّد من هذا الإنسان.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الحقيقة في مواضع عديدة مثل الآيات التي تؤكّد أنّ الهداية بالمشيئة الإلهية، كقوله تعالىٰ:

﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللّه يَهْدي مَنْ يَشاء ... ﴾[1].

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِن اللّهَ يَهْدي مَنْ يَشاء ... ﴾[2].

﴿ ذٰلِكَ هُدىٰ اللّه يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ... ﴾[3].

وهي آيات عديدة، وكذلك الآيات التي جاءت في مقام نفي الهداية عن القوم (الفاسقين) و (الظالمين) و (الكافرين) وهي كثيرة.

وأيضاً الآيات التي جاءت تؤكّد أنّ الهداية هي سبب لمزيد من الهداية الإلهية، مثل قوله تعالىٰ:

﴿ وَيَزيدُ اللّهُ الذينَ اهْتَدَوا هُدىً ... ﴾[4].

﴿ وَالذينَ اهْتَدوا زادَهُمْ هُدَىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ ﴾[5].

ولا شك أنّ هذه الهداية غير الهداية الإلهية المتمثلة بإرسال الرسل وإنزال

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) البقرة: ٢٧٢.

(٣) الأنعام: ٨٨.

(٤) مريم: ٧٦.

(٥) محمّد: ١٧.

الشافعي له من العلم والفضل الحقيقيين ما يغني ، واحتلاله المنزلة التي يراها هو لنفسه خير من عواطف وردود أفعال مرتجفة .

وقد قلنا وتحدثنا مراراً عن أمواج الادعاءات ، وقد كان الشافعي يعترف لأحمد بن حنبل بأنّه أعلم منه في الحديث .

لقد امتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب بتدوين مذهبه وتأليف كتبه . وقد ذكر له كثير من الكتب ، ذكرها ابن النديم[1] والبيهقي[2] وياقوت[3] ، ونسب له المسند ، وليس من تأليفه ، وإنّما استخرجه بعض أصحابه من أسانيد الأُم . وقد كان تدوين المذهب سبباً في الادّعاء أنّ الشافعي هو أوّل من قعّد القواعد وأصّل الأُصول ، وهو ما يجافي الحقيقة ولا يتفق مع الواقع؛ لأنّ التدوين لا يعني السبق في تقعيد القواعد وتأصيل الأُصول ، وإنّما هو تحرير للمذهب وتقرير للرأي ، وقد ناقشنا في فصل تدوين العلم في الجزء الثاني ذلك[4] ، فلا حاجة إلى ذكر المزيد هنا .

والقصد ، فإنّ الانتقال إلى مصر لم يكن كرحلاته السابقة لطلب العلم ، إنّما اختار بلداً وهو عازم على أن يكون محلاً لإقامته ليس فيه من ينازعه . فقد حلّ بين رجال يجمعهم اتّباع مالك ، ولما استقرّ أخذ في الردّ على أُستاذه ، وقد انتهى إلى مذهبه الجديد وقد كلّفه ذلك حياته؛ إذ اعتدى عليه أتباع مالك .

وكيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد ، وكان قد درس المذهبين: مذهب أهل الرأي، ومذهب أهل الحديث . وقد لاحظ ما فيهما من نقص ،

---

(١) الفهرست ص ٢٦٠.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ج١، ص٢٤٦ ـ ٢٥٤.

(٣) معجم الأُدباء ج١٧ ص ٣٢٤.

(٤) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج٢ ص ٣٦١ ـ ٣٦١.

فبدا له أن يكمل ذلك ، وأخذ ينقص بعض التعريفات منه ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط ، وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً لا يكاد يعني بالجزئيات والفروع .

وخير ما يلخّص مسلكه هو أنه قال: الأصل قرآن وسنّة ، فإن لم يكن ، فقياس عليهما . وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحّ الإسناد فهو سنّة ، والإجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، وما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر أولاها به ، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها ، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لم وكيف . وإنما يقال للفروع ، فإذا صحّ قياسه صحّ وقامت به الحجة[1] .

فهو بهذا المسلك وبهذا المنحى قد ردّ على مالك ، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة، أو التابعين، أو رأي نفسه .

وهاجم أبا حنيفة وأصحابه لأنّهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً ، ويقدّمون القياس على خبر الآحاد وإن صح سنده ، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة ، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث ، بدعوى أنّها مشهورة . ووقف في القياس موقفاً وسطاً ، فلم يتشدّد فيه تشدّد مالك ، ولم يتوسّع فيه توسّع أبي حنيفة[2] .

ويقول إمام الحرمين الجويني: فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة غير المستندة إلى شواهد الشرع ، وأبو حنيفة قصر نظره على

(١) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٢٣ .

(٢) انظر التمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للأستاذ مصطفى عبدالرزاق ص٢٢٥، وضحى الإسلام لأحمد امين ج٢ ص٢٢٤ .

الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأُصول .

ثم يتعقب ذلك الجويني -كشافعي- فيقول: والشافعي ﷺ جمع بين القواعد والفروع ، ، فكان مذهبه أقصد المذاهب ، ومطلبه أسدّ المطالب[١] .

وتدلّنا الحوادث بوضوح أنّه لقي أذىً كثيراً في إظهار مخالفته لمالك وردّه عليه ،كما أنّه لم يلق في مصر الإقبال الذي كان يرجوه ويأمله رجل مثله ، فقد جفاه الناس ولم يجلس إليه أحد ، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس . فقال: إليك عني وأنشأ:

أأنثر درّاً بين سارحة النعم   وأنظم منثوراً لراعية الغنم[٢]

وكان يظهر التذمر والتألّم ، ويدلنا على ذلك قوله :

وأنزلني طول النوى دار غربة   إذا شئت لاقيت امرءاً لا أشاكله

أجامعه حتى تقال سجيّة   ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله[٣]

وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: يا كذا . . . دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ورأينا واحد؛ ففرّقت بيننا وألقيت بيننا الشرّ ، فرّق الله بين روحك وجسمك[٤] .

أدبه وشعره

كان الشافعي على درجة عالية من المعرفة في اللغة العربية ، واطلاع كبير على معانيها وعلومها ، وكان أحمد بن حنبل يقول: الشافعي فيلسوف في

(١) انظر البرهان في أُصول الفقه للجويني ج٢ ص١٦١ .

(٢) معجم الأُدباء ج١٧ ص٣٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣١٠.

(٤) الولاة والقضاة ص٤٣٨ .

أربعة أشياء: في اللغة وأيام الناس والمعاني والفقه[1] . وتسب إليه أنّه قال: أقمت في بطون العرب عشرين سنة ، آخذ أشعارها ولغتها ، وذلك لإظهار طول المدة التي استغرقها كدليل على تمكنه من اللغة ومعرفته بها ، وهي فترة تترك ثغرة في مسار حياة الشافعي كما رأيناها ، فليست إلّا من عواطف الأتباع ، وإنما الحقيقة التي تكفي الإظهار ما عليه الشافعي أنّه عاش بين القبائل في البداية ليأخذ المعاني والألفاظ الفصحى ، وقد ظهر ذلك مع مفرداته وأقواله وتحصيله موهبة الشعر ، وقد كان غرض إقامته بين القبائل أن يستعين باللغة على الفقه[2] .

ومنهم من يقول إنّ الأصمعي صحّح أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي ، ومنهم من يروي قول الأصمعي دون ذكر عبارة: يقال له وما بعدها ، وإنّما قال الأصمعي ، صححت أشعار هذيل على فتى من قريش .

ومهما يكن من قول؛ فإن الشافعي حفظ أشعار العرب وشعر هذيل . يقول ياقوت: وحكي لنا عن مصعب الزبيري قال: كان أبي والشافعي يتناشدان ، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال: لا تُعْلِمْ بهذا أحداً من أهل الحديث ، فإنهم لا يحتملون هذا[3] .

فهو يخشى مجتمعه . ولقد التمس وسيلة تساعده في اتجاهه للفقه وسعيه إلى العلم ، فأخضع موهبته الشعرية لهذه الضوابط فقال :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد[4]

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ج٢ ص٤١ .

(٢) مناقب الرازي ص٨٩ .

(٣) معجم الأدباء ج١٧ ص٣٢٩ .

(٤) توالي التأسيس ص١٤٥ .

فهو يرى أنّ منزلة العالم أسمى من كل منزلة ؛ وقد ترك الشعر مع تمكنه من أدواته وقدرته على نظمه ، وقد ظهر قبل سنوات قليلة ديوان شعر للشافعي جمعه: محمد عفيف الزعبي في أقل من خمسين ورقة طبع في سنة (١٣٩١هـ) .

إلّا أنّ الشافعي يقول الشعر بعاطفة خالصة ،كشعره في حبّ آل البيت الذي كان سبباً في اتهامه بالتشيع ، وينظم الشعر في تجاربه مع الحياة والناس كما مرّ بعض ذلك .

وقال الربيع بن سليمان: حججت مع محمد بن إدريس الشافعي إلى مكة ، فما كان يصعد شرفاً ولا يهبط وادياً إلّا أنشأ يقول :

يا راكباً قف بالمحصّب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سَحَراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبُّ آل محمد ... فليشهد الثقلان أنّي رافضي[1]

وروي ابن عبدالبرّ أنّه قيل للشافعي إنّ فيك بعض التشيع؟ قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنّك تظهر حبّ آل محمد . فقال: يا قوم ، ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» . وقال: «إن أوليائي من عترتي المتّقون» فإذا كان واجباً عليّ أن أُحبّ قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين ، أليس من الدين أن أحبّ قرابة رسول الله ﷺ إذا كانوا من المتقين ، لأنّه كان يحب قرابته؟ وأنشد: يا راكباً قف بالمحصّب من منى[2] .

ومن شعره في موالاة أهل البيت :

---

(١) الانتقاء ص٩١، ومعجم الأدباء ج١٧ ص٣١٠.

(٢) الانتقاء ص٩١.

إذا فـــي مـــجلس نـذكر عـلياً   وســـبطيه وفـاطمة الزكـــية
يـــقال تـجاوزوا يـا قـوم هـذا   حـديث مـن حـديث الرافـضية
بـرئت إلى المـهيمن مـن أنـاسٍ   يـرون الرفـض حبّ الفاطمية(١)

وكان يجيب على تهمة التشيع بجرأة في ظروف كانت فيها التهمة بالتشيع تعني الهلاك والحرمان ، ولايكتم رأيه فيقول:

أنـا الشـيعي فـي ديـني وأصلي   بـمكة ، ثـم داري عسـقلية
بأطـيب مـوطنٍ وأعـز فـخرٍ   وأسـمى مـذهبٍ يـسمو البـرية

وله أيضاً :

قـالوا: تـرفضت . قـلت: كـلا   مـا الرفـض ديـني ولا اعـتقادي
لكـن تـوليت غـير شك   خـير إمـام وخـير هـادي
إن كـان حب الولي رفـضاً   فـإنّ رفـضي إلى العـباد

وقوله :

يـا آل بـيت رسـول الله حـبكمو   فـرض مـن الله في القـرآن أنـزله

---

(١) ذكر القندوزي الحنفي في ينابيع المودة نقلاً عن البيهقي عن الربيع بن سليمان الأبيات الشعرية وفيها زيادة رأينا ذكرها في الهامش لأن ما ورد في المتن هي الأشهر: قيل للإمام الشافعي رحمه الله إن أناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت الطيبين فإذا رأوا واحداً منا يذكرها يقولون هذا رافضي .

فأنشأ الشافعي :

إذا فـي مـجلس ذكـروا عـلياً   وسـبطيه وفـاطمة الزكـية
فأجـرى بـعضهم ذكـراً سـواه   فأيـقن أنـه سـلقلقية
إذا ذكـروا عـلياً أو بـنيه   تشـاغل بـالروايـات العـلية
وقـال تـجاوزا يـا قـوم عـن ذا   فـهذا مـن حـديث الرافـضية
بـرئت إلى المـهيمن مـن أنـاس   يـرون الرفـض حب الفـاطمية
عـلى آل الرسـول صـلاة   ولعـنته لتـلك الجـاهلية

يكفيكم من عظيم الفخر أنكموا ... من لم يُصَلِّ عليكم لا صلاة له

وله أيضاً:

ولم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعاً ... في الدين بالرأي لم يبعث بها الرسل

حتى استخفّ بدين الله أكثرهم ... وفي الذي حملوا من حقه شغل

وله في الدعاء:

بموقف ذلي عند عزتك العظمى ... بمخفيّ سرٍّ لا أحيط به علماً

بأطراق رأسي باعترافي بزلتي ... بمدّ يدي استمطر الجود والرحما

بأسمائك الحسنى التي بعض وصفها ... لعزتها تستغرق النثر والنظما

بعهد قديم من ألست بربكم ... بمن كان مجهولاً فعلمته الأسما

أذقني شراب الأنس يا من إذا سقى ... محباً شراباً لا يُضام ولا يُظما[1]

ومنه ما رواه الربيع بن سليمان أنه كتب إلى محمد بن الحسن، وقد طلب منه كتباً ليستنسخها فتأخرت عنه:

قل لمن لم تر عينا ... من رآه مثله

ومن كان من رآه ... قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله ... أن يمنعون أهله

لعله يبذله ... لأهله لعله[2]

وعن الربيع أيضاً أن الشافعي قال يعزي ببعض إخوانه:

إني أعزيك لا إني على طمع ... من الحياة ولكن سنة الدين

فما المعزّي بباقٍ بعد صاحبه ... ولا المعزّي وإن عاشا إلى حين[3]

---

(١) ديوان الشافعي ص١٢٦.

(٢) ديوان الشافعي ص١١٦.

(٣) ديوان الشافعي ص١٨٣.

ولا بد للشافعي أن لا يدع من يستفزّهم ذكر آل محمد ويغضبهم موالاة من أوصى بموالاتهم صاحب الرسالة ، فهو على الاعتقاد الذي أجمعوا عليه ، غير أنه يرى حب آل محمّد فيقول :

إذا نحن فضّلنا علياً فإننا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصبٍ عند ذكري للفضل
فلا زلت ذا رفضٍ ونصبٍ كلاهما ... بحبيهما حتى أوسّد في الرمل

ومنها :

شهدت بأن الله لا ربَّ غيره ... وأشهد أن البعث حقّ وأخلص
وأنّ عرى الآيات قول مبيّن ... وفعل زكيّ قد يزيد وينقص
وأنّ أبا بكر خليفة ربه ... وكان أبو حفص على الخير يحرص
وأشهد ربي أن عثمان فاضل ... وأن علياً فضله متخصّص
أئمة حقٍ يهتدي بهداهم ... لحى الله من إياهم يتنقّص[1]

وأشعار الشافعي كثيرة في مدح آل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام ، ولكن ذلك لا يجعله في عداد الشيعة ، ومع كونه قد أخذ كثيراً من الأحكام عنهم ، وضُعّف بسبب ذلك ، لأننا لم نجد صلة حقيقية بينه وبين الشيعة، ولا اتصالاً مع الأئمة في عصره . وقد عقدنا له بحثاً في الجزء الثالث ؛ وأدخلناه في قفص الاتهام ؛ وبعد الحوار والمناقشة أخرجناه ببراءة من تهمة التشيّع .

ويقتضي ذلك أن نقول : إن البعض يقع في خطأ ، ومنهم الكتّاب والمؤرخون أو عامّة الناس ، فيذكرون أنّ الشيعة يأخذون بقول الشافعي ، ويذكرون في كتبهم أقواله فيقولون : قال محمّد بن إدريس ، أو أنّ المذهب الشيعي يلتقي بالمذهب الشافعي في كثير من الموارد دون غيره من مذاهب

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٤١٠ .

السنة . وهو خطأ أوضحناه في مكانه ، وقلنا إنّه ناشئ من عدم التحقيق ، ولأنّ الشيعة يذكرون أقوال محمّد بن إدريس الحلي ـ عالم الشيعة في عصره ومؤلف كتاب السرائر ـ فيقولون : قال محمّد بن إدريس ، أو قال ابن إدريس . فيظنّون أنّ المقصود هو محمّد بن إدريس الشافعي .

ولكن الشافعية زعموا أن الشيعة قالوا إن الشافعي منهم[1] وأنّهم احتجّوا بهذه الأشعار . ولا نستغرب ذلك؛ لأنّ الخشية من تهمة التشيّع شملت أصحاب الشافعي وتلامذته؛ بينما كان آخرون بخلاف ذلك فقد روي أنّ المزني قال : قلت للشافعي : أنت توالي أهل البيت ، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال :

وما زالت كتمانيك حتى كأنني ... بردّ جواب السائلين لأعجم
وأكتم ودّي في صفاء مودّتي ... لتسلم من قول الوشاة فأسلم[2]

واتّهمه يحيى بن معين بالتشيّع وقال : طالعت كتابه السير ، فوجدته لم يذكر إلّا علي بن أبي طالب . وقوله : نظرت في قتال أهل البغي ، فرأيته قد احتج من أوّله إلى آخره بعلي بن أبي طالب . وكان يأخذ بحديث الإمام الصادق وخاصة بأحكام الصلاة[3] .

وقد أكثر الشافعي من الرواية عن إبراهيم بن محمّد بن أبي يحيى أبو إسحاق المدني أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام روى أحاديث أهل البيت وله مؤلف مبوّب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت ، وهو أستاذ الواقدي؛ وكتب الواقدي مأخوذة عنه . وكان الشافعي يقول : لأن يخرّ إبراهيم

---

(١) انظر مناقب الرازي ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ج٢ ص٧٠.

(٣) انظر مناقب الرازي ص٨٤.

أحبّ إليه من أن يكذب[١] . ولأنّ الشافعي أكثر في الرواية عن إبراهيم وهو متهم بالتشيع ، كان الشافعي يذكر اسمه مرة ويوري عنه أخرى ويقول : حدثني الثقة ، حدثني من لا اتّهمه . إذاً فالشافعي يأخذ من رجال الشيعة ، وينهل من مصادرهم ، ويستقي من منابعهم ، ولكنهم لا يدّعون أنّه منهم .

* * *

لقد كانت مصر في المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي ، ومنه انتشر في الأقطار ، وذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي والمذهب الحنفي ، وكانا قد انتشرا هناك .

قال السبكي في الطبقات عن مصر والشام بالنسبة للمذهب الشافعي:

هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية ، منذ ظهر المذهب الشافعي ، إليه العالية لأصحابه في هذه البلاد . لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم ، أما الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمّد بن عثمان الدمشقي الشافعي ويقول : كان محمد بن عثمان رجلاً رئيساً يقال إنّه هو الذي أدخل مذهب الشافعي إلى دمشق ، وأنّه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار[٢] .

وعلى أيّ حال فإنّ المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر ، ومنها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعي ، ولولاهم لكان أثراً بعد عين . ولكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد الذي لم يتهيّأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره ، ولعل أهم العوامل التي هيأت للشافعي أسباب النجاح في مصر هي :

١ ـ إنّه كان معروفاً بأنّه تلميذ مالك وخرّيج مدرسته ، وكان لمالك هناك ذكر

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٥٣٢ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج١ ص٢٢٦ وج٣ .

ولمذهبه انتشار ، فقوبل بالعناية ، وذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك والردّ عليه .

٢ ـ نشاط الشافعي وعلو همّته وتفوّقه بالأدب ومعرفته باللغة ، وإحاطته بأقوال مالك وأهل العراق ، وما عرف عنه من انتصار لأهل الحديث والردّ على أهل الرأي .

٣ ـ اشتهار قريشيته واعتصامه بالانتساب للنبي ﷺ، وهذا له أثره في قلوب المصريين .

٤ ـ صلته بحكّام مصر الجديد عبدالله بن العباس بن موسى ، ومعرفته به يوم كان بمصر ، وأنّه سافر معه من بغداد عند تعيينه ، أو أنّه حمل له وصية من الخليفة على اختلاف الروايات .

٥ ـ اختياره النزول عند أقوى بيت في مصر وأعزهم جانباً وهم بنو الحكم ، والتفاف أعيان أصحاب مالك حوله كأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم . تغلّب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد وله السلطان هناك . وذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي ، وقد تمت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبية؛ لأنّهم كانوا جميعاً شافعية إلاّ عيسى بن الملك العادل سلطان مصر فإنه كان حنفياً ، ولم يكن فيهم حنفي سواه ، ثم تبعه أولاده وكان شديد التعصب لذلك المذهب ، ويعدّه الحنفية من فقهائهم ، وله شرح على الجامع الكبير في عدة مجلّدات .

ولما خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين ، لم تنقص حظوة المذهب الشافعي ، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلاّ سيف الدين الذي حكم قبل بيبرس فقد كان حنفياً ، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته . ولم يختلف بشيء عن سياسة الأيوبيين تجاه المذهب ، وعملهم على نشر المذهب وتشجيع المنتمي إليه ، وجعل القضاء للشافعية ، وعلى غرار ما

عملت به الدولة العباسية في المشرق وحصره بالحنفية .

وبقيت صبغة المذهب صبغة رسمية حتى قيام الظاهر بيبرس وقيامه بتطبيق فكرة توزيع منصب القضاء على المذاهب الأربعة؛ فتأثرت مكانة المذهب الشافعي ونفوذه عمّا كانا عليه من قبل ، ولكنه ظل يحتفظ بمكانة أعلى من غيره من المذاهب .

وكذلك استمر المذهب في عصر المماليك الجركسية ، حتى جاء دور العثمانيين واستيلائهم على مصر ، فأبطلوا القضاء بالمذاهب الأُخرى وحصروه بالمذهب الحنفي لأنّه المذهب الرسمي للدولة . وقد تبيّنا أسباب اعتناق الأتراك للمذهب الحنفي دون غيره من المذاهب؛ لأنّه لا يشترط القرشية في الخلافة ، وسلاطين آل عثمان ادعوا الخلافة على المسلمين ، والمذهب الحنفي يجوّز ذلك دون غيره .

وخلاصة القول: أنّ المذهب الشافعي شارك المذهب الحنفي والمذهب المالكي في اهتمام السلطان والرعية ، وأنّ العلاقة بالحكم كانت من أعظم مقومات الانتشار والوجود كالمذهب الحنفي والمذهب المالكي اللذين انتشرا بقوة السلطة ومشيئتها ، وكان مذهب أبي حنيفة في بغداد يسمى مذهب السلطان[1] .

وفاته

لعل وفاة الشافعي من أغرب أعمال التعصّب . لأنّ أرجح الروايات وأقربها إلى الصحة هي موته بسبب الاعتداء عليه من جماعة تعصبوا لفتيان ـ الرجل المالكي ـ الذي كان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما ،

(١) معجم الأدباء ج٦ ص١١ ـ ١٢ .

وقد كان في فتيان حدّة وطيش وهو من أصحاب مالك بن أنس . وقد هجموا على الشافعي وضربوه ، فحمل إلى منزله ، فلم يزل عليلاً حتى مات .

ولمّا توفي أدخلت جنازته على السيدة نفيسة بنت الحسن التي تَلْمَذَ لها في الحديث ، وصلّت عليه في دارها . هكذا حكاه ابن خلكان وابن كثير(١) .

وقد وضعت نبوءة لإبراز أدوار ومنازل أصحاب الشافعي التي كانت بعد موته على أنّها تجري كما علّمها الشافعي وتنبأ بها . يقول الربيع : دخلنا على الشافعي أنا والبويطي ومحمد بن عبدالله بن الحكم والمزني ، فنظر الشافعي إلينا ساعة ثم قال للبويطي : أما أنت يا أبا يعقوب ، فستموت في حديدك . وأما أنت يا مزني فستدرك زماناً تكون أقيس أهل ذلك الزمان . وأما أنت يا محمد فسترجع إلى مذهب أبيك أي مذهب مالك . وأما أنت يا ربيع فأنفع لي في نشر كتبي(٢) .

توفي الشافعي ﵀ في شهر رجب سنة (٢٠٤ هـ) بمصر .

وبعد وفاته يقول الربيع :

رأيت الشافعي بعد وفاته في المنام فقلت : يا أبا عبدالله ما صنع الله بك ؟ قال: أجلستي على كرسي من ذهب ، ونثر عليّ اللؤلؤ الرطب(٣) .

أولاده

وللشافعي ولدان كل منهما اسمه محمّد ، أما الأصغر فتوفي بمصر صغيراً ، ومحمد الثاني يلقب أبو عثمان وليَ قضاء الجزيرة وتوفي سنة (٢٤١ هـ)(٤) .

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص٥٧، والبداية والنهاية ج١٠ ص٢٦٢ .

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ج٢ ص١٣٦ .

(٣) تاريخ بغداد ج٢ ص٧٠ .

(٤) النجوم الزاهرة ج٢ ص٣٠٦ .

الإمام الصادق (ع)

أولاده وأحفاده

إنّ البحث في حياة أولاد الإمام الصادق وأحفاده له أهمية كبيرة ، سواء من حيث متطلبات موضوع الكتاب واكتمال أجزائه ، أو من الناحية الدينية والتاريخية؛ لأنّ المرحلة التي جاءت بعد الإمام الصادق كانت من أكبر المراحل خطورة وأهمية ،كما أنّ البحث في الأولاد والأحفاد يستلزم جهوداً مضنية إذا ما أردنا الإيفاء بكل ما يتدرج في سلسلة النسب والأسماء ، فهو يعني الحديث عن الأئمة المعصومين صلوات الله عليهم وهو ما بقي مجال جهد وبحث للعلماء والرجال منذ مئات السنين وحتى اليوم ، ولم تتوقف البحوث ولن تكف الجهود عن كشف صفحات الأئمة المعصومين من أبناء محمدﷺ لأنهم نبراس الهدى ، ومنار الحق الذي يهتدي به الناس . ولذلك اقتصرت على أولاده وأحفاده رضوان الله عليهم حسب مجريات الأحداث وسياق البحث ، وأعطينا سرداً مختصراً يوفي بغرض إعطاء صورة عن عقبهﷺ وباستخلاص واقع الملابسات في مجرى الإمامة والتي ظهرت بعد وفاتهﷺ ، واقتبسنا شيئاً من أنوار سيرة الأئمة وإضمامات قليلة من أزاهير حياة بعضهمﷺ .

أولاد الإمام

قال الشيخ المفيد :كان لأبي عبدالله عشرة أولاد : إسماعيل ، وعبدالله ، وأُم فروة . أُمهم فاطمة بنت الحسين بن علي بن الحسين السبط ﷺ .

وموسى ﷺ وإسحاق ، ومحمد ، لأُم ولد . والعباس ، وعلي ، وأسماء

وفاطمة . لأمهات شتى .

وقال ابن عنبة الحسني : وأعقب جعفر عليه السلام من خمسة رجال : موسى الكاظم ، وإسماعيل ، وعلي العُريضي ، ومحمد المأمون ، وإسحاق ، وليس له ولد اسمه ناصر ؛ معقب ولا غير معقب بإجماع علماء النسب ، وباسفزاز من ولاية هراة خراسان قوم يدعون الشرف ، وينتسبون إلى ناصر بن جعفر الصادق عليه السلام وهم أدعياء كذّابون لا محالة ، وهم هناك يخاطبون بالشرف على غير أصل ، ويعرف هؤلاء القوم ببارسا وكذبهم أظهر من أن ينبه عليه[1] .

وقال سراج الدين الرفاعي : وكان له عشرة أولاد : إسماعيل وعبدالله وأم فروة ، أُمهم فاطمة بنت الحسين الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وموسى الكاظم الإمام المعصوم عليه السلام ، وإسحاق المؤتمن ، ومحمد الديباج ، لأم ولد يقال لها حميدة البربرية[2] .

علي بن جعفر عليه السلام

يكنى أبا الحسن ، ويلقب بالعُريضي نسبة إلى العُريض بضم العين المهملة وفتح الراء قرية على أربعة أميال من المدينة كان يسكنها وأُمه ، ويقال لولده العُرَيْضيون وهم كثير هناك[3] وهو أصغر أولاد الإمام الصادق عليه السلام مات أبوه وهو طفل ، وروى عن أخيه موسى الكاظم ، وله كتاب ما سأله به ، وروى عن أبيه عليه السلام على صغر سنة ، وله كتاب في مسائل الحلال والحرام عنه ، وكذلك روى عن ابن أخيه الرضا ، وابنه الجواد . وطال عمره إلى أيام الإمام

---

(١) عمدة الطالب ص٧٦.

(٢) انظر عوالم العلوم للبحراني ج٢٠ ص٨٩٩.

(٣) صحاح الأخبار ص٤٨.

الهادي عليه السلام فكانت وفاته سنة (٢١٠ هـ) .

روى العميري أنّ أبا جعفر الجواد دخل على علي بن جعفر ، فقام له قائماً وأجلسه في موضعه ولم يتكلم حتى قام ، فقال له أصحابه : أتفعل هذا مع أبي جعفر وأنت عمّ أبيه؟

فضرب بيده على لحيته وقال : إذا لم يرها الله أهلاً للإمامة أراها أنا أهلاً للنار؟ (يعني بادعاء الإمامة وهي ليست له) وقد ناصر أخاه محمّد بن جعفر الصادق الثائر في أيام المأمون والذي أسس دولة في مكة المكرمة . وبعد أن أسر محمد ، نزل علي بالكوفة ، ثم استدعاه القميون ، ونزل قم ومات وقبره مشهور يزار[1] .

قال الشيخ المفيد : علي بن جعفر عليه السلام راوية للحديث : سديد الطريقة شديد الورع ، كثير الفضل . ولزم أخاه موسى عليه السلام وروى عنه شيئاً كثيراً من الأخبار .

وقال الشيخ الطوسي : علي بن جعفر جليل القدر ، ثقة ، له كتاب المناسك ومسائله لأخيه موسى الكاظم سأله عنها[2] .

وقال الشريف أحمد بن زين العلوي في شرح العينية عند ذكر عليّ العُريضي : خلّف أولاداً أعقب منهم أربعة رجال : أحمد والحسن وجعفر الأصغر ومحمد[3] .

وقال في العمدة ـ في عقب الإمام الصادق ـ : وأمّا علي العُريضي بن جعفر الصادق عليه السلام ويقال لولده العُريضيون وهم كثيرون متفرّقون في البلاد ، ومنهم

(١) مجمع الرجال ج٤ ص١٧١ .

(٢) الفهرست ص١٥١ ح٣٧٧.

(٣) انظر عمدة الطالب ص٢٢٣ .

بالمدينة الشريفة أولاد يحيى المحدث بن يحيى ابن أبي الحسن عيسى الردمي الأكبر بن محمّد بن علي العُريضي ، وإليه يرجع نسب السادة أهل حضرموت . يقول الشريف أحمد بن محمّد : أعقب علي بن جعفر الصادق أبناءه . . . علي وجعفر والحسن ومحمد وأحمد ، في محمّد نسب السادة الحضارمة العلويين . ويجمعهم ابن جعفر بن محمّد بن علي الحسيني ، وهم فروع متوسعة إلّا أنّنا سنذكر من يوجد منهم في المدينة ومكة المكرمة ، وممن يسكن المدينة قديماً : آل جميل الليل ، وآل مشيخ بن أحمد بن حسين وغيرهم ومنهم بمكة المكرمة : بيت السيد الحبشي من علماء مكة المكرمة وأجلائها وبيت السيد عقيل[١] .

قال الذهبي : علي بن جعفر روى عن أبيه وأخيه موسى والثوري ، وروى عن الجهضمي والبزي والأوسي وجماعة ، وروى له الترمذي في كتابه .

وأسند الذهبي عنه في الميزان عن آبائه أنّ النبيﷺ أخذ بيد الحسن والحسين وقال : «من أحبني وأحب هذين وأبويهما كان معي يوم القيامة»[٢] .

وخرّج له الإمام أحمد في مسنده ، وعدّه ابن حجر في الطبقة العاشرة . وقال أحمد بن زين الحبشي : السيد علي بن جعفر فهو أبو الحسن شمس أهل البيت كان رحمه الله جواداً سخياً عالماً كبيراً ، وهو أصغر أولاد أبيه سنّاً وأطولهم عمراً ، أخذ عن أبيه وصَحِبَه ، وأخذ عن أخيه موسى الكاظم ، عن الحسن بن زيد ، وروى عنه ابناه أحمد ومحمد وحفيده عبدالله بن الحسن وإسماعيل بن محمّد بن إسحاق بن جعفر الصادق[٣] .

---

(١) انظر الدرر السنية للشريف أحمد بن محمّد بن صالح .

(٢) ميزان الاعتدال ج٥ ص١٤٤ ح٥٨٠٥ .

(٣) انظر الكواكب المشرقة ج٢ ص٤٦٦ ـ ٤٦٩ .

وردت مسائله لأخيه الإمام الكاظم في كتب علمائنا وروى له الشيخ الصدوق[1] والشيخ الطوسي[2] والعلامة الحلي[3] وغيرهم من علمائنا .

قال المخزومي أعقب علي بن جعفر أربعة رجال هم : محمد وأحمد والحسن ، وجعفر الأصغر . وهذه العشيرة أفخاذ وفصائل ، ضمّت جماعة كثيرة في العراق والشام واليمن والحجاز ، ولهم ذيل بشيراز ، والدينور ومنهم بواسط ، وقد أنجبت قبيلتهم فأتت بالكثير الطيب . قال العُمد : من أشياخ أهل البيت ، إنّ السبب في ذلك إذعان علي العُريض بإمامة محمد ابن أخيه[4] .

أما عقب أولاده الأربعة كما يلي باختصار :

١ ـ أحمد المعروف بالشعراني ، فإنه أعقب من عبدالله ، وعقبه بالمراغة . ويعرفون ببني الحسنية والحسين ، وعقبه بالرقة .

ومحمد وعلي: لهم جماعة بالبصرة ومرو وقم وشيراز .

٢ ـ وأما محمد بن علي بن جعفر فإنّ في ولده العدد المتفرق في البلاد ، أعقب من خمسة وهم :

عيسى النقيب ، ويحيى ، والحسن ، والحسين ، ولكل واحد من هؤلاء عقب منتشر في مصر والري وبغداد واليمن والشام والكوفة وأصفهان وقزوين والديلم .

٣ ـ جعفر بن علي بن جعفر ، فعقبه من ابنه عبدالله ، وعبدالله أعقب من علي وموسى ، ولهما عقب منتشر في البلاد الإسلامية .

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٣ ص٩٧ ح٣٧٣.

(٢) التهذيب ج١ ص٢٦٣ ح٧٦٦.

(٣) مختلف الشيعة ج٣ ص٢٩٣.

(٤) انظر عمدة الطالب ص٢٢٣.

محمد

محمد بن جعفر الصادق ، ويلقّب الديباج ، وكان وجيهاً محبوباً عند الناس شجاعاً كريماً ورعاً تقياً ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يرى الخروج بالسيف على الظالمين ، وبايعه أهل مكة سنة (٢٠٠ هـ) .

قال ابن الأثير : كان يروي العلم عن أبيه ، وكان الناس يكتبون عنه ، وقال ابن خلدون : كان محمّد بن جعفر عالماً زاهداً[1] .

وقال الشيخ المفيد : كان محمد بن جعفر سخياً شجاعاً ، وروي عن زوجته خديجة بنت عبدالله بن الحسين أنّها قالت : ما خرج من عندنا محمّد يوماً قط ، فرجع حتى يكسوه . وكان يذبح كل يوم كبشاً لأضيافه ، وخرج على المأمون في سنة تسع وتسعين ومائة بمكة ، واتبعته الزيدية الجارودية ، فخرج لقتاله عيسى الجلودي ، وبعد قتال طويل تفرّق جمع محمد ، فأخذه المأمون ، ولما وصل إليه أدنى مجلسه منه وأكرمه وأحسن جائزته ، وكان مقيماً معه بخراسان ، يركب إليه في موكب من بني عمه ، وكان المأمون يحتمل منه مالا يحتمله السلطان من رعيته .

وقد أنكر المأمون ركوبه إليه في جماعة من الطالبيين الذين خرجوا على المأمون سنة مائتين فآمنهم ، فخرج التوقيع إليهم : لا تركبوا مع محمد بن جعفر ، واركبوا مع عبدالله بن الحسين . فأبوا أن يركبوا ولزموا منازلهم ، فخرج التوقيع : اركبوا مع من أحببتم . فكانوا يركبون مع محمد بن جعفر إذا ركب ، وينصرفون بانصرافه .

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

وأخبر محمد بن جعفر : أنّ غلمان ذي الرياستين قد ضربوا غلمانك على حطب اشتروه . فخرج مؤتزراً ببردين ومعه هراوة وهو يقول : الموت خير لك من عيش بِذُلّ

وتبعه الناس حتى ضرب غلمان ذي الرياستين ، وأخذ الحطب منهم . فرفع الخبر إلى المأمون ، فبعث إلى ذي الرياستين فقال له : ائتِ محمد بن جعفر ، فاعتذر إليه وحكّمه في غلمانك . فخرج ذو الرياستين إلى محمد بن جعفر . قال موسى بن سلمة : فكنت عند محمّد بن جعفر جالساً حتى أتي ، فقيل : هذا ذو الرياستين . فقال : لا يجلس إلّا على الأرض ، وتناول بساطاً في البيت ، فرمى به ، ولم يبق في البيت إلّا وسادة ، وجلس على الأرض ، فاعتذر إليه وحكّمه في غلمانه .

وتوفي محمد بن جعفر سنة (٢٠٣ هـ)، فركب المأمون ليشهد جنازته ، وقد خرجوا به ، فلما نظر إلى السرير نزل فترجّل ومشى حتى دخل بين العمودين ، فلم يزل بينهما حتى وضع ، فتقدم وصلّى عليه ، ثمّ حمله حتى بلغ به القبر ، ثم دخل قبره ، فلم يزل فيه حتى بُنيَ قبرُه ، ثم خرج فقام على القبر حتى دفن ، فقيل له : لو ركبت ؟ فقال : هذه رحم قطعت منذ ثمانين سنة ، فأحببت أن أصلها[1] . ومات محمد بن جعفر عن عمر يتيف على السبعين كما ذكره الذهبي في الميزان ، وقبره بجرجان[2] . وما ذكره بعضهم من أنه مات وله تسع وأربعون سنة فهو غلط ، والصحيح ما ذكرناه ، لأن وفاة الإمام الصادق كانت سنة (١٤٨ هـ) .

(١) الإرشاد للمفيد ١٦٩ . وصحاح الأخبار لسراج الدين ص ٥٤ .

(٢) ميزان الاعتدال ج٣ ص٣٥ .

وذكر الشيخ المفيد : أنّ إسماعيل بن محمّد بن جعفر قال : قلت لأخي وهو لجنبي والمأمون قائم على القبر : لو كلّمناه في دَيْن الشيخ ، فلا نجده أقرب منه في وقته هذا . فابتدأنا المأمون فقال : كم ترك أبو جعفر من الدَّين ؟ فقلت له : خمسة وعشرين ألف دينار . فقال : قد قضى الله عنه دينه . إلى من وصّى؟ قلنا: إلى ابن يقال له يحيى بالمدينة . فقال : ليس هو بالمدينة ، وهو بمصر ، وقد علمنا بكونه فيها ، ولكن كرهنا أن نعلمه بخروجه من المدينة لئلا يسوؤه ذلك لعلمه بكراهتنا لخروجه عنها[1] .

وأعقب محمّد ابن الإمام الصادق عليه السلام : علي والقاسم والحسين ، وعقب القاسم من ولده : يحيى وعلي وعبدالله . والقاسم يعرف بالطيّب ، وابنه يحيى يعرف بيحيى الشبيه .

قال السخاوي : هو يحيى بن القاسم الطيب بن محمّد المأمون بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، قيل كان شبيهاً برسول الله صلى الله عليه وآله وكان له خاتم بين كتفيه كخاتم النبوة ، وكان الناس إذا شاهدوه أكثروا من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله[2] .

وكان ابن طولون أقدمه من الحجاز ، ولما سمع أهل مصر بقدومه ، خرجوا إلى ظاهر مصر يتلقونه ، وكان يوم قدومه يوماً مشهوداً . وبالقرافة بمصر قبر أبي عبدالله محمّد بن القاسم بن محمّد بن جعفر الصادق عليه السلام . ودفن يحيى بمصر ، وقبره مشهور يعرف بمشهد يحيى الشبيه . ودفن معه أخوه

---

(١) الإرشاد ص٢٦٦ .

(٢) أبو محمد يحيى بن القاسم «كان له شامة عظيمة في مثل موضع الخاتم» الشريف النبوي، توفي سنة ثلاث ومئتين ومائتين، إكمال الكمال، ابن ماكولا ج٥ ص٨٦.

عبدالله بن القاسم الطيب . وقبره في وسط القبّة ، وعند وسطه لوح رخام فيه نسبه ، وكانت وفاته يوم الاثنين ١٣ من شهر رمضان سنة (٢٦١ هـ) .

وكان عبيدالله كأخيه في العبادة والخير والعفّة والصلاح ، وهم بيت عظيم معروفون بإجابة الدعاء[1] . وفي نفس التربة دفنت أم عبدالله زوجة القاسم الطيب .

وفي مصر أيضاً : الحسن بن يحيى الشبيه بن القاسم الطيّب ، وعليه رخامة مكتوب فيها اسمه واسم آبائه الطاهرين . وفي القرافة مشهد يعرف بمشهد السيدة العيناء ، وهي السيدة كلثم أو أُم كلثوم بنت محمّد بن جعفر الصادق عليه السلام وقبرها معروف بإجابة الدعاء .

وفي القرافة أيضاً مشهد يعرف بمشهد الحسن والمحسن ، وهما أولاد القاسم الطيب بن محمّد بن جعفر[2] .

وذكر أبو نصر البخاري : أنّ جميع بني محمّد بن جعفر لصلبه سبعة : علي وإسماعيل من أُم ولد ، والقاسم أُمه أُم الحسن بنت حمزة بن القاسم بن الحسن ابن زيد . .

ويحيى وجعفر أُمهما خديجة بنت عبيدالله . وموسى وعبدالله من أُم ولد[3] .

عبدالله

ابن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وكان أكبر إخوته بعد إسماعيل ، ولم تكن منزلته عند أبيه كمنزلة غيره من ولده في الإكرام ، وادّعى الإمامة بعد

(١) انظر تحفة الأحباب وبغية الطلاب للسخاوي ص ٢١٠ .

(٢) تحفة الأحباب وبغية الطلاب ص ٢٠٨ .

(٣) سر السلسلة العلوية لأبي نصر البخاري ص ٤٥ .

أبيه لأنه الأكبر ، وجلس مجلس أبيه مدّعياً وصايته ، فمال إليه كثير من الناس بادعاء أنّ الإمامة في أكبر الأولاد .

وحيث لم يكن بمنزلة من العلم ، فقد امتحنه جماعة ممن اتّبعه بمسائل في الحلال والحرام والصلاة والزكاة وغير ذلك ، فلم يجد عنده علماً ، فنفروا منه ، وعادوا إلى الإمام موسى بن جعفر ﷺ ويقي جماعة على القول بإمامته ويعرفون بالفطحية لأنّ عبدالله يكنى بالأفطح ، كان أفطح الرأس ، وقيل كان أفطح الرجلين ، وهم فرقة قليلة رجعوا عن القول بإمامته . مات ولم يعقب ، فقالوا بإمامة موسى بن جعفر ﷺ . ولم يبق من هذه الفرقة أحد . ومات عبدالله بعد وفاة أبيه بسبعين يوماً .

إسحاق

ابن الإمام الصادق ﷺ كان راوية للحديث ومن أهل العلم .

قال الشيخ المفيد : وكان إسحاق بن جعفر من أهل الفضل والصلاح والورع والاجتهاد ، وكان ابن كاسب[1] إذا حدّث عنه يقول : حدثني الثقة الرضي إسحاق بن جعفر ، وكان إسحاق يرى إمامة أخيه موسى بن جعفر ﷺ وروى عن أبيه النص بالإمامة[2] .

وقال المخزومي : ولد لإسحاق : عبدالله والحسن ، ولهما عقب بهمدان وجيرفت . وفي عمدة الطالب : وأما إسحاق بن جعفر الصادق ويكنى أبا

---

(١) هو يعقوب بن حميد بن كاسب المدني المتوفى (٢٤١ هـ) وينسب إلى جده وكان من المحدثين الأعلام . قال القاسم بن عبدالله بن مهدي قلت لأبي مصعب بمن توصيني بمكة وممن أكتب ؟ فقال عليك بشيخنا أبي يوسف يعقوب بن حميد . وقد روى الحديث عنه جماعة وخرج له البخاري في أفعال العباد .

(٢) الإرشاد ص ٣٢٣ .

محمد ويلقب بالمؤتمن ، فقد ولد بالعُريض وهو واد بالمدينة ، وكان من أشبه الناس برسول الله ﷺ وكان محدثاً جليلاً ، وادّعت فيه طائفة من الشيعة الإمامة . وكان سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رضي الله عنهما إذا ما روى عنه يقول : حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم ، وهو أقل المعقبين من ولد جعفر الصادق عدداً ، إذ أعقب ثلاثة رجال : محمداً والحسن والحسين ، وتعرف ذريته بالإسحاقيين[1] .

يقول المقريزي في خططه : وتزوج ـ إسحاق ـ بنفيسة[2] رضي الله عنها ، وكان يقال له إسحاق المؤتمن ، وكان من أهل الصلاح والفضل والخير والدين ، وروى الناس عنه الحديث ، وكان ابن كاسب إذا حدّث عنه يقول : حدثني الثقة الرضا إسحاق بن جعفر . وكان له عقب بمصر ، فهم بنو الرقي ، وبحلب بنو زهرة[3] .

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

كان موسى بن جعفر على جانب عظيم من العلم والكمال ، فقد أشبه بمواهبه وأخلاقه ، وكان أبوه الإمام الصادق إذا ما اجتمع أولاده يقول : هؤلاء أولادي وهذا سيّدهم . وروي أنّ أبا حنيفة قال : دخلت المدينة فأتيت أبا عبدالله الصادق عليه السلام فسلّمت عليه وخرجت من عنده ، فرأيت ابنه موسى في

(١) انظر عوالم العلوم للبحراني ج ٢٠ ص ٩٢٦.

(٢) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن السبط عليه السلام ، وهي المعروفة بالسيدة نفيسة المتوفاة سنة (٢٠٦ هـ) ، وقبرها بمصر يزار ويعرف باستجابة الدعاء ولها كرامات وكانت عالمة جليلة القدر عظيمة الشأن يحترمها العلماء ويعظمها الأمراء . قالوا إنّ الشافعي كان يزورها ويسمع منها الحديث وقد زار قبرها أكابر العلماء وأعيان الدولة وظهرت لها كرامات في حياتها وبعد وفاتها رضي الله عنها .

(٣) خطط المقريزي ج ٤ ص ٣٢٤ .

دهليز داره قاعداً في مكتب ـ وهو صغير السّن ـ فقلت له : أين يُحدث الغريب عندكم إذا أراد ذلك؟ فنظر إلي ثم قال : «تجنّب شطوط الأنهار ، ومسقط الثمار ، وفيء النزال ، وأفنية الدور ، والطرق النافذة والمساجد ، ويرفع ويضع بعد ذلك حيث شاء» . فلما سمعت هذا القول نبل في عيني وعظم في قلبي ، فقلت له : فممن المعصية ؟ فنظر إليّ ثم قال : «اجلس حتى أخبرك» فجلست فقال : «إن المعصية لا بد أن تكون من العبد أو من ربه أو منهما جميعاً ، فإن كانت من الله عزّ وجلّ فهو أعدل وأنصف من أن يظلم عبده بما لم يفعله ، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوي أولى بإنصاف عبده الضعيف . وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر وإليه توجه النهي وله حق الثواب والعقاب؛ ولذلك وجبت الجنة والنار» قال : فلما سمعت ذلك قلت : ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم(١) .

فقد كشف الإمام موسى الكاظم ـ على صغر سنه ـ عن المسألة التي استعصى فهمها على الناس ، وكان مثار جدل وسبباً في العداوات والقتل والطعون ، حتى شملت أبا حنيفة نفسه .

لقد كان المجتمع ينظر إلى الإمام موسى نظرة إكبار وتقدير ، ولما آلت إليه الإمامة وتسلّم زعامة البيت العلوي ، صادف على الحكم بعد المنصور حكّاماً كالمهدي والرشيد ترتعد فرائصهم خوفاً ورعباً من البيت العلوي ، إذ مضى زمن المنصور الداهية الذي استطاع أن يواجه البيت العلوي ، ويلجأ إلى كل السبل والوسائل للوقوف بوجه الإمامة والمنزلة الروحية ، ويستخدم الوحشية والقتل ليقضي على ثوراتهم وحركاتهم .

فكان البيت العلوي شغل الدولة الشاغل وهاجسهم الدائم ، يقض

(١) روضة الواعظين ج١ ص٣٦ ـ ٤٠ .

مضاجعهم ، ويكدّر أوقات سكرهم وملذاتهم وتبذّلهم في الملاهي والشهوات .

ومن المتسالم عليه ؛ أنّ الملوك الذين عاصرهم الإمام الكاظم عليه السلام كانوا قد شدّدوا الرقابة عليه واتهموه بأنّه مصدر حركات الثوار ومحل تجمع الفئات التي لا تعترف بشرعية الدولة ، وكذلك الذين ينقمون على الحكام سوء تصرفهم فإنهم يجدون في الإمام موسى الكاظم شخصية الخليفة العادل والحاكم الذي تحتاج الأُمة رعايته وقيادته.

فكان محل تخوف الحكّام ، فهم يحذّرونه أشدّ الحذر، فهو أكبر العلويين وأعلمهم، والشيعة تغدو وتروح إليه، وهم يقصدونه من سائر البلاد الإسلامية، ولا يملك بنوالعباس أنفسهم تجاه هذه المكانة. فيروي المأمون عن أبيه هارون أنّه قال لبنيه في حق الإمام الكاظم: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر ، وإنه ـ أي الكاظم عليه السلام ـ والله لأُحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله مني ومن الخلق جميعاً ، ووالله لو نازعني هذا الأمر لأخذت بالذي فيه عيناه فإنّ الملك عقيم[1] .

وسنطلع على نبذ أُخرى من سيرته الزكية .

ولادته

ولد الإمام موسى بن جعفر سنة (١٢٨ ـ ١٢٩ هـ) يوم الأحد سابع صفر بالأبواء ـ قرية بين مكة والمدينة ـ عند رجوع أبيه وأُمه من الحج في تلك السنة ، فبشّر الإمام الصادق أصحابه الذين كانوا معه في ذلك الموضع وأخبر

---

(١) روضة الواعظين ج١ ص٣٩ ـ ٤٠ .

خواص أصحابه بأنه الإمام من بعده ، ثم أجرى جميع المراسيم الشرعية لمولده الجديد ، فأذّن في أذنه اليمنى ، وأقام في أذنه اليسرى ، وأولم بعد ولادته ، فأطعم الناس ثلاثاً .

وعندما دخل المدينة المنورة ، أقبلت الوفود إليه يهنئونه بمولوده ويشاركونه أفراحه ، وكان ﷺ يظهر لهم فرحه بهذا المولود ، ويشيد به وأنّه الخلف الصالح والإمام من بعده . ونشأ صلوات الله عليه تحت رعاية أبيه نشأة صالحة ، واتصف بخصال الكمال ، ولقّب بالعبد الصالح ، وينعت بالكاظم ، ويكنى بأبي إبراهيم وبأبي الحسن .

وأُمّه أم ولد اسمها حميدة الأندلسية أو البربرية ، ومدحها الإمام الصادق ﷺ بأنها مصفّاة من الدنس كسبيكة الذهب[١] ومات أبوه الصادق وله من العمر تسع عشرة سنة .

وحصل بعد موت الإمام الصادق ﷺ خلاف بين أتباعه ، فمنهم من قال بإمامة محمّد بن إسماعيل بن الإمام الصادق وهؤلاء قلة ، ولم يسمعوا النص على الإمام موسى من أبيه ، وبعد مدة رجع أكثرهم إلى القول بإمامته . ومنهم من قال بإمامة موسى ﷺ للنص عليه من أبيه ، وسيأتي بيان ذلك .

وكان عبدالله الأفطح قد ادّعى الإمامة واتبعه البعض ، ولم يكن عنده علم ، ولم يجدوا فيه مؤهلات الإمامة ، فرجعوا عنه[٢] .

وقام الإمام موسى ﷺ بأعباء الإمامة في ذلك العصر المضطرب بالفتن ، وقد كثرت فيه الخلافات في الآراء ، وظهرت فيه العقائد المختلفة ، ونبغ

---

(١) بحار الأنوار ج٤٨ ص٦ .

(٢) فرق الشيعة ص٨٨ .

أُناس حادوا عن طريقة المسلمين ، فجاءوا بآراء إلحادية ، ونشروا أقوالاً تثير الشك . فكانت مدرسته التي تزعّمها بعد أبيه تواصل نشاطها في قمع تلك الحركات ، وصدّ تلك الهجمات عن الدين الإسلامي . وخرج دعاة الإمام موسى إلى الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة والتصدّي لردّ تلك الأقوال ، وتفنيد تلك الآراء التي انتشرت في المجتمع الإسلامي .

والذي يظهر من تتبع الروايات أنّه في بدء أمره كان يحذر أشدّ الحذر من المنصور الدوانيقي؛ لأنّ المنصور ملأ المدينة بالجواسيس ليعرف على من يجتمع الناس بعد جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام فإذا عرفه فهناك سيحتال لقتله لعلمه بتعلّق الناس بأهل البيت ، وأنّ الإمام الصادق قد انتشر ذكره ، وتفرّقت دعاته في جميع الأقطار ولابد أن يقوم مقامه أحد ، فرأى عليه السلام في بدء الأمر ؛ أن يحذر ويحسب لنقمة المنصور حسابها ، ولكن بعد وفاة المنصور سنة (١٥٢ هـ) خفّت الوطأة وقل الحذر عندما ولي المهدي ؛ لأنّه أقل شدة من أبيه في معاملة أهل البيتعليهم السلام .

ولكن التفاف الناس حول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وإقبالهم على أخذ الأحكام منه والرواية عنه ، جعل المهدي قلقاً من أمره ، لأنّه أعرف الناس بمنزلة أهل البيت في قلوب الأُمة . فهم الساسة الذين ابتعدوا عن الاستغلال والأثرة ، وجانبوا كلما من شأنه أن يضع من قيمة تلك المنزلة السامية ، وهم يحتفظون بمكانتهم الروحية ورتبهم العلمية ، لم يطلبوا بذلك جاهاً ، أو يحاولوا جمع الأموال وصرفها في غير ما شرعه الله .

وقد أوضحوا في سيرتهم أنّهم ينهجون نهج جدّهم الرسول الأعظم في إقامة العدل ونصرة المظلوم وإعلان الحرب على الظالمين وبذل النصح لجميع المسلمين .

وكان الإمام موسى عليه السلام تتمثل فيه خصال الكمال، وتتجسم فيه شخصية الإمام الحق، ولعظم الأهوال وشدّة المحن، غلب عليه صفة الكاظم، وكان من خصاله: التجاوز عن المعتدين[١].

وكان يُدعى بالعبد الصالح لعبادته واجتهاده، وكان سخياً كريماً، وكان يبلغه عن الرجل أنّه يؤذيه؛ فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار[٢].

ويقي عليه السلام مدة في أيام المهدي في المدينة، يقوم بإرشاد الناس وهداية الخلق؛ الأمر الذي جعل المهدي يتخوّف من انتشار دعوته وقوّة جانبه، فلم يأمن وثبة الشيعة بقيادة الإمام موسى، فعمد إلى إبعاده عن المدينة وإقامته في بغداد تحت رقابة شديدة، أو أنّه سجنه كما هو المشهور.

ومكث عليه السلام في السجن مدة أشهر، ثم أطلقه المهدي لرؤيا رآها كما حدّث الفضل بن الربيع عن أبيه أنه لما حبس موسى بن جعفر عليه السلام رأى في النوم علي ابن أبي طالب وهو يقول: يا محمد (أي المهدي) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. قال الربيع: فأرسل إليّ ليلاً فجئته، فإذا هو يقرأ هذه الآية، وكان أحسن الناس صوتاً وقال: عليّ بموسى بن جعفر، فجئته فعانقه وأجلسه إلى جانبه وقال: يا أبا الحسن إني رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النوم يقرأ عليّ كذا، فتؤمنني أن لا تخرج عليّ أو على أحد من ولدي.

فقال عليه السلام: «والله لا فعلت ذاك ولا هو من شأني».

قال: صدقت. يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار، ورده إلى أهله إلى

---

(١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لأبي الفوز البغدادي ص٧٥.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٣ ص٢٥٧.

المدينة[١] . وعلى رواية الجنابذي في المعالم أنّه وصله بعشرة آلاف .

ومن هنا نستظهر أنّ المهدي لم يسجن موسى لشيء في نفسه من عداء أو اعتداء ، وإنما كان يحذره على ملكه من الزوال ، ولم يخش أي شخصية في عصره من جميع الطوائف والبيوت سوى الإمام موسى لمؤهلاته ومكانته في نفوس الأمة ، فهو يخشى من نهضة تطيح بعرشه ، ولا تكون إلاّ على يد الإمام .

ويمكننا القول بأنّ المهدي فرض عليه الإقامة الجبرية في بغداد ، وهيأ له مكاناً يسكن فيه ،كما يدل عليه قوله للربيع : وردّه إلى أهله في المدينة . إذ لو اقتصر على قوله : إلى أهله . فالمتبادر إلى محله المعدّ له في بغداد . فأكد عليه بقوله : أن ردّه إلى المدينة . فأسرع الربيع تجهيزه بسرعة خشية تبدل الأمر ، ويندم المهدي إلى إطلاقه .

وأقام صلوات الله عليه بالمدينة مدة أيام المهدي ، ولما ولي موسى الهادي فكانت واقعة فخ المروعة وقتل الحسين بن علي صاحب فخ ، وحمل رأسه والأسرى من أصحابه إلى موسى الهادي ، وأمر برجل من الأسرى ، فوبخه ثم قتله ، ثم صنع ذلك بجماعة من الطالبيين ، وجعل ينال منهم ، إلى أن ذكر موسى بن جعفر عليه السلام وقال : والله ما خرج حسيني إلاّ من أمره ، ولا اتّبع إلاّ محبته؛ لأنّه صاحب الوصية في أهل هذا البيت ، قتلني الله إن أبقيتُ عليه .

فقال له أبو يوسف القاضي : يا أمير المؤمنين أقول أم أسكت؟

فقال موسى : قتلني الله إن عفوت عن موسى بن جعفر ، ولولا ما سمعت من المهدي فيما أخبر به المنصور ما كان به جعفر من الفضل عن أهله في دينه

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج١٢ ص٢٦.

وعلمه وفضله ، وما بلغني عن السفّاح فيه من تقريضه وتفضيله لنبشت قبره .

فقال أبو يوسف : نساؤه طوالق ، وعتق جميع ما يملك من الرقيق ، وتصدّق بجميع ما يملك من المال ، وحبس دوابه ، وعليه المشي إلى بيت الله الحرام إن كان مذهب موسى الخروج ، ولا يذهب إليه ولا مذهب أحد من ولده ، ولا ينبغي أن يكون هذا منهم .

ولم يزل أبو يوسف يخاطب الهادي ، ويخفّف حدّة غضبه بكلام رقيق ، حتى سكن غضبه[1] .

وكتب علي بن يقطين[2] إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فلما وصل الخبر أخبر عليه السلام أهل بيته وشيعته ، وقال لهم : «ما تشيرون في هذا؟» فأشاروا عليه بأن يتوارى ويباعد بشخصه عن الطاغية .

فتبسم عليه السلام ثم تمثّل ببيت كعب بن مالك أخي بني سلمة :

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها   فَلَيُغْلَبَنَّ مُغلّب الغلاب

ثم أقبل على من حضر من مواليه ، وأهل بيته وقال : «ليفرغ روعكم ، إنه لا يرد أوّل كتاب من العراق إلّا بموت موسى الهادي وهلاكه» .

فقالوا : وما ذاك أصلحك الله ؟ ثم أخبرهم بأنّه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وشكا إليه موسى بن المهدي . وما جرى منه في أهل بيته . فقال

---

(١) عوالم العلوم للبحراني ج٢١ ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٢) من أكبر أصحاب الإمام الكاظم وأعظمهم منزلة وكان أبوه من وجوه الدعوة إلى الرضا من آل محمد فطلبه مروان فهرب . ولما قامت دولة بني العباس عمل يقطين مع السفّاح والمنصور وكان شيعياً يقول بالإمامة ويحمل الأموال إلى الإمام الصادق وكان علي من كبار رجال دولة بني العباس في عهد هارون الرشيد . ولما توفي صلى عليه ولي العهد محمد . له كتب منها ما سئل عنه الصادق من الملاحم وكتاب مناظرة الشاك بحضرته وله مسائل عن الإمام الكاظم . ولد رحمه الله في الكوفة سنة (١٢٤ هـ) وتوفي في بغداد سنة (١٨٢ هـ) .

رسول الله ﷺ «لتعب نفسك يا موسى ، فلا يجعل الله لموسى عليك سبيلاً» ثم قال ﷺ : «قد أهلك الله آنفاً عدوك ، فلتحسن لله شكرك»(١) .

وفي رواية الحافظ ابن شهرآشوب أنه ﷺ تمثّل بقول الشاعر:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً   أبشر بطول سلامة يا مربع

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال :

«إلهي كم من عدوٍ شحذ لي ضبة مدينه ، وأرهف لي شَبَا حدّه ، وداف لي غوائل سمومه ، ولم تنم عنّي عين حراسته ، فلما رأيت ضعفي من احتمال الفوادح ، وعجزي عن ملمّات الجوانح ، صرفت ذلك عنّي بحولك وقوتك ، لا بحولي وقوتي...» إلى آخر الدعاء .

ثم أقبل على أصحابه فقال لهم : «إنه لا يأتي أوّل كتاب من العراق إلّا بموت موسى بن المهدي» . ثم تفرّق القوم ، فما اجتمعوا إلّا لقراءة الكتب الواردة بموت موسى بن المهدي ، وفي ذلك يقول شاعر أهل البيت في وصف سرعة استجابة الدعاء :

وسارية لم تَسْرِ في الأرض تبتغي   محلاً ولم يقطع بها البعد قاطع
سرت حيث لم تحد الركاب ولم تنخ   لورد ولم يقصد بها العبد مائع
تمرّ وراء الليل والليل ضارب   بجثمانه فيه سمير وهاجع
تفتح أبواب السماوات دونها   إذا قرع الأبواب منهنّ قارع
إذا وفدت لم يردُد الله وفدها   على أهلها والله راءٍ وسامع
وإني لأرجو الله حتى كأنما   أرى بجميل الظنّ ما الله صانع(٢)

---

(١) عوالم العلوم للبحراني ج ٢١ ص ٢٣٢ .

(٢) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٧٩ ح ٧ .

وكان الإمام من جزاء حبّ الناس له وتقديسهم إيّاه يرجو أن لا يُظنّ به فوق مرتبته الدينية ومهمات إمامته ، ويبعد بالناس عن أسباب الغلو ، سأله أحدهم :

إنّي رأيت الليلة في منامي أنّي سألتك كم بقي من عمري ، فرفعت يدك اليمنى وفتحت أصابعها في وجهي مشيراً إليّ ، فلم أعلم خمس ستين أم خمسة أشهر أم خمسة أيام ؟ فقال عليه السلام : «ولا واحدة منهن ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالى بها في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ...»(١) .

من حكمه ومواعظه

«إياك أن تمنع في طاعة الله ، فتنفق مثليه في معصية الله» .

وقال له وكيله : ما خنتك . فقال : «خيانتك وتضييعك عليّ مالي سواء ، والخيانة أشرّهما عليك» .

وقال عليه السلام : «ليس حسن الجوار كفّ الأذى ، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى» .

وقال عليه السلام : «لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك ، وأبقِ منها ، فإنّ ذهابها ذهاب الحياء» .

وقال عليه السلام لبعض ولده : «يا بني إياك أن يراك الله في معصية نهاك عنها ، وإياك أن يفقدك الله عند طاعة أمرك بها ، وعليك بالجدّ ولا تخرجنّ نفسك من التقصير في عبادة الله وطاعته ، فإن الله لا يُعبد حق عبادته . وإياك والمزاح فإنّه يذهب بنور إيمانك ويستخف مروّتك . وإياك والضجر والكسل فإنّهما يمنعان حظك من الدنيا والآخرة» .

وقال عليه السلام : «إذا كان الجور أغلب من الحق ، لم يحلّ لأحد أن يظن بأحد خيراً حتى

---

(١) لقمان: ٣٤.

يعرف ذلك منه» .

وقال لعلي بن يقطين : «كفّارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان» .

وقال عليه السلام : «كلما أحدث الناس من الذنوب ما لم يكونوا يعملون ، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعدّون» .

وقال عليه السلام : «إذا كان الإمام عادلاً كان له الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان جائراً كان عليه الوزر وعليك الصبر» .

«إنّ صلاحكم من صلاح سلطانكم ، فإنّ السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم ، فاحبّوا له ما تحبّون لأنفسكم ، وأكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم» .

وقال عليه السلام : «أخذ أبي بيدي وقال : إن أبي محمد بن علي أخذ بيدي وقال : إن أبي علي بن الحسين أخذ بيدي وقال : يا بني إفعل الخير إلى كل من طلبه منك ، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه . وإن لم يكن له بأهل فكن أنت من أهله ، وإن شتمك رجل عن يمينك ، ثم حول إلى يسارك واعتذر إليك ؛ فاقبل منه» .

«إنّ أهل الأرض لمرحومون ما تحابّوا وأدّوا الأمانة وعملوا بالحق» .

«لا تضيّع حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه ، فإنّه ليس بأخٍ من ضيّعت حقّه ، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته» .

«من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به على نفسه وعياله ، كان كالمجاهد في سبيل الله ، فإن غلب عليه فليستدن على الله وعلى رسوله ، فإن مات ولم يقضه كان على الإمام قضاؤه ، فإن لم يقضه كان عليه وزره ، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ . . . الخ﴾ وهذا فقير مسكين مغرم» .

«الناس أشكال ، وكلّ يعمل على شاكلته ، والناس إخوان فمن كانت أخوته في غير ذات الله فإنها تعود عداوة ، وذلك قوله تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾» .

«من استحسن قبيحاً كان شريكاً فيه» .

«كفر النعمة داعية المقت ، ومن جازاك بالشكر فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك» .

«لا تضمر نفسك الظنّ على صديق قد أصلحك اليقين له ، ومن وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه» .

«لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى أن يبلغ ثماني عشرة سنة ، فإذا بلغها غلب عليه أكثرها فيه» .

«وما أنعم الله عزّ وجلّ على عبدٍ نعمة ، فعلم أنّها من الله ، إلّا كتب الله على اسمه شكرها له قبل أن يحمده عليها» .

«الشريف كل الشريف من شرفه علمه ، والسؤدد كل السؤدد لمن اتقى ربّه» .

«لا تعاجلوا الأمر قبل بلوغه فتندموا ، ولا يطولنّ عليكم الأمل فتقسو قلوبكم ، وارحموا ضعفاءكم ، واطلبوا الرحمة من الله بالرحمة منكم» .

«من أمّل فاجراً ، كان أدنى عقوبته الحرمان» .

«موت الإنسان بالذنوب أكبر من موته بالأجل» .

«لو كانت السموات والأرض رتقاً على عبد ، ثم اتقى الله يجعل الله له منهما فرجاً» .

«من وثق بالله وتوكّل على الله نجّاه الله من كل سوء وحرسه من كل عدو . والدين عزّ ، والعلم كنز ، والصمت نور ، وغاية الزهد الورع ، ولا هدم للدين مثل البدع ، ولا أفسد للرجال من الطمع . وبالراعي تصلح الرعية ، وبالدعاء تصرف البلية . ومن ركب مركب الصبر اهتدى إلى مضمار النصر . ومن غرس أشجار التقى اجتنى ثمار المنى» .

وقال عليه السلام لبشر بن سعد : «يا بشر ، للمحن أخريات ، فيجب على العاقل أن ينام لها إلى أدبارها ، فإن مكابدتها بالحيل عند إقبالها زيادة فيها»[1] .

(١) نور الأبصار للشبلنجي ص١٦٤ .

«كيف يضيع من الله كافله ، وكيف ينجو من الله طالبه» .

«إنّ لله عباداً يخصّهم بدوام النعم ، فلا تزال فيهم ما بذلوها ؛ فإن منعوها نزعها الله عنهم وحولها إلى غيرهم» .

«ما عظمت نعمة الله على أحد إلّا عظمت إليه حوائج الناس ، فمن لم يتحمل تلك المؤونة عرّض تلك النعمة للزوال . أهل المعروف إلى ما يصطنعون أحوج من أهل الحاجة إليه ، لأنّ لهم أجره وفخره وذكره ، فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه نفسه» .

«من أجلّ إنساناً هابه ، ومن جهل شيئاً عابه ، والفرصة خلسة» .

«من استغنى بالله افتقر الناس إليه ، ومن اتقى الله أحبه الناس» .

«الجمال في اللسان ، والكمال في العقل» .

«العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة البلاء ، والتواضع زينة الحسب ، والفصاحة زينة الكلام ، والحفظ زينة الرواية ، وخفض الجناح زينة العلم ، وحسن الأدب زينة الورع ، وبسط الوجه زينة القناعة» .

«حسب المرء من كمال المروة أن لا يلقى أحداً بما يكره ، ومن حسن خلق الرجل كفّه أذاه ، ومن سيمائه برّه بمن يجب حقه عليه ، ومن إنصافه قبول الحقّ إذا بان له ، ومن نصحه نهيه عمّا لا يرضاه لنفسه ، ومن حفظه لجواره ، تركه توبيخه ، ومن رفقه تركه عذلك بحضرة من تكره ، ومن حسن صحبته لك إسقاطه عنك مؤونة التحفّظ ، ومن علامة صداقته كثرة موافقته وقلة مخالفته ، ومن شكره معرفة إحسان من أحسن إليه ، ومن تواضعه معرفته بقدره ، ومن سلامته قلّة حفظه لعيوب غيره وعنايته بصلاح عيوبه» .

«من أخطأ وجوه المطالب خذلته الحيل ، والمطامع في وثاق الذل» .

«العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم» .

«الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت» .

«ثلاث يبلغن بالعبد رضوان الله كثرة الاستغفار ، ولين الجانب ، وكثرة الصدقة» .

«ثلاث من كنّ فيه لم يندم : ترك العجلة ، والمشورة ، والتوكل على الله عند العزم» .

«لو سكت الجاهل ما اختلف الناس» .

«مقتل الرجل بين فكّيه ، والرأي مع الأناة ، وبئس الظهر الرأي الفطير» .

«ثلاث خصال تجتلب بهنّ المودّة : الإنصاف في المعاشرة ، والمواساة في الشدّة ، والانطواء على قلب سليم» .

وقال ﷺ لهشام : «من أراد الغنى بلا مال ، وراحة القلب من الحسد ، والسلامة في الدين ؛ فليتضرّع إلى الله عزّ وجلّ في مسألته بأن يكمل عقله . فمن عقل قنع بما يكفيه ، ومن قنع بما يكفيه استغنى ، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى»(١) .

أولاده

أنجب الإمام موسى بن جعفر عدة أولاد ذكوراً وإناثاً ، وكانوا مثالاً للفضل وصورة صادقة للخلق الإسلامي الكامل ، يقول الشيخ الطوسي : إنّ لكل واحد من أولاد أبي الحسن موسى فضلاً ومنقبة مشهورة(٢) .

وقد وقع اختلاف في تحديد عدد تلك الذرية الطيبة ، فمن قائل: إنّهم ثلاثة وثلاثون الذكور منهم ، والإناث ست عشرة . وقيل : الذكور ٣٧ والإناث ١٩ . أو أن الذكور ٣٨ والإناث ١٨ . والمشهور أنّ ذريته ﷺ سبعة وثلاثون ولداً ذكراً وأُنثى . أما الذكور فهم : إبراهيم والعباس والقاسم ، لأُمهات أولاد ، وإسماعيل وجعفر وهارون والحسن لأُم ولد ، وأحمد

---

(١) انظر بحار الأنوار ج٧٥ ص٢٦٩ ـ ٣٣٤ .

(٢) لم نعثر عليه في كتب الشيخ الطوسي رحمه الله، انظر عوالم العلوم للبحراني ج ٢١ ص ٣٢١ الذي نقله من الشيخ المفيد عليه الرحمة .

ومحمد وحمزة لأُم ولد ، وعبدالله وإسحاق وعبيدالله وزيد والحسن والفضل وسليمان لأُمهات أولاد .

أمّا البنات فهن : فاطمة الكبرى ، وفاطمة الصغرى ، وكلثم ، وأُم جعفر ، ولبابة ، وزينب ، وخديجة ، وعليّة ، وآمنة ، وحسنة ، وبريهة ، وعائشة ، وأُم سلمة ، وميمونة ، وأُم كلثم .

هكذا ذكرهم الشيخ المفيد(١) عليه الرحمة . وقال ابن الخشاب : ولد له عشرون ولداً ذكراً وثماني عشرة بنتاً(٢) .

وعدّهم في صحاح الأخبار(٣) سبعة وثلاثين ولداً بين ذكر وأُنثى ، ثم ذكرهم مع اختلاف بسيط بين ما ذكرهم وبين ما قدمناه .

وقد اختلفوا فيمن أعقب من أولاده عليه السلام وقد اتفقوا على أن عقبه من عشرة من أولاد ، وقيل أربعة عشر .

---

(١) الإرشاد ص ٢٤٠ .

(٢) كشف الغمة ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق .

الإسماعيلية والإمامة

مرّت الإمامة في عهد أبي جعفر المنصور بأدوار غاية في الصعوبة ـ كما رأينا ـ وقد تمكن الإمام الصادق ﷺ أن يجتاز دوائر الهلاك التي وضعها الحاكم الظالم وأن يجنّب أصحابه وشيعته ابتلاءات الحديد ، وأن لا يعضّهم سيف الحكام قدر الإمكان ، وقد علم الإمام الصادق ـ بما وهبه الله من حكمة ومعرفة بالأحوال ـ إنّ غدر المنصور لن ينتهي ، وأنّه يتربص الفرص للانتقام من أهل بيت النبوة ، فكان تدبيره الوصية بالشكل الذي يفوّت على المنصور الفرصة ، فلما توفي الإمام الصادق ﷺ وبلغ المنصور الخبر ، كتب : إن كان أوصى الإمام الصادق إلى رجل بعينه يقدّم ويُضرب عنقه . فرجع إليه الجواب أنّه أوصى إلى خمسة نفر: أحدهم أبو جعفر المنصور ومحمد بن سليمان وعبدالله وموسى وحميدة . وفي رواية أُخرى : أن الإمام الصادق ﷺ أوصى إلى أبي جعفر المنصور وموسى ومحمد بن جعفر أولاده ، ومولى لأبي عبدالله ﷺ . فقال أبو جعفر المنصور : ليس إلى قتل هؤلاء سبيل[1] .

وسنرى أنّ أمر الوصية وتدبيرها على هذا الشكل قد مرّ بمرحلتين:

الأولى : الإعداد للوصاية والتهيّؤ للإمامة ، وإظهار ابنه موسى في منزلتهما لدى شيعة أهل البيت؛ حتى إذا وضح في أذهان الناس النص واستقروا على الأمر ، أتبعه الإمام الصادق بالتدبير التالي.

والمرحلة الثانية: التي قصد بها كفّ الأذى عن وصيّه وإمام الناس من بعده ،

---

(١) الغيبة للشيخ الطوسي ص١٠٨، ومنهج الدعوات للسيد ابن طاووس ص٢٥٩.

وهو تدبير أحبط مسعى عدوهم ، وأسقط في يده . ولولا هذا التدبير الذي أراده الله ، لنفذ الدوانيقي ماكان يتمناه ، فكان الرشيد من تولى الجريمة ، ولكن بعد أن قام الإمام الكاظم بالتبليغ ، ونفذ الرسالة والأحكام ، وهكذا الحكّام من الأمويين والعباسيين يتوارث الخلف عن السلف مهمة قتل أبناء النبوة وإنزال المصائب بأهل البيت الكرام .

روى ابن شهرآشوب في المناقب[1] عن داود بن كثير الرقي قال : أتى أعرابي إلى أبي حمزة الثمالي فسأله خبراً فقال : توفي جعفر الصادق ، فشهق شهقة وأُغمي عليه . فلما أفاق قال : هل أوصى إلى أحد؟ قال : نعم ، أوصى إلى ابنه عبدالله وموسى وأبي جعفر المنصور . فضحك أبو حمزة وقال : الحمد لله الذي هدانا إلى الهدى ، وبيّن لنا عن الكبير ، ودلنا على الصغير ، وأخفى عن أمر عظيم . فسئل عن قوله ؟ فقال : بيّن عيوب الكبير ، ودل على الصغير لإضافته إياه ، وكتم الأمر بالوصية للمنصور ، لأنّه لو سأل المنصور عن الوصي . لقيل : أنت[2] .

ويورد الشيخ المفيد أمر الوصية مورد الدلالة على النص بالوصية للإمام موسى بن جعفر ، وينفي ـ رحمه الله ـ ذكر الإمام الصادق لأحد من أولاده مع ولده موسى ، ويقول :

وقد تظاهر الخبر فيما كان عن تدبير أبي عبدالله جعفر بن محمّد ﷺ وحراسة ابنه موسى بن جعفر ﷺ بعد وفاته من ضرر يلحقه بوصيته إليه ، وأشاع الخبر عن الشيعة إذ ذاك باعتقاد إمامته من بعده ، والاعتماد على حجتهم

---

(١) المناقب لابن شهرآشوب ج٣ ص٤١٩ .

(٢) أعيان الشيعة للسيد العاملي ج٤ ص٢٢٦ .

لذلك على إفراده بوصية مع نصه عليه بنقل خواصه ، فعدل عن إفراده بالوصية عند وفاته ، وجعلها إلى خمسة نفر أولهم المنصور ، وقدّمه على جماعتهم ، إذ هو سلطان الوقت ومدبر أهله ، ثم صاحبه الربيع من بعده ، ثم قاضي وقته ، ثم جاريته وأم ولده حميدة البربرية ، وختمهم بذكر ابنه موسى بن جعفر عليه السلام يستر أمره ويحرس بذلك نفسه ، ولم يذكر مع ولده أحداً من أولاده لعلمه بأنّ منهم من يدّعي مقامه من بعده ، ويتعلق بإدخاله في وصيته ، ولو لم يكن موسى عليه السلام ظاهراً مشهوراً في أولاده ، معروف المكان منه وصحة نسبه واشتهار فضله وعلمه وحكمته وامتثاله وكماله ، بل كان مثل ستر الحسن عليه السلام ولده لما ذكره في وصيته ، ولاقتصر على ذكر غيره ممن سمّيناه ، لكنه ختمهم في الذكر به كما بيّناه[1] .

ويتّجه القول إذا علمنا أنّ عبدالله كان يظهر المخالفة لأبيه الإمام الصادق ، روى الفضل عن طاهر بن محمّد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: رأيته يلوم عبدالله ابنه ويعظه ويقول له: «ما يمنعك أن تكون مثل أخيك ، فوالله إني لأعرف النور في وجهه؟» فقال عبدالله: وكيف أليس أبي وأبوه واحداً ، وأصلي وأصله واحداً؟ فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «إنّه من نفسي ، وأنت ابني»[2] .

وإنّ عبدالله أفطح الرجلين ، ناقص التكوين . يروي الشيخ المفيد أنّ جماعة من أصحاب الإمام الصادق كانوا في المدينة ، فسألوا عبدالله ـ وقد اجتمع عليه من ظن بإمامته بعد أبيه ـ فسألوه عن الزكاة في كم تجب؟ فقال في كل مائتي درهم خمسة دراهم ، فقالوا له: ففي مائة؟ قال درهمان ونصف ،

(١) الفصول العشرة ضمن سلسلة «مؤلفات» الشيخ المفيد ج٣ ص ٧٠.

(٢) الإرشاد ص ٢٧١ .

فقالوا: والله ما تقول المرجئة هذا . فقال: والله ما أدري ما تقول المرجئة(١) .

ويتبيّن بذلك جهل عبدالله بأحكام الشريعة ، وعدم أهليته لاحتلال مكان أبيه ، وقد وشحت أنوار الإمامة وجه أخيه موسى متذكاف في المهد ، فكان الإمام الصادق يقف على رأسه وهو في المهد ويسارّه طويلاً ، وروى الوشاء عن علي بن الحسين ، عن صفوان الجمّال قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن صاحب هذا الأمر ، فقال: «إن صاحب هذا الإمر لا يلهو ولا يلعب» فأقبل أبو الحسن عليه السلام وهو صغير ومعه بهمة ـ ولد البقر أو المعز أو الضأن ـ وهو يقول لها: «أسجدي لربك» فأخذه أبو عبدالله عليه السلام وضمّه إليه وقال: «بأبي وأمي من لايلهو ولا يلعب»(٢) .

وكان الإمام الصادق يميّزه عن أولاده ، ويفضّله عليهم ويقول: «هؤلاء أولادي ، وهذا سيّدهم»(٣) . ولشدّة حب الإمام الصادق عليه السلام له قيل له: ما بلغ من حبك لموسى؟ قال عليه السلام: «وددت أن ليس لي ولد غيره ، لئلا يشركه في حبي أحد»(٤) .

وروى محمّد بن الوليد قال: سمعت علي بن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يقول: سمعت أبا جعفر بن محمّد عليه السلام يقول لجماعة من خاصته وأصحابه: «استوصوا بابني موسى عليه السلام خيراً ، فإنّه أفضل ولدي ، ومن أخلف من بعدي ، وهو القائم مقامي ، والحجة لله تعالى على كافة خلقه من بعدي»(٥) .

وقد ذكر الشيخ المفيد جماعة ممن رووا صريح النص بالإمامة من أبي

---

(١) الإرشاد ج٢ ص٢٢١ .

(٢) الإرشاد ج٢ ص٢١٦.

(٣) ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ص٤٤٢ .

(٤) الإتحاف للشبراوي الشافعي ص١٤٨.

(٥) إعلام الورى ص٢٩٩ .

عبدالله ﷺ على ابنه أبي الحسن موسى ﷺ من شيوخ أصحاب الإمام الصادق وخاصته وثقاته الفقهاء الصالحين رحمة الله عليهم ، منهم: المفضل بن عمر الجعفي ، ومعاذ بن كثير ، وعبدالرحمن بن الحجّاج ، والفيض بن المختار ، ويعقوب السرّاج ، وسليمان بن خالد ، وصفوان الجمّال وغيرهم ممن يطول ذكرهم . وقد روي ذلك من أخوي الإمام الكاظم ، إسحاق وعلي . وكانا من الفضل والورع على ما لا يختلف فيه اثنان .

فروي عن المفضل بن عمر الجعفي رحمه الله قال: كنت عند أبي عبدالله ﷺ فدخل أبو إبراهيم موسى ﷺ ـ وهو غلام ـ فقال لي أبو عبدالله ﷺ: «استوص به ، وضع أمره عند من تثق من أصحابك» .

وروي عن معاذ بن كثير عن أبي عبدالله ﷺ قلت: أسأل الله الذي رزق أباك منك هذه المنزلة أن يرزقك من عقبك قبل الممات مثلها ، فقال: «قد فعل الله ذلك» قلت: من هو جعلت فداك؟ فأشار إلى العبد الصالح وهو راقد فقال: «هذا الراقد» وهو يومئذٍ غلام .

وعن عبدالرحمن بن الحجّاج قال: دخلت على جعفر بن محمّد ﷺ في منزله ، فإذا هو في بيت كذا من داره ، في مسجد له وهو يدعو ، وعلى يمينه موسى بن جعفر ﷺ يؤمّن على دعائه . فقلت له: جعلني الله فداك ، قد عرفت انقطاعي إليك وخدمتي لك ، فمن وليّ الأمر بعدك؟ قال: «يا عبدالرحمن ، إنّ موسى قد لبس الدرع واستوت عليه» فقلت له: لا أحتاج بعد هذا إلى شيء .

وعن الفيض بن المختار قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: خذ بيدي من النار ، من لنا بعدك؟ قال: فدخل أبو إبراهيم وهو يومئذٍ غلام . فقال: «هذا صاحبكم فتمسّك به» .

وعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبدالله ﷺ: بأبي أنت وأمي ، إن

الأنفس يُغدا عليها ويراح ، فإذا كان ذلك فمن؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إذا كان ذلك فهو صاحبكم» وضرب على منكب أبي الحسن الأيمن ، وهو فيما أعلم يومئذٍ خماسي[1].

وصفوة القول: أنّ الروايات تتعاضد في إثبات النزعات إلى الإمامة من بين أولاد الإمام الصادق ، وهو أمر توهموه بالعاطفة وتمنّوه؛ لأنّ الإمامة تجري بدلائل وتتم بشروط ، فيهتدي بيسر إلى صاحبها ، وتصرح السجايا والأعمال باكتمال الشروط ، وهو أمر معلوم أصحابه في عدد معين وشخوص مثبتين ، وقد مرّ بنا كيف كانت علامات الإمامة وإمارات الانتساب إلى البيت النبوي في جواب الإمام الكاظم إلى أبي حنيفة .

فذاع عن أصحاب الإمام الصادق يومئذٍ ماكان الإمام يقوم به في رعاية وصيّة الإمام موسى ، وانتشر ماكان يوصيه به . منها: «يا بني اقبل وصيتي ، واحفظ مقالتي ، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً وتمت حميداً ، يا بني إنه من قنع بما قسم الله استغنى، ومن مدّ عينه الى ما في يد غيره كان فقيراً، ومن لم يرضَ بما قسم الله عزّ وجلّ له اتهم الله في قضائه ، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره ، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه . يا بني، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن سلّ سيف البغي قُتل به ، ومن احتفر لأخيه سقط فيه، ومن خالط السفهاء حقّر، ومن خالط العلماء وقّر، ومن دخل مداخل السوء اتهم . يا بني قل الحقّ لك وعليك ، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال ، يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه»[2] .

ومعلوم أنّ العصر الذي خضنا في بحثه هو من أخطر العصور السياسية

---

(١) الإرشاد للشيخ المفيد ج٢ ص٢١٨.

(٢) صفة الصفوة ج٢ ص٩٥ و٩٦.

وأشدها على شيعة أهل بيت النبي وأئمتهم المعصومين ﷺ، وقد كانت الوصية بالشكل الذي ارتآه من التدبير للإبقاء على حياة وصيه وحمايته من ظلم المنصور وحقده، فتولى الإمام الكاظم أعباء الإمامة وهو يعلم ما عليه المنصور من ظلم واعتداء ، فحرص على أن لا يذاع أمره ولا تنتشر أجوبته ومسائله ، فقد كان يقول لمن يجيبه: «فإذا أذعت فهو الذبح»[1] .

ولكن من خَلَف المنصور كان أعتى وأعدى ، وقد رأينا ماذا كان عليه المهدي ، بعد أن أخذ الإمام الكاظم في المدينة يحتل مكانته ويقوم باستقبال الوفود والطلاب من كافة الأقطار . ثم جاءت فترة حكم الرشيد ، وبدأ وجود الإمام الكاظم يقض مضجع الرشيد العباسي ، وعلى عادتهم إذ كانوا يتخذون الحج ذريعة للوصول إلى مواقع الأئمة من أهل البيت ، فحج مرة واجتمع بالإمام الكاظم عند الكعبة ، وقال له الرشيد: أنت الذي يبايعك الناس سراً؟ فقال له الإمام ؑ: «أنا إمام القلوب ، وأنت إمام الجسوم»[2] .

ولا يَدَع الإمام لهارون الرشيد فرصة يفتخر بها على المسلمين بالانتساب إلى النبي محمّد ﷺ ولا يتركه يتمتّع ويدلّ بشرف القرابة التي يستعملها لظلمه ، فلمّا حج هارون الرشيد مرة ، فأتى قبر النبي ﷺ زائراً له ، وحوله قريش وأفياء القبائل، ومعه الإمام موسى الكاظم، فلمّا انتهى إلى القبر قال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمي ، افتخاراً على من حوله ؛ فدنا الإمام موسى بن جعفر فقال: «السلام عليك يا أبة» فتغير وجه هارون وقال: هذا الفخر يا أبا الحسن حقاً[3] . وفي بعض الروايات أنّ الإمام الكاظم أجابه:

---

(١) بحار الأنوار ج٤٧ ص٣١٤.

(٢) الإتحاف ص٥٥.

(٣) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣١، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ص٣٥٦، وتاريخ ابن كثير ج١٠ ص١٨٣.

«وعليك السلام يا عبدالله» فلم يحتملها الرشيد[1] .

ولمّا قرب الرشيد من المدينة ، استقبله الوجوه من أهلها ، وتقدمهم الإمام الكاظم على بغلة ، فقال له الربيع: ما هذه الدابة التي تلقيت عليها أمير المؤمنين ، وأنت إن طَلَبْتَ عليها لم تُدرِك ، وإن طُلِبْتَ لم تَفُتْ؟ فقال: «إنّها تطأطأت عن خيلاء الخيل ، وارتفعت عن ذلّة العير ، وخير الأُمور أوساطها»[2] .

ولم يكن الإمام الكاظم ليخشى الرشيد في أمر هو فيه الحَكَمَ وإليه المفزع ، فهو صاحب السلطة الروحية ، وإليه أمر الشريعة ، فسأله محمّد بن الحسن يوماً ـ بمحضر الرشيد وهو بمكة ـ فقال: يجوز للمحرم أن يظلّل محمله؟ فقال الإمام: «لا يجوز له ذلك مع الاختيار» فقال محمّد بن الحسن: أفيجوز له أن يمشي تحت الظلال؟ فقال له: «نعم» فتضاحك محمد بن الحسن من ذلك . فقال له الإمام عليه السلام «أتعجب من سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتستهزئ به ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كشف ظلاله في إحرامه ، ومشى تحت الظلال وهو محرم ، إن أحكام الله لا تقاس ، فمن قاس بعضها على بعض فقد ضلّ عن سواء السبيل» فسكت محمد بن الحسن لا يُرجع جواباً[3] .

وتبيّن الأحاديث والأسئلة التي دارت بين الرشيد وبين الإمام طوايا نفس الرشيد ، وما ضمّت جوانحه من غيظ على الكاظم لتمتّعه بمنزلة الإمامة وبرتبة الولاية الشرعية التي تنقاد لها القلوب ، حتى كان لا يملك إخفاء ذلك ، ويقول لبنيه في حقّ الإمام موسى الكاظم: «هذا إمام الناس ، وحجة الله

---

(١) الإتحاف ص٥٥ .

(٢) روضة الواعظين ص٢٥٨ .

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص١٦٨ .

على خلقه ، وخليفته على عباده . أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر ، والله إنّه لأحقّ بمقام رسول الله ﷺ منّي ومن الخلق[١] .

وكان المأمون في خلافته يقول: كان الرشيد سمع جميع ما يجري بيننا ـ وبين أخيه الأمين ـ من موسى بن جعفر ولذلك قال ما قال[٢] . وتصديقاً منه لما قاله الإمام الكاظم له من أنّه إمام القلوب والرشيد إمام الجسوم . ويظلّ الرشيد على ما تقتضيه سلامة الملك ودوام الحكم باحثاً عن ألوان من الإساءة في الألفاظ والتصرف ، وساعياً إلى النيل من المنزلة والرتبة التي حبا الله بهما الإمام الكاظم ، فيسأل الرشيد الإمام الكاظم: أخبرني لم فُضّلتم علينا ونحن وأنتم من شجرة واحدة ، وبنو عبد المطلب ونحن وأنتم واحد ، إنّا بنو عباس ، وأنتم ولد أبي طالب ، وهما عمّا رسول الله ﷺ وقرابتهما منه سواء؟

فقال الإمام: «نحن أقرب» قال: وكيف ذاك؟ قال الإمام: «لأنّ عبدالله وأبا طالب لأب وأم ، وأبوكم العباس ليس هو من أم عبدالله ولا من أم أبي طالب» .

قال: فَلِمَ ادّعيتم أنكم ورثتم النبي ﷺ والعمُّ يحجب ابن العم ، وقبض رسول الله ﷺ وقد توفي أبو طالب قبله والعباس عمه حي؟ فقال له: «إنْ رأى أمير المؤمنين أن يعفيني عن هذه المسألة ، يسألني عن كل باب سواه يريده» .

فقال: لا ، أو تجيب .

فقال الإمام: «فآمنّي» .

قال الرشيد: أمنتك قبل الكلام .

فقال الإمام: إنّ في قولك علي بن أبي طالب ﷺ إنّه ليس مع ولد الصلب

(١) عوالم العلوم للبحراني ج ٢١ ص ٢٤٧ .

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميري ج ١ ص ١١٠ .

ذكراًكان أو أنثى لأحد سهم إلّا الأبوين والزوج والزوجة ، ولم يثبت للعم مع ولد الصلب ميراث ، ولم ينطق به الكتاب العزيز والسنة ، إلّا أن تيماً وعدياً وبني أُمية قالوا: العلم والد . رأياً منهم بلا حقيقة ، ولا أثر عن رسول الله ﷺ ، ومن قال بقول علي من العلماء قضاياهم خلاف قضايا هؤلاء . هذا نوح بن دراج يقول في هذه المسألة بقول علي وقد حكم به إلى أن قال ﷺ: «إن النبي ﷺ قال: أقضاكم علي . وكذلك عمر بن الخطاب قال: علي أقضانا . وهو اسم جامع ، لأن جميع ما مدح به النبي ﷺ أصحابه من القرابة والفرائض والعلم داخل في القضاء» .

قال الرشيد: زدني يا موسى .

قال الإمام الكاظم: «المجالس بالأمانات ، وخاصة مجلسك» .

فقال: لا بأس به .

قال الإمام الكاظم: «إن النبي لم يورث من لم يهاجر ، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر» .

فقال: ما حجتك فيه؟

قال الإمام: «قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [1] وإن عمّي العباس لم يهاجر» .

فقال له الرشيد: إني أسألك يا موسى ، هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا أو أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟

فقال الإمام: «اللهم لا...» .

ونحو ذلك ما أثاره الرشيد التماساً للطعن والإساءة؛ لأنّ عامل القرابة من

---

(١) الأنفال: ٧٢.

الرسول كان من أهم العوامل التي أقام عليها العباسيون صبغتهم الدينية وصفتهم الشرعية ، إذ سأل الإمام الكاظم: جوّزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول الله ﷺ ويقولوا لكم: يا بني رسول الله ، وأنتم بنو علي . وإنّما ينسب المرء إلى أبيه ، وفاطمة إنما هي وعاء . والنبي جدّكم من قبل أمكم ؟

فقال: «يا أمير المؤمنين . لو أنّ النبي نُشر فخطب إليك كريمتك ، هل كنت تجيبه؟» .

قال: سبحان الله! ولم لا أجيبه؟ بل افتخر على العرب والعجم وقريش بذلك .

فقال الإمام: «لكنه لا يخطب إليّ ولا أزوجه» .

فقال الرشيد: ولم؟

قال الإمام: «لأنه ولدني ولم يلدك» .

فقال: أحسنت يا موسى! ثم قال:كيف قلتم إنّا ذرية النبي والنبيّ لم يعقب ، وإنّما العقب الذكر لا الأنثى ، وأنتم ولد الابنة ، ولا يكون ولدها عقباً له...الخ حديثه .

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ من الصالحين﴾»[1] .

فقال: ليس لعيسى أب .

فقال الإمام: «إنما ألحقناه بذراري الأنبياء ﷺ من طريق مريم ﷺ وكذلك ألحقنا بذراري النبي ﷺ من قبل أمّنا فاطمة . أزيدك يا أمير المؤمنين؟» .

قال: هات .

---

(١) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥ .

فقال الإمام: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1] ولم يدّعِ أحد أنّه أدخله النبي ﷺ تحت الكساء عند مباهلة النصارى إلّا علي بن أبي طالب ﷺ وفاطمة والحسن والحسين ، أبناءنا: الحسن والحسين ، ونساءنا: فاطمة ، وأنفسنا: علي بن أبي طالب ﷺ ـ على أنّ العلماء قد أجمعوا على أنّ جبرئيل قال يوم أحد: «يا محمّد، إنّ هذه لهي المواساة من علي» قال: «لأنه مني وأنا منه» فقال جبرئيل: «وأنا منكما يا رسول الله» . ثم قال: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي» ، فكان كما مدح الله عزّ وجلّ به خليله ﷺ إذ يقول: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[2] إنا نفتخر بقول جبرائيل إنّه منّا»[3] .

ومن جميع الروايات ، تظهر لنا صورة الرشيد الحاكم الذي يعاني أشدّ المعاناة من الوجود الشخصي للإمام الكاظم ، ويحتال بمختلف السبل للنيل منه أو الغضّ من المكانة الروحية التي يعجز هو ـ بحكمه وجبروته ـ عن تحقيق أربه وغرضه ، ولم يظفر بشيء في كل تلك المحاولات ، فالنفوس تهفو إلى أهل البيت ، ولا يزداد محبّوهم إلّا منعة وتمسّكاً . والإمام الكاظم احتلّ منصب الإمامة ، بالعهد ، فكان أهلاً لما قدّر له وما جرى به سابق علم الرب تعالى ، فأيّ وجه للمدافعة والمقارنة بين سلطة تقوم بأمر الله وهدى الإسلام ، وبين حكم يقوم بالقهر والغلبة؟ وقد اتفق المخالف والمؤالف على

---

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) الأنبياء: ٦٠.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج٢ ص١٦٣ ـ ١٦٥، وعن عيون أخبار الرضا للصدوق ج١ ص٨١ ح٩، ونور الأبصار للشبلنجي ص٥٦.

عظيم منزلة الإمام الكاظم .

روى الخطيب البغدادي: كان موسى بن جعفر يُدْعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده . روى أصحابنا أنّه دخل مسجد رسول الله ﷺ فسجد سجدة في أوّل الليل ، وسُمع وهو يقول في سجوده : «عظم الذنب عندي ، فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى يا أهل المغفرة» فجعل يرددها حتى أصبح . وكان يبلغه عن الرجل أنّه يؤذيه ، فيبعث إليه بصرّة فيها ألف دينار ، وكان يصرّ الصّرر ثلاثمائة دينار وأربعمائة دينار ومائتي دينار ، ثم يقسّمها بالمدينة . وكان مثل صرر موسى بن جعفر إذا جاءت الإنسان الصرّة فقد استغنى[1] .

يقول الشبلنجي : كان الإمام موسى الكاظم أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم كفاً ، وأكرمهم نفساً ، وكان يتفقّد فقراء المدينة ، فيحمل إليهم الدراهم والدنانير إلى بيوتهم ليلاً ، وكذلك النفقات ، ولا يعلمون من أي جهة وصلهم ذلك إلاّ بعد موته[2] .

ولم يتمكن الرشيد ـ بسلطانه الغاشم ـ من أن يحجب نور الإمام بحبسه الإمام الكاظم ، بل كان المكلّفون به لا يملكون إلاّ تقديسه وتبجيله ، ومن وراء القضبان كانت أخبار الإمام الكاظم أشدّ تأثيراً على العباسيين . عن عمار ابن ابان، يروي الخطيب ، قال : حبس أبو الحسن موسى بن جعفر عند السندي ، فسألته أُخته أن تتولى حبسه ـ وكانت تتدين ـ ففعل ، فكانت تلي خدمته ، فحكي لنا أنّها قالت : كان إذا صلى العتمة حمد الله ومجّده ودعاه ، فلم يزل كذلك حتى يزول الليل ، فإذا زال ، قام يصلي حتى يصلي الصبح ، ثم

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٢٧ .

(٢) نور الأبصار ص ١٦٤ .

يذكر قليلاً حتى تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى ، ثم يتهيأ ويستاك ويأكل ، ثم يرقد إلى قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلّي حتى يصلي العصر ، ثم يذكر في القبلة حتى يصلّي المغرب ، ثم يصلّي ما بين المغرب والعتمة ، فكان هذا دأبه . فكانت أخت السندي إذا نظرت إليه قالت : خاب قوم تعرّضوا لهذا الرجل ، وكان عبداً صالحاً..[1] . وتروى له الكرامات والفضائل في السجون الأُخرى التي كان بها الإمام الكاظم ، وقد رويت في المصادر التي ذكرت سيرته عليه السلام .

وكان الإمام الكاظم لا ينفك في سجنه يصف الرشيد بالطاغية ، ويحذّر حاشيته مما ينتظرهم على يديه ، وأبى أن يعطي الدنية في دينه فيقرّ للظلمة بسلطان أو يوافقهم على ما يريدون ، فكان الإمام الكاظم غمّاً على الرشيد ينغّص عليه عيشه وملذاته ولهوه ، وقد حيّرت الرشيد الدلائل والمعجزات التي ظهرت للإمام الكاظم ، فاستعان بيحيى بن خالد البرمكي وقال له : يا أبا علي، أما ترى ما نحن فيه من هذه العجائب ، ألا تدبّر في أمر هذا الرجل تدبيراً يريحنا من غمه؟ فقال له يحيى : الذي أراه لك يا أمير المؤمنين أن تمنن عليه وتصل رحمه ، فقد والله أفسد علينا قلوب شيعتنا . فقال هارون : انطلق إليه وأطلق عنه الحديد ، وأبلغه عنّي السلام ، وقل له : يقول لك ابن عمك إنه قد سبق منّي فيك يمين أني لا أخليك حتى تقرّ لي بالإساءة وتسألني العفو عما سلف منك ، وليس عليك في إقرارك عارٌ ولا في مسألتك إياي منقصة . ولما قام يحيى بالمهمة حذّره الإمام الكاظم مما ينتظره وقال له: «انظر إذا سار هذا الطاغية إلى الرقة وعاد إلى العراق لا يراك ولا تراه لنفسك ، فإني

---

(١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣١.

رأيت في نجمك ونجم ولدك ونجمه أنه يأتي عليكم فاحذروه، ثم قال : أبلغه عني : يقول لك موسى بن جعفر ، رسولي يأتيك الجمعة ، فيخبرك بما ترى ، وستعلم غداً إذا حاكمتك بين يدي الله مَن الظالم والمعتدي على صاحبه والسلام»[1]؟

وبعث إليه الإمام ﷺ من الحبس رسالته التي يقول فيها : «إنّه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلّا انقضى عنك يوم من الرخاء ، حتى نفضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون»[2] .

ولقد كان من خوف الرشيد وفزعه من الإمام الكاظم أنّه وضع العيون على الإمام الكاظم وهو في سجنه ، فكانوا يرفعون إلى الولاة والبلاط العباسي أحواله في العبادة وأوضاعه في الديانة ، وكتب بعض العيون التي كانت عليه أنّه سمعه ﷺ يقول في دعائه : «اللهم إنك تعلم أني كنت سألتك أن تفرغني لعبادتك ، اللهم قد فعلت»[3] .

وبالجملة فإنّ الشيعة قد اتجهت إلى الإمام الكاظم وأخذت الوفود تفد على المدينة من الأقطار المختلفة للانتهال من علم الإمام والاستفسار عن الأُمور التي تهمّها ، وتحصيل الإجابات المطلوبة ، وقد كان أخبار الأموال التي تُحمل إلى الإمام من أكبر الأُمور التي جعلت الرشيد في حال من الضيق والرعب . ونظر إلى طبيعة العلاقة بين الإمام وبين شيعة أهل البيت نظرته إلى اعتبار الجباية وجمع الأموال أساس الملك؛ لأنها مصدر الإسراف والبذخ في قصور العباسيين ، وبها قوة الدولة ، وحسب أنّ إقبال الناس على الإمام الكاظم ، وأخبار جوده وسخائه بداية ثورة تقوّض ملكه وعرش آبائه . فكان يرى أنّ

(1) انظر الغيبة للشيخ الطوسي ص ٢٠ .

(2) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ٢ ص ١٨٧، وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ٣٢.

(3) بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١٠٧ .

اختلاف الناس إلى إمامهم ، وحملهم العبادات المالية المفروضة إلى جهتها الشرعية تمرّد عليه وحركة ضده ، سيما وأنّ الإمام عليه السلام كان يُشعر الرشيد بأنّ له في السلطان الذي هو فيه رأياً ، فإضافة إلى بيانه عليه السلام للرشيد بأنّ سلطة الرشيد هي على الجسوم ، وأنّه إمامها . بمعنى قائدها وسلطان زمانها ، تنساق وراءه بحكم القوة والقهر ، وأما سلطته عليه السلام فهي منصوبة على الإيمان بالعقيدة والاقتداء بهدي الرسالة المحمدية ، فقد بيّن له الإمام عليه السلام أنّ الدولة التي عليها ملكه وتخضع لحكمه هي بمنزلة ما يخص أهل البيت من الممتلكات ، لمّا قال هارون للإمام الكاظم ، خذ فدكاً . والإمام يمتنع ، فلمّا ألح عليه قال : «ما آخذها إلّا بحدودها» قال : وما حدودها؟ قال : «الحد الأوّل عدن» فتغير وجه الرشيد قال : والحد الثاني ؟ قال : «سمرقند» فأربدّ وجهه ، قال : والحد الثالث ؟ قال : «أفريقية» . فاسودّ وجهه ، قال : والحد الرابع ؟ قال : «سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية» . فقال هارون : فلم يبق لنا شيء فتحول في مجلسي فقال الإمام: «قد أعلمتك أني لو حددتها لم تردّها» . فعند ذلك عزم الرشيد على قتله[1] .

ويعمد الرشيد إلى انتهاك حرمة بيت من بيوت الله كان موضع عبادة الإمام موسى الكاظم ومحل حلقته ، فيأخذه من المسجد ، ولما دخل به إليه ، قيده في تلك الساعة . وتدلنا طريقة ترحيله للإمام الكاظم على مدى خوفه من الناس وتوقعه أن يثوروا به ولا يتركوا ابن بنت نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم يرسف بقيود الرشيد . ولكي يعمّي أمره على الناس استدعى قبتين . فجعله في إحداهما على بغل ، وجعل القبة الأُخرى على بغل آخر ، وخرج البغلان من داره عليهما القبتان مستورتان ، ومع كل واحدة منهما خيل . فافترق الخيل ، فمضى بعضها مع

(١) تذكرة الخواص ص ٣٥٠، نقلاً عن ربيع الأبرار للزمخشري .

إحدى القبتين على طريق البصرة، والأُخرى على طريق الكوفة، وكان الإمام في القبة التي مضى بها على طريق البصرة، وأمر القوم الذين كانوا مع قبة الإمام بأن يسلّموه إلى عيسى بن جعفر بن المنصور ـ وكان على البصرة ـ فحبسه عنده سنة، وتنقّل من حبس عيسى إلى حبس الفضل بن الربيع. فبقي عنده مدة طويلة، فأراده الرشيد على شيء من أمره، فأبى. فكتب إليه بتسليمه إلى الفضل بن يحيى، ثم إلى السندي بن شاهك[1].

وتوفي الإمام في حبس السندي بن شاهك مسموماً سنة (١٨٣ هـ) وله خمس وخمسون سنة.

وذكر الشيخ الطوسي ﷺ رواية محمد بن يعقوب عن شيخ من العامة ممن كان يقبل قوله قال: جمعنا السندي بن شاهك ثمانين رجلاً من الوجوه المنسوبين إلى الخير، فأدخلنا على موسى بن جعفر ﷺ وقال لنا السندي: يا هؤلاء انظروا إلى هذا الرجل هل حدث به حدث، فإنّ أمير المؤمنين لم يرد به سوءً وإنما ننتظر به أن يقدم ليناظره وهو صحيح موسع عليه في جميع أُموره، فسلوه وليس لنا همّ إلّا النظر إلى الرجل في فضله وسمته. فقال موسى بن جعفر ﷺ **«أما ما ذكره من التوسعة وما أشبهها فهو على ما ذكر، غير أني أخبركم أيها النفر إني قد سقيت السمّ في سبع تمرات، وأنا غداً أحتضر، وبعد غدٍ أموت»** فنظرت إلى السندي بن شاهك يضطرب ويرتعد مثل السعفة[2].

وخلاصة القول أنّ الإمام موسى بن جعفر كان أكثر أولاد أبيه علماً وديناً وزهداً وجوداً، أحاطه الإمام الصادق بالرعاية منذ كان في مهده باعتباره

---

(١) الإرشاد ص ٢٨١، والغيبة ٢٣، وروضة الواعظين ص ٢٢١، ونور الأبصار ص ١٥٤. والإتحاف ص٥٦.

(٢) الغيبة للطوسي ص ٢٤.

الوصي والخليفة من بعده ، فكان أجلّ ولد أبي عبدالله عليه السلام قدراً ، وأعظمهم محلاً ، وأبعدهم في الناس حقباً ، ولم ير في زمانه أسخى منه ولا أكرم نفساً وعشرة ، وكان أعْبَدَ أهل زمانه وأورعهم وأجلّهم وأفقههم ، واجتمع جمهور الشيعة على القول بإمامته والتعظيم لحقّه والتسليم لأمره ، ورووا عن أبيه عليه السلام نصوصاً كثيرة عليه بالإمامة ، وإشارات إليه بالخلافة ، وأخذوا عنه معالم دينهم ، ورووا عنه من الآيات والمعجزات ما يقطع بها على حجية وصواب القول بإمامته[1] .

الإسماعيلية

قدمنا أبرز الوجوه في سيرة الإمام الكاظم لإظهار مسار الإمامة ، والتعرّف على الخصائص والفضائل التي تقطع القول ، وهنا نبدأ بعرضٍ لحياة إسماعيل ابن الإمام الصادق ، ومسلك الانشقاق عن مسيرة الإمامة .

إنّ الروايات في إسماعيل لم تتطابق ، ولا نذهب إلى أبعد من القول أن كونه أكبر أولاد الإمام الصادق كان سبب اللبس الذي وقع عند البعض؛ لأن الإمامة للأسنّ ، ونعلم من صفته أنّه كان أعرجاً ، فهو كأخيه عبدالله الأفطح ، وإنْ كان أرجح الروايات تصف إسماعيل بحال يختلف عن عبدالله ، ولكن الإمام الصادق الرجل الذي استطاع أن يقود الأُمة في أخطر فترة وأشد معترك ، وأن يفتح آفاق الفكر ، ويرسي قواعد الفقه ، ويتحاشى مأزق السلطان والسياسة ، كان في بيته الأب الحاني والمربي العالم الذي يظل أولاده بالعطف ويغذّيهم بالهداية والنور ، ويحبّهم ويبرّهم جميعاً . ونحن

---

(١) الإرشاد ص٥٥٨ .

على أنّ إسماعيل كان على الصلاح والهداية ، وكان يلقى من الإمام الصادق حبّ الأب ورعاية الإمام ، فالتقت صور العطف هذه مع كون إسماعيل أكبر أولاد الإمام الصادق في تكوين الظنّ بأنّه الإمام من بعد أبيه . وأما ما قيل من البداء في هذا المورد وبهذا المفهوم فلا أساس له؛ لأنّ الإمام الصادق لم يشر إلى إمامة إسماعيل بالرغم من أنّ الأسئلة التي كانت توجه إليه كثيرة ، وما روي عن الادعاء بالبداء ، صادر من المخالفين الذين أباحوا لأنفسهم الكذب والتقوّل على الشيعة وأئمتهم كالجريرية[1] والبترية[2] وأصل أقوالهم التي نسبوها إلى الشيعة في البداء كان في تحولات الغلاة وبحثهم عن الأفكار التي تنسجم مع جذورهم كجماعات تسعى إلى إظهار ما جاءت عليه أيام الإسلام من عقائدهم ، وأطلقوا هذه المقالة في ظروف أصابهم الفشل فيما بعد أنّ حاولوا ـ في غلوهم وانحرافهم ـ الانتساب إلى ثورة محمد النفس الزكية[3] وقد كان المغيرة بن سعيد يدّعي الصلة بمحمد بن عبدالله بن الحسن ، ويقول: إنّ الإمام علي زين العابدين عليه السلام أوصى إليه ، وأنّ النفس الزكية أذن له في أمور منها : خنق الناس[4] .

ولما فشلت تلك الثورة وقتل محمد وأخوه إبراهيم ، ادّعوا أنّ الشيعة وضعت البداء ، لكي لا يظهر من أئمتهم القول بخلاف ما أخبروا به .

---

(١) اتباع سليمان بن جرير من الفرق الزيدية قال بأنّ الإمامة شورى وأنّها تنعقد بعقد رجلين من خيار الأمة وأجاز إمامة المفضول ويذكر البغدادي أنّ بعض أصحاب التواريخ ذكروا أنّ سليمان بن جرير سمّ إدريس ابن عبدالله بن الحسن ويسميها الشهرستاني السليمانية الملل والنحل ج١ ص١٨٦.

(٢) أتباع الحسن بن صالح بن حي وكثير النواء الأبتر وهم كالجريرية وقد توقفوا في عثمان . الملل والنحل ج١ ص١٨٧ .

(٣) انظر الفرق بين الفرق ص١٤٨ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ج٢ ص٣٠٦.

والثابت الذي لا يرقى إليه الشك هو أمر وفاة إسماعيل في حياة الإمام الصادق . ذكر ابن خلدون أنه توفي في حياة أبيه في العُريضي في المدينة المنورة ، ودفن بالبقيع سنة (١٤٥ هـ)[1] ويقول المقريزي : إنّ إسماعيل توفي سنة (١٣٨ هـ) وجعفر والده لا يزال على قيد الحياة[2]، كما أنّ تواتر ذكر الإمام الصادق عند وفاة ابنه إسماعيل لما بدا لله يفيد أنّ الله أظهر بوفاة إسماعيل ما كان في سابق علمه من جعل الإمامة في الأشخاص الذين خلقوا لتحملها . واختلاف التواريخ لا يخرج عن فترة بقاء الإمام الصادق على قيد الحياة .

ولمّا توفي إسماعيل حزن عليه الإمام الصادق حزناً عظيماً . وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه مراراً كثيرة ، وكان يكشف عن وجهه وينظر إليه يريد بذلك تحقق أمر وفاته عند الظالمين خلافته له من بعده ، وإزالة الشبهة لهم في حياته[3] .

وكان موت إسماعيل ﷺ قد أزال الظن والوهم اللذين وقع فيهما بعض أصحاب الإمام الصادق .

أما الآخرون الذين تصفهم المصادر بالأباعد والأطراف ، وليسوا من خاصة الإمام ، منهم الذين ادّعوا بقاءه حياً وإنّه لم يمت ، وتلك مقولة الغلاة في كل زمن ، وعقيدتهم التي يقتربون بها من الحلول والتناسخ . فأنكرت موت إسماعيل ، وقالوا : كان ذلك على جهة التلبيس من أبيه على الناس لأنّه خاف ، فغيّبه عنهم ، وزعموا أنّ إسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض ، يقوم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص ٣٦٠.

(٢) اتعاظ الحنفا ص ١٦١.

(٣) التكملة للشيخ عبدالنبي الكاظمي ج١ ص ١٩٢ نقلاً عن إعلام الورى.

بأمر الناس ، وأنّه هو القائم ، لأنّ أباه أشار إليه بالإمامة بعده وقلّده ذلك[١] .

ولولا هؤلاء الذين ظلّوا يترتصون ، لما كانت قضية موت إسماعيل تصل إلى هذا الحد من الأهمية ، وقد تولى كتّاب الفرق القول بإمامة إسماعيل ؛ لأنّه أدنى إلى الإساءة إلى الشيعة ، ومن طريقه يسهل نسبة كل فرقة إلى الشيعة ، ويتحمل الشيعة الاثنا عشرية تبعة هذه الأقوال ، ويجري بين الأمة الإسلامية إطلاقات ومقولات هؤلاء ، فتتلقاها بالقبول والاطمئنان .

يقول المقريزي : وكانت الشيعة فرقاً ، فمنهم من كان يذهب إلى أنّ الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه ، وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالإسماعيلية من أجل أنّهم يرون أنّ الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل ، وأنّ الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم[٢] .

وفي الوقت الذي يذكر البغدادي في الفَرق بين الفِرق[٣] لفظ الزعم لتجنب القطع أو الجزم ، يقول الشهرستاني[٤] بما عرف عنه من تعصّب وتحامل أنّ الإمام إسماعيل هو الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق ، وهو الذي نصّ عليه في بدء الأمر ، ولقد حدث الاختلاف على موته .

ويذهب ابن الجوزي في المنتظم[٥] بعيداً ، فيدرج معهم في هذا المسلك الخرمية والبابكية والمحمرة ، وأنّ آراءهم ومذاهبهم أخذوا بعضها من المجوس وبعضها من الفلاسفة ، وأنّهم دخلوا تحت ستار ذكر ظلم السلف

(١) فرق النوبختي ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ٣٤٨ .

(٣) الفَرق بين الفِرق ص ٦٨ .

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٦ .

(٥) المنتظم ج ١٢ ص ٢٨٩ .

الأشراف من آل النبي ، ودفعهم عن حقهم ، وقتلهم وما جرى عليهم من الذل ، فتناصروا وتكاتفوا ، وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمّد الصادق .

وابن الجوزي يقصد بذلك الغلاة الذين سبق ذكر حركتهم في أكثر من موضع وبحث في سياق الكتاب ، والذين تصدى الإمام الصادق لحركتهم وتبرّأ منهم ، ولما مات عليه السلام قالوا: إنّ الإمام الصادق حي لم يمت ولا يموت حتى يظهر ويلي أمر الناس ، وإنّه هو المهدي ، وزعموا أنّهم رووا عنه أنّه قال: إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه ، فإني أنا صاحبكم . وأنّه قال لهم : إن جاءكم من يخبركم على أنّه مرضني وغسلني وكفنني فلا تصدقوه فإني صاحبكم صاحب السيف[1] .

ولا يمكن الجزم بأنّ الغلاة هم قوم الفرقة الإسماعيلية . لأنّ أولئك الذين يصفهم العلماء بالأباعد مع أنّهم ليسوا من خاصة أصحاب الإمام الصادق وأنّهم من الأطراف ، يحتمل وجود من أقام على الظن وبقي على الاعتقاد الذي أراد الإمام الصادق إزالته ومنعه ، فظلت إسماعيلية خالصة تدين بإمامة إسماعيل ، ومنها ما كان بالاتصال بإسماعيل كالمباركية التي تزعمها مبارك مولى إسماعيل ، فزعمت أنّ الإمام بعد الإمام الصادق هو محمّد بن إسماعيل ، وقالوا: إنّ الأمر كان لإسماعيل في حياة أبيه ، فلما توفي قبل أبيه جعل جعفر ابن محمّد الأمر لمحمد بن إسماعيل ، وكان الحق له[2] ، ولا يجوز غير ذلك؛ لأنّها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ولا تكون في

(١) فرق الشيعة للنوبختي ص٧٨.

(٢) فرق الشيعة للنوبختي ص ٨٠.

الأعقاب ، ولم يكن لأخوي إسماعيل عبدالله وموسى في الإمامة حق كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق على علي بن الحسين .

وغيرها من المعتقدات والآراء التي تتصل بنشوئها واتصالها بعقائد الشيعة إلى أن تنتهي إلى هذه الفترة من الزمن وحدوث الاختلاف بعد وفاة الإمام الصادق ، وعلى ذلك فلا نريد أن نظلم إخواننا من الإسماعيلية الذين آمنوا بعمق وعقيدة بوصاية النبي للإمام علي عليه السلام ، وتوليهم الأئمة المعصومين ، إلى أن كانت الأقوال التي التزموها وابتعدوا بها عن منهاج الشيعة .

وإنّ الفاطميين على لسان قاضيهم النعمان تبرأوا من الغلاة ، والتزموا موقف الشيعة ، وأنكروا أقوال أبي الخطّاب . قال القاضي النعمان : ثم كان أبو الخطاب في عصر جعفر بن محمّد من أجل دعاته! فأصابه ما أصاب المغيرة . فكفر وادعى أيضاً النبوة . وزعم أنّ جعفر بن محمد إله ، تعالى الله عن قوله ، واستحل المحارم كلها ، ورخّص فيها ، وكان أصحابهم كلما ثقل عليهم أداء فريضة . أتوه وقالوا : يا أبا الخطاب ، خفف علينا فيأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلّوا جميع المحارم وارتكبوا المحضورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور . وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، فبلغ أمره جعفر بن محمد صلى الله عليه وسلم فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه وتبرّأ منه ، وجمع أصحابه وعرّفهم ذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه وباللعنة عليه ، وعظم ذلك على أبي عبدالله جعفر بن محمد صلى الله عليه وسلم واستفظعه واستهاله[1] .

ويبدو أنّ القاضي المغربي يجهل تفاصيل ما قام به الإمام الصادق من جهد

---

(١) دعائم الإسلام ج١ ص٦٣ .

في دحض وفضح أفكار الغلاة حتى كان لا ينام الليل ، وإن كان قوله فيما قدر عليه الإمام الصادق يحتمل إرادة ما يقوم به الحكام من المحاربة بالسيف كعيسى بن موسى العباسي عامل الكوفة ، وإذا كان غير ذلك فلا وجه لقوله .

ومهما يكن من أمر فرقة الإسماعيلية والاختلاف في إسماعيل ، فإنّ التاريخ يجهل جهلاً يكاد يكون تاماً كيف بدء الدعوة لإمامة إسماعيل ، فلا يُعرف أوّل من دعا لإمامته ؛ كما لا يمكن تحديد عوامل تأخير ظهورها إلى الوجود ، فالتاريخ لم يعرف شيئاً اسمه الفرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، وهو بدء ظهور حركتهم ، وإذا كان ذلك دور الستر في معتقدات الإسماعيلية . فإن أقوال الإسماعيلية عن هذا الدور هي الأقوال الوحيدة التي تظهر أسباب التستر والاختفاء متعلقة بالدعوة وقيامها على الشكل الذي يدعون إليه ، وهم دائماً يتحدثون عن تاريخ أئمتهم في هذه الفترة بشيء من عدم التطابق في العدد والوقائع .

ولكن الثابت أنّه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسى بن جعفر عليه السلام بعد أبيه عليه السلام وافترق الباقون فريقين، فريق منهم رجعوا عن حياة إسماعيل وقالوا بإمامة محمّد بن إسماعيل لظنّهم أنّ الإمامة كانت في أبيه وأنّ الابن أحق بمقام الإمامة من الأخ . وفريق ثبتوا على حياة إسماعيل . ويقول الشيخ المفيد رحمه الله المتوفى سنة (٤١٣ هـ): وهم اليوم شذّاذ لا يعرف منهم أحد يومئ إليه ، وهذان الفريقان يسميان بالإسماعيلية ، والمعروف منهم الآن من يزعم أنّ الإمامة بعد إسماعيل في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان[1] .

---

(١) الإرشاد ج ٢ ص ٢١٠، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام .

وقد أعقب إسماعيل محمداً وعلياً . ونحن بإزاء الإثنين نلمس في سيرتهما تلك الآثار النفسية التي تحدث في الأبناء انحيازاً للأب في مجال الأسرة الواحدة كأي بشر ينقاد إلى العواطف وينجز إلى الأهواء ، وهذه الآثار لا علاقة لها بالتهيئ للإمامة ، فليس هناك ما يثبت أنّ محمداً قد تطلع على عهد جده الإمام الصادق إلى شيء من الإمامة أو أنّه أعدّ لها نفسه ، إذ يفترض حسب الادعاء أن يكون من نصب بعد وفاة إسماعيل وفي حياة الإمام الصادق علماً بما نصب له .

والسيد ابن عنبة في العمدة يذكر قول شيخ الشرف العبيدلي : هو ـ إسماعيل ـ إمام الميمونية وقبره ببغداد . وقول ابن خداع : كان الإمام موسى الكاظم ﷺ يخاف ابن أخيه محمد بن إسماعيل ويبرّه ، وهو لا يترك السعي به إلى السلطان من بني العباس. كما ينقل السيد ابن عنبة قول أبي نصر البخاري: كان محمد بن إسماعيل بن الصادق ﷺ مع عمه موسى الكاظم ﷺ يكتب بالسرّ إلى شيعته في الآفاق ، فلما ورد الرشيد الحجاز ، سعى محمّد بن إسماعيل بعمه إلى الرشيد فقال : أعَلِمت أنّ في الأرض خليفتين يجبى إليهما الخراج ؟ فقال الرشيد : ويلك أنا ومن ؟ قال : موسى بن جعفر ، وأظهر أسراره ، فقبض الرشيد على موسى الكاظم ﷺ وحبسه وكان سبب هلاكه ، وحظي محمّد بن إسماعيل عند الرشيد ، وخرج معه إلى العراق ومات ببغداد ، ودعا عليه موسى بن جعفر ﷺ بدعاء استجابه الله تعالى فيه وفي أولاده ، ولمّا ليمَ موسى بن جعفر ﷺ في صلة محمد بن إسماعيل والاتصال مع سعيه به قال: «إني حدثني أبي عن جده عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ : الرحم إذا قطعت فوصلت ، ثم قطعت فوصلت ، ثم قطعت فوصلت ، ثم قطعت قطعها الله تعالى ، وإنما أراد

أن يقطع الله رحمه من رحمي»[١].

أما علي بن إسماعيل فقد وردت الرواية به بهذا الخصوص ، وهي المرجحة ، لأن أبطالها البرامكة ، ولكن ظهور اسم محمّد في تاريخ الفرقة الإسماعيلية على اسم أخيه علي يعطي الأولى أهمية ، ودور علي بن إسماعيل مهم أيضاً لعلاقته بالبرامكة الذين أخفوا مجوسيتهم ، وكانوا مدار سياسة العداء للعلويين في زمنهم ، حتى انتقم الله من ظلمهم لآل بيت النبي الأطهار على يد ظالم آخر . والرواية عن النوفلي عن أبيه عن مشايخهم قالوا : إنّ السبب في أخذ موسى بن جعفر ﷺ أنّ الرشيد جعل ابنه في حجر جعفر بن محمّد بن الأشعث ، فحسده يحيى بن خالد بن برمك على ذلك وقال : إن أفضت إليه الخلافة زالت دولتي ودولة ولدي . فاحتال على جعفر بن محمد ـ وكان يقول بالإمامة ـ حتى داخله وأنس به ، فكان يكثر غشيانه في منزله ، فيقف على أمره ويرفعه إلى الرشيد ، ويزيد عليه في ذلك بما يقدح في قلبه . ثم قال لبعض ثقاته أتعرفون لي رجلاً من آل أبي طالب ليس بواسع الحال يُعرّفني ما احتاج إليه؟ فدلّ على علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فحمل إليه يحيى ابن خالد مالاً ، وكان موسى ﷺ يأنس بعلي بن إسماعيل ويصله ويبرّه .

ثم أنفذ إليه يحيى بن خالد يرغبه قصد الرشيد ويعده بالإحسان إليه ، فعمل علي ذلك ، فأحسّ به موسى ﷺ فدعا به وقال له : «إلى أين يا ابن أخي؟» قال: إلى بغداد . قال الإمام : «وما تصنع؟» قال : عليّ دين وأنا مملق . فقال له الإمام موسى الكاظم ﷺ : «أنا أقضي دينك وأفعل لك وأصنع» . فلم يلتفت إلى ذلك ، وعمل على الخروج . فاستدعاه أبو الحسن ﷺ وقال له : «أأنت خارج؟» قال :

---

(١) عمدة الطالب ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

نعم ، لا بد لي من ذلك . فقال له : «انظر يا ابن أخي واتق الله ولا تؤتم أطفالي» وأمر له بثلاثمائة دينار وأربعة آلاف درهم ؛ فلما قام من بين يديه قال لمن حضره : «والله ليسعىنّ في دمي ويوتمنّ أولادي» فقالوا : جعلنا فداك ، أو أنت تعلم هذا من حاله وتعطيه وتصله؟ قال : «نعم ، حدثني أبي عن آبائه عن رسول الله . . .» الحديث . . فخرج علي بن إسماعيل حتى أتى يحيى بن خالد فعرف من خبر الإمام موسى بن جعفر ، فرفعه إلى الرشيد ، وسأله الرشيد عن عمه فسعى به إليه وقال له : إن الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب ، وإنه اشترى ضيعة سمّاها البشيرة بثلاثين ألف دينار . . . ثم خرج يحيى بن خالد على البريد حتى وافى بغداد ، ثم دعا السندي بن شاهك فأمره في موسى بن جعفر بأمره فامتثله ، وكان الذي تولى به السندي بن شاهك وضع له سماً في طعام قدّم إليه . ويقال إنه جعله في رطب ، فأكل منه موسى ؛ وأحس بالسم ، ولبث بعده ثلاثاً موعوكاً ، ثم مات في اليوم الثالث... وأُخرج ووضع على الجسر ، فأمر يحيى بن خالد أن ينادى عليه عند موته : هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة أنه لا يموت فانظروا إليه[١] .

والإسماعيليون يعدّون البرامكة إسماعيلية على مذهبهم ، وكذلك زبيدة زوجة الرشيد هي الأُخرى إسماعيلية ، وينفون عنها تدبير قتل البرامكة[٢] .

يقول النوبختي : فأمّا الإسماعيلية فهم «الخطّابية» أصحاب أبي الخطاب محمّد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وقد دخلت منهم في فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه ، وهم الذين

(١) الإرشاد ص٢٧٩ ـ ٢٨٠، والغيبة ص ٢١، وروضة الواعظين ص٢١٨، ومقاتل الطالبيين ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ . وكشف الغمة في معرفة الأئمة للإربلي ص٢٤٧ .

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٤٥ .

خرجوا في حياة أبي عبدالله جعفر بن محمّد عليه السلام .

وكانت الخطّابية بعد براءة الإمام الصادق عليه السلام منهم ولعنهم والوقوف بوجه إلحادهم وزندقتهم ، قد تفرقوا فصاروا أربع فرق ، وكان أبو الخطّاب يدّعي أنّ الإمام الصادق جعله قيّمه ووصيّه من بعده ، وعلّمه اسم الله الأعظم ، ثم ترقّى إلى أن ادّعى النبوة ، ثم ادّعى الرسالة . ثم ادعى أنّه من الملائكة ، وأنّه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم . ففرقة منهم قالت : إنّ أبا عبدالله جعفر بن محمّد هو الله جلّ وعزّ ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأنّ أبا الخطاب نبي مرسل أرسله جعفر ، وأمر بطاعته ، وأحلّوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وتركوا الزكاة والصلاة والصيام والحج . وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض وقالوا : من سأله أخوه ليشهد على مخالفيه فليصدّقه ويشهد له ، فإنّ ذلك فرض عليه واجب . وجعلوا الفرائض رجلاً سمّوهم ، والفواحش والمعاصي رجالاً وتأوّلوا قول الله عزّ وجلّ ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾(١) . وقالوا : خفف عنّا بأبي الخطّاب ، ووضع عنّا الأغلال والآصار ، يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج ، فمن عرف الرسول النبي الإمام ، فليصنع ما أحب . وفرقة قالت بزيغ نبي رسول مثل أبي الخطاب ، أرسله جعفر بن محمّد ، وشهد بزيع لأبي الخطّاب بالرسالة ، وبرىء أبو الخطاب وأصحابه من بزيع . وفرقة قالت : السّري رسول مثل أبي الخطاب ، أرسله جعفر وقال : إنه قوي أمين ، وهو موسى القوي الأمين ، وفيه تلك الروح ، وجعفر هو الإمام ، والإسلام هو السلام وهو الله عزّ وجلّ ، ونحن بنو الإسلام

(١) النساء: ٢٨.

كما قالت اليهود : ﴿نَحنُ أبناءُ اللهِ وأحِبّاؤُهُ﴾[1] . وقد قال رسول الله ﷺ : سلمان ابن الإسلام . فدعوا إلى نبوّة السري ورسالته ، وصلّوا وصاموا وحجّوا لجعفرين محمد ، ولبّوا له فقالوا : لبيك يا جعفر لبيك . وفرقة قالت : جعفر بن محمّد هو الله عزّ وجلّ ، وتعالى علوّاً كبيراً ، وإنما هو نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها ، فكان ذلك النور في جعفر ، ثم خرج منه فدخل في أبي الخطّاب ، فصار جعفر من الملائكة ، ثم خرج من أبي الخطّاب فدخل في معمر[2] .

وجميع ما نجم عن حركة الغلاة وانتسب إلى أبي الخطّاب لا يخلو من الادعاء بالربوبية والنبوة ، وأغلبها تقول ببقاء الأموات ، والزعم أنّ معبودهم لا يموت ، فالمعمرية عبدوا أبا الخطّاب كما عبدوا معمراً هذا ، وقد كان رجلاً يبيع الحنطة ، وزعموا أنّ الدنيا لا تفنى ، وأنّ الجنة هي ما يصيب الناس من العافية والخير ، وأنّ النار ما تصيب الناس من خلاف ذلك . وقالوا بالتناسخ ، وأنهم لا يموتون ولكن ترفع أرواحهم إلى السماء وتوضع في أجساد غير تلك الأجساد ، واستحلّوا الخمر والزنا وسائر المحرّمات ، ودانوا بترك الصلاة[3] .

ولا شكّ أنّ حركة الغلاة هي حركة سياسية إضافة إلى كونها حركة دينية ضمّت بقايا العقائد والأديان التي محق الإسلام وجودها ، واجتثت جذورها ، ولما ظهرت بوادرها كان ظهورها في ضلال الحكّام وحواشي عظمتهم . واستطاع الظلمة والمتجبرون أن يجعلوها سلاحاً فتاكاً في حملتهم ضد

---

(١) المائدة: ١٨.

(٢) انظر فرق النوبختي ص٤٢ ـ ٤٤.

(٣) الحور العين لابن نشوان ص١٦٧.

أهل البيت وشيعتهم ، فأسهموا في نشاط تلك الفرق ، وسهلوا لهم التظاهر والادعاء بحب أهل البيت ، وقد عالج الأئمة الأطهار عليهم أفضل الصلاة والسلام مشكلة تسلل الغلاة ودخولهم في صفوف المسلمين ، فكان الإمام الصادق يلعن أبا الخطاب وأصحابه وجميع الدعاة إلى الإلحاد والغلو ، ويفضح أُصولها ومصادرها ، ومن أقواله ﷺ : **«إنا أهل بيت صادقون لا نعدم من كذّاب يكذب علينا عند الناس ، يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا»**[1] . ثم ذكر المغيرة وبزيع والسري وأبا الخطاب ومعمر وبشار الشعيري وحمزة اليزدي وصائد النهدي فقال : **«لعنهم الله أجمع ، وكفانا مؤنة كل كذاب»**[2] .

وقال ﷺ : **«إنّ قوماً يزعمون أني لهم إمام ، والله ما أنا لهم بإمام ، ما لهم لعنهم الله ، أقول كذا ويقولون كذا . إنما أنا إمام من أطاعني . ومن قال بأننا أنبياء ، فعليه لعنة الله . ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله»**[3] .

وإذا كان الفاطميون قد أملوا على قاضيهم أن يثبت البراءة من أبي الخطّاب لتنزيه معتقداتهم ، فإن بقية الإسماعيلية لم يوافقوهم على ذلك ، كما لم يوافقوهم على أعمالهم الأخرى كمحاربتهم القرامطة والتصدّي لجرائمهم ، وقد ألمحنا إلى أنّ التاريخ الإسماعيلي يظهر عليه الاضطراب وعدم الانسجام ، لأنّ هنالك فراغاً وثغرات ظلت ظاهرة لم تنفع في ملئها المحاولات ، وقد أدى ذلك إلى أقوال غير واقعية ، وآراء لا نصيب لها من الصحة ، كالقول بأن بذور حركة الإسماعيلية قد بذرت في عهد جعفر بن محمد . يقول عارف تامر ـ وهو من الإسماعيلية ـ : ولا يوجد هناك من

---

(١) رجال الكشي ص ٣٠٥ ح ٥٤٩ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر بحث الغلاة لجزء الأول من الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ص ٣٣١ ـ ٣٣٦ .

يستطيع إنكار هذه الحقيقة ، وقد كانت هذه الدعوة سرية ، وكان يعمل لها في الخفاء إسماعيل بحياة أبيه ، ويعاونه الداعية الكبير أبو الخطاب ، وجاء بعد إسماعيل ولده محمد ، وكان على جانب كبير من العبقرية والثقافة راجح الفكر ثاقب النظر[1] .

وهذا تحكم واضح ، وقول يبعد عن الواقع ، ولا أساس له من الصحة ، ولكنه يعتقد كبقية الإسماعيلية أنّ محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه وجماعة حركته ، واستتر ، فبنوا تاريخاً لمحمد بن إسماعيل على مقتضى التنظيم السري والحركة الباطنية ، وأنكروا ما تذكره المصادر وتثبته الحقائق من التحاق محمد بركب العباسيين وتحكم المنفعة والرغبة في الدنيا حتى حملتاه إلى الموت في بغداد .

ويحدّد الأستاذ ثامر عام (١٢٨ هـ) تاريخاً لنشأة الإسماعيلية كدعوة دينية من قبل الفقيه المتشرع الإمام جعفر الصادق ثم يقول إنها بدأت تتحول إلى حركة سياسة عام (٢٥٩ هـ).

ولا نريد الخوض في مناقشة مثل هذه الآراء لأنّها تكشف عن نفسها ، ولا نرغب بالإطالة في بحث الإسماعيلية والإمامة ، فالمصادر الإسماعيلية التي يستقي منها الكتاب المعاصرون ـ تامر وغيره ـ تشير إلى مثل هذا الادعاء ؛ وقد قلنا آنفاً أنّ الحركة الإسماعيلية اختارت الوقائع والمعتقدات المهمة في تاريخ الشيعة ، وساقت انفصالها وانشقاقها عن المذهب الجعفري في صياغة مشابهة ، فاختارت مبدأ التقية لدى الشيعة ليكون ذريعة للقول بالتنظيم السري الباطني القائم على الرموز والمعاني التي لا صلة لها باللغة أو مبادئ

(١) مقدمة كتاب عبقرية الفاطميين لمحمد حسين الأعظمي ص١٤.

التفسير. فالتقية عند الشيعة عمل بقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[1] .

وقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوصي بالتقية ويأمر بها ، وليس ذلك منه إقراراً ، فقد علم تشدّده في الحقّ ، وعدم خشيته أحداً غير الله ، لكنه أمر بها؛ لأنّها من الأُمور التي يحكم بها العقل والسمع . أما من حيث العقل فالأولى أن يجنّب الإنسان نفسه شرور من يستطيع أن يناله بشرّ إما بسلطة أو قوة أو ظرف ، فيتقي شرّه ويحفظ حياته . وأما من حيث السمع . فإنّ قصة أصحاب الكهف وفرارهم بدينهم : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾[2] ووقائع دعوة موسى : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[3] ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[4] وغيرها من الأحداث الكثيرة كافية لإظهار أنّ التقية ـ أو مبدأ تجنب المخاطر وحفظ الوجود ـ من أوامر الشرائع ، وقد قال الله عزّ وجلّ لنبيه الكريم : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5] ثم تأتي الآية التي تنص على التقية في العلاقة مع المشركين، أو السماع ببعض الأعمال : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ وما نزل في حق عمّار بن ياسر : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[6] وعلى ذلك رأينا كيف كان توجيه الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه والتزام التقية . ونرى كيف يخاطب الأئمة عليهم السلام الظلمة والعتاة بإمرة المؤمنين للإبقاء على

---

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) الكهف: ٢٠ .

(٣) طه: ٤٣ ـ ٤٤ .

(٤) القصص: ١٥.

(٥) فصلت: ٣٤.

(٦) النحل: ١٠٦.

حياتهم وكفّ شرور الحكّام الطغاة عن شيعتهم ، وكل الأعمال المعهودة في تطبيق التقية لا تحتمل أكثر من مقاصدها التي أذن بها الشرع ، فإنّ الأئمة عليهم السلام كانت مناهج سيرهم واضحة ، وأقوالهم في معاهدهم وبيوتاتهم معروفة . وما يصدر عنهم في مقابلة الملوك وسلاطين الزمان بالقدر الذي يوجبه الشرع لحفظ النفس ، وكذلك رجال الشيعة وقادتها عملوا بأوامر الشرع وطبّقوا توجيهات أئمتهم في حال الاضطرار . وإلى هنا ينتهي أمر التقية ، أي عند الحدود التي تكفل إبعاد الخطر ودفع الشر ، فليس من تقية الشيعة التخفّي ، والنظام القائم على السرّية والرموز والأرقام والإشارات التي تخص أقواماً خلت ومذاهب سالفة .

وقد استغل الإسماعيليون مذهب التقية في سبيل أغراضهم ومصالحهم فكانوا سنّيين مع أهل السنة (وشيعيين) مع الشيعة ومسيحيين مع المسيحية[١] .

كذلك ادّعى الإسماعيلية التدبير الذي رآه الإمام الصادق لحفظ حياة وصيه وخليفته الإمام موسى الكاظم وقالوا : إنّ قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه كانت قصة أراد بها الإمام جعفر الصادق التمويه والتغطية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد الشيعة في كل مكان ، فخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل ، فادّعى موته[٢] . وقالوا إنّ موسى الكاظم لم يجعله الصادق إماماً إلّا ستراً على ولي الأمر محمّد بن إسماعيل ليكتم أمره على الأضداد ، ولئلا يطلع ما خصّ به أهل العداوة والعناد حتى

(١) عبقرية الفاطميين ص١٨.

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٦.

يستطيع الإمام المستقر الحقيقي النهوض بأعباء الدعوة سراً[1] . ولا تتفق الإسماعيلية على موت إسماعيل في حياة أبيه ، فمنهم من يرى ذلك ، ومنهم من ينكر موته ، وأنّه بقي حيّاً وشوهد في البصرة . ومهما يكن من قول فإنهم أقنعوا أنفسهم بالادعاء بالنص ، وجعلوه مادة لبحوثهم وأفكارهم وقالوا : ولما وجدناه قد نصّ عليه ،كان منه العلم بأنّه غير منقطع النسل والعقب ، وإذا كان غير منقطع النسل والعقب فالإمامة له ولنسله ثابتة ، وإن كان لم ينص على أحد بعد نصه على إسماعيل (ع . م) فالإمامة لإسماعيل ، فإذا ثبتت إمامة إسماعيل ثبت نسله . إذا لا يستحق من لا يكون له عقب بكونها محفوظة في العقب ، وإذا ثبت نسله فالإمامة لنسله ثابتة[2] .

ويدّعون : بما أنّ إسماعيل هو صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلك ، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمّد بن إسماعيل . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية كان محمّد بن إسماعيل أكبر سناً من عمه موسى الكاظم . فإذا عدنا إلى تاريخ ولادة إسماعيل نجد أنّ ولادته كانت سنة (١٣٢ هـ) فيما كان الإمام موسى الكاظمعليه السلام قد ولد سنة (١٢٨ هـ). أما وجوه المقارنة الأُخرى فهي واضحة ولا تحتاج إلى جهد في الردّ والنقاش؛ لأنّها لا تثبت أمام الحجج : فليس هناك من نص على إسماعيل بالمرة .كما أنّه لم يجمع مؤهلات الخلافة ، ولم يصلح لها بعد أبيه ، ولكن الإسماعيلية ادّعوا ذلك ، وأيدوا دعواهم بما لا يصلح للتأييد ورد الاعتراض، وأنّ وفاة إسماعيل في حياة أبيه وما ذهبوا إليه من التمويه من قبل الإمام

(١) زهر المعاني للداعي إدريس ص٤٨ ـ ٤٩ ـ غالب ـ أعلام الإسماعيلية .

(٢) المصابيح في إثبات الإمامة لأحمد حميد الدين الكرماني ص ١٣٠.

الصادق إنّما هو من صنائع الغلو : والقصص خيالية وضعها المغالون في هذا المبدأ من مؤرخي وكتاب الإسماعيلية الذين يكثرون من أمثال هذه القصص في كتاباتهم ليضفوا على الأئمة الإسماعيلية مناقب وفضائل لا يقرّها عقل[١] .

وإنّ الخوض في غمار البحث عن الطائفة الإسماعيلية ونشأتها ومقومات دعوتها أمر يخرجنا عن الغرض الذي من أجله تعرّضنا لذكر أولاد الإمام الصادقعليه السلام، ولكننا رأينا أنفسنا ملزمين بهذه الدراسة إلى التعرّض لبعض ما يتعلق بتاريخ هذه الفرقة في إطار ادعائها بالإمامة ومعتقداتها . وسنقتصر على الجوانب الأساسية فيما يلي من البحث .

إنّ الوقائع التاريخية لا يضيرها الادعاء ولا تؤثّر عنيها في جوهرها محاولات التغيير والتحريف ، فإذا ما خيل للمتسلّطين أنّ كثرة اللغط بما أرادوه وزيادة الترديد لما افتعلوه قد حسم ماكان يهددهم وقطع ماكان يقضّ مضجعهم ، فليس ذلك من الحقيقة في شيء . وأنا أذكر ذلك ، وقصدي ما تجنّى الحكام الجائرون به من أقوال ودسائس ومؤامرات على الأئمة الأطهار من آل البيت رضوان الله عليهم ، وماكان لأصحاب العروش من زبانية وأذناب سايروهم على الكذب وأقرّوهم على الظلم ، ولكن تاريخ وحقائق الأئمة الأطهار وشيعتهم بقي جلياً ناصعاً برغم كل نتائج الملوك الفسّاق والظالمين ، وقد شمّر رجال الشيعة عن ساعد الجدّ ، وبذلوا أقصى الجهود منذ مئات السنين لإظهار تلك الحقائق ، فماكان الإمام علي إلّا وصيّاً ، وأوّل القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً ، وهكذاكل وصي من ذريته ، حتى إمامنا ومولانا الصادق عليه السلام . فلم يكن إلّا صاحب الإمامة والخلافة الكبرى الذي

---

(١) الطائفة الإسماعيلية الدكتور محمد حسن كامل ص٣.

تنطق بفضائله الآثار ، وتصرخ بمكانته الحقائق ، والذي واجه ظروفاً شائكة وأوضاعاً صعبة تجلّت عناية الرب وتسديده فيما ألهمه الله من حكمة استطاع بها أن يحمي نفسه ويحفظ وجود شيعته . وهكذا إذا تسلسلنا في البحث حتى غيبة الإمام الثاني عشر حجة الله القائم بأمره صاحب الزمان المهدي عجل الله فَرَجه .

وقد حملني على هذا التلميح دواعي الاستجابة لروح الإخاء والمودة التي أراها عند الكثير من الأُخوة الإسماعيلية ، فآثرت أن ألمح بمجمل الإمارات الهامة في تاريخ الشيعة، لأدخل منها إلى القول: بأنّ الأخوة الإسماعيلية لم ينتبهوا إلى أصل وسبب الاختلاف والاضطراب الذي يحيط بالأحداث الأساسية التي تتعلق بتاريخهم . وذلك من حيث المواقع التي تجري عليها ، والأشخاص والتفاصيل ، ومن الطبيعي حدوث ذلك لأنّها محاولات تبنى عبر عصور متلاحقة ، وأقوال تنشأ في أزمان متعددة ، والأصل أو الحقيقة تأباها .

ومع هذا النظام السرّي والقول الباطني ، ارتكب الإسماعيليون خطأهم بأن أباحوا للمستشرقين التلاعب في آثارهم ، واعتمدوا عليهم في التحقيق والإخراج؛ بحيث تجدهم يرون في أحكام المستشرقين على الآثار والنصوص الصحة ولا يتطرّق إليهم الشك ، وما من مستشرق ـ إلّا ما كان أندر من الكبريت الأحمر ـ إلّا واتصل بسبب ، والتقى بغاية مع حرمة الاستشراق الاستعمارية الخبيثة ، بل أقرّ الإسماعيلية لهم بالفضل حتى قالوا : ويفضل تلك الدراسات التاريخية الهامة التي قامت بها فئة من المستشرقين ـ الثقات ـ الضليعين في علوم الإسماعيلية ، وعلى رأسهم أو بالأحرى في مقدمتهم العلامة والمستشرق الروسي الكبير البروفسور «إيفانون» والبرفسور ماسينيون . . . والدكتور شتروطمان وسيوكوربان... والمستشرق

الإنكليزي برنارد لويس[١] .

والغريب أنّ البعض منهم يرى في تأييد المستشرقين لآرائه حجة ، كما فعل عارف تامر وهو يقول : قلت في أكثر من مكان بأني لا أفرق بين التحركات الثلاث : الإسماعيلية والقرمطية والفاطمية ، فكلها باعتقادي حركة واحدة نبعت من نبع واحد وانحدرت من أصل واحد ، وقد يكون دي ساسي ودوزي وهامر وكاترمير وغويارد وبلوشه ودي خويه متفقين معي بالرأي[٢] .

وفي الوقت الذي يعاني الشيعة من افتراءات المستشرقين ونتائج حملة الاستشراق اللعينة ، وأخذهم بالأقوال التي تجافي الحقيقة ، ويعمل كتابهم وباحثوهم ومؤرخوهم على فضح حملة الاستشراق ومن انتسب إليها من الكتاب العرب ، يفسح الإسماعيلية الباب لهؤلاء ، وكأن الغرض الإسهام في الإساءة إلى الشيعة ونشر دوائر الخلط بين مذهب الشيعة والفرق الأُخرى التي يعزى إلى الشيعة معتقداتها ، فيزداد تراكم الأخطاء ، ويظفر الأعداء باعتراف وإقرار بما يقوله المستشرقون ، ونحن ـ بكل جهد ومنذ عشرات السنين ـ لا نهدأ عن مواجهة المستشرقين وتلاميذهم في البلاد الإسلامية ، ولم نحقق من النتائج إلّا اليسير إذا ما نظرنا إلى أصقاع العالم التي تأخذ بأقوال المستشرقين وتلتفت إلى آراء المتعصّبين الذين نحروا الإخاء وضحّوا بالروابط . فبرناردلويس ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لا نتوقع منه أن يفهم التقية كما هي عند الشيعة لأمرين، الأوّل : بعده عن الإسلام . والثاني : تأثره بنصوص

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢٢ .

(٢) القرامطة ص٨٤ ـ ٨٥ .

مؤرخي الحكّام والملوك ، واعتباره أن كل ما يطلق عليهم شيعة هم متفقون على هذه الآراء ، فهو يقدم ملاحظات وآراء تشعر بالتمييز في مواضع ، لكنه في قضية التقية أبعد ما يكون عن الصواب والإدراك[1] .

وهكذا شأنه في بقية القضايا التاريخية فاسمع لقوله : فلما توفي الإمام جعفر الصادق سنة (٧٦٥م) انقسم أتباعه إلى فريقين حول أحد ابنيه: موسى وجعفر ، وأيد حقه في الخلافة ، واعترف أتباع الأوّل بالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر بعد علي بن أبي طالب عليه السلام تجد خطأه في الشخصيات الناجم عن خطئه في فهم التاريخ الإسلامي[2] .

فإذا أعدنا النظر إلى الظروف التي نشأت فيها حركات الغلوّ والتي بحثنا عواملها وكونها من المؤامرات على الشيعة ، نجد برناردلويس يتبنّى الرأي الذي حاوله الحكام وقاموا بترويجه بظهور الفرق وأنصاف الفرق بين جماعات كانت مذاهبهم متعددة ومزيجة ، وأنّ النصف الأوّل من القرن الثامن كان فترة نشاط هائل بين الشيعة المتطرفين . ويقول : وكان التحول من طائفة أورئيس إلى آخر سهلاً ومتكرراً . وتسمي المصادر الإسلامية الكثيرة من المبشرين الدينيين الذين كان بعضهم أشخاصاً من أصل وضيع قادوا ثورات ووصفوا للسيف ، وتعزى لبعضهم عقائد أصبحت فيما بعد خاصة بالإسماعيلية[3] .

ويشير إلى العراق لذات الغرض الذي توخّاه الطاعنون على الشيعة ، ولكنّا نجده متفهماً لظروف الدعوة الإسماعيلية ومعتقداتهم فيقول : ويمكن وصف

(١) انظر الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) لبرنارد لويس ص٣٩.

(٢) انظر (برنارد لويس)، العرب في التاريخ ص١٥١.

(٣) الدعوة الإسماعيلية لبرنارد لويس ص٣٩.

الفترة الواقعة بين القرن الثامن الميلادي وأوائل القرن التاسع بأنها فترة استعداد ، نظّم خلالها إسماعيل وابنه محمّد وعدد من الأتباع المخلصين بناء هذه الفرقة والدعوة لها ، وتختلف تعاليمهم اختلافاً بيّناً عن تعاليم السنّة ، كما أنّها تضمّ كثيراً من الأفكار الأفلاطونية الحديثة والهندية ، وقد تمكنوا من إدخال هذه الأفكار بقولهم بمبدأ التفسير الباطني الذي يجعل لكل آية معنيين: أحدهما ظاهر وحرفي ، والآخر باطن لا يقف عليه إلّا أهل العلم . وكانت التعاليم السرّية لهذه الفرقة تنشر على مراتب من التنشئة لا يرقى إلى أعلى مراتبها إلّا من يتمّ تحوله إلى المذهب الإسماعيلي ، وكان من شأن هذا التنظيم السّري أن ساعد الإسماعيلية على البقاء والازدهار على الرغم من يقظة شرطة العباسيين[١] .

وخلاصة القول ، فإنّ الكتاب الإسماعيليين يكشفون عن عناصر قيام معتقدات الفرقة الإسماعيلية ، وننتهي إلى حقيقة أنّ الإمامة والافتراق عن خطها بعد سنين طويلة من موت إسماعيل وحقائق سيرة ابنه محمّد هي المنقذ ، فهم يقولون إنّ الفكرة الإسماعيلية ليست وليدة حادثة معينة أو تفكير واستبدّ بشخص أو جماعة في أمر من الأُمور ، أو حال من الأحوال ، بل هي امتداد أزلي لنظرة أزلية عاشت في دم الإنسانية منذ بدء الخليقة ، وستستمر في تجدّدها وتصاعدها نحو الأكمل ما دامت الخليقة وما دامت الحياة ، ولربما استطاع المؤرخون أن ينسبوا ميلاد الحركات والعقائد إلى أحداث تاريخية معينة تسببت في خلقها وعملت على تطويرها وبلورتها ، غير أنّ هذا المقياس لا ينطبق على الفكرة الإسماعيلية من حيث جوهرها

---

(١) العرب في التاريخ ص ١٥٠ ـ ١٥١.

الذي كان توأماً للحياة عينها[١] وقد صارت مع تطور الزمن بعد نشأتها حركة عقلية تدل على أصحاب مذاهب دينية مختلفة ، وأحزاب سياسية واجتماعية متعددة ، وآراء فلسفية وعلمية متنوعة[٢] .

ويعتبر الإسماعيليون أنفسهم من أنجب التلاميذ الذين درسوا الفلسفة اليونانية دراسة واقعية ، وأخذوا عنها الأفكار والنظريات وطبقوها وحوروها في مجتمعهم ، وليست جمهورية أفلاطون إلّا أحد الكتب المفضلة القيمة التي درسوها بعناية وطبقوها بإمعان[٣] .

ويتفق الإسماعيليون على أنّ عقيدتهم فلسفية . يقول مصطفى غالب : إذا ما أردنا تعريف الإسماعيلية بإيجاز وتقديمها باختصار ، ووصفها بمختلف الأوصاف ، فلا نقول عنها إلّا أنّها العقيدة الفلسفية التي تتطور مع الزمن وتتكيف معه ، أو بلغة أصح هي انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم اللامتناهي ، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى . ويبين عارف تامر فضل البحوث والدراسات في التعرف على الدعوة الإسماعيلية ويقول : وبعد ظهور هذه المصادر والمخطوطات ، أصبحت الحركة الإسماعيلية معروفة بأنّها رسالة فلسفية مستقلة ، ودعوة سياسية أُممية ذات أثر ظاهر بمجرى الحياة العامة ، وفكرة عقائدية باطنية تخفي وراءها أهدافاً ومقاصد لا يزال الفكر يسعى لجلاء غوامضها وسبر أغوارها .

وقد وجدت هذه المقاصد والأفكار الوثابة في قضية موت إسماعيل ، وتطلّع ابنه محمد متنفّساً وثغرة؛ فصاغ أصحابها والداعون إليها معتقدات

---

(١) أعلام الإسماعيلية ص١٣ .

(٢) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص١٤.

(٣) القرامطة لعارف تامر ص ٦٤.

الإسماعيلية بالمضمون والمنطق الفلسفيين . وكانت تقوم ولا شك على الفلسفة اليونانية حتى كانت خير وعاء لها ، واستطاع الداعون إلى هذه الفلسفة من إدخالها في العقائد والتنظيم والسلوك ، فكانت الكواكب والأجرام والنفس والعقل والحركة والثبات والاختيار والفعل والأرض وبحار الأنوار والبساتين والأزهار والبشر والحيوان وغيرها تربط بها الأسماء وتوصل بها .

وكانت مسألة الباطن والظاهر أعمق من الأوصاف التي عرفوا بها؛ لأنّ الباطنية والتخفّي من ألزم الحالات لمثل هذه الدعوات التي تنتمي إلى أمم أخرى ومذاهب ومعتقدات قديمة ، إذ لا يمكنها الظهور ولا الإفصاح ، فالباطن هو الحال الذي لا يمكنها غيره ، ومن هذه الباطنية امتدت الصفات التي تستمدّ من القول بالإمام الظاهر والإمام الباطن . وبالمعنى الظاهر والمعنى الباطن ، فإنّهم ادّعوا أنّ لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر ، وأنّها توهم الأغبياء صوراً ، وتفهم الفطناء رموزاً وإشارات إلى حقائق خفية . وأنّ من تقاعد عن العرض على الخفايا والبواطن متعثر ، ومن ارتضى إلى علم الباطن انحط عنه التكلف ، واستراح من أعبائه ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (1) . قالوا : والجهال بذلك هم المرادون بقوله : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾ (2) .

يقولون في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ (3) أنه القيام من النوم ، ومثل النوم مثل الغفلة . والمستجيب ـ أوّل رتبة يصل إليها المنتسب إليهم ـ طوال ما كان فيه قبل استجابته في غفلة من أمر الله وأمر أوليائه بمنزلة النائم

---

(1) الأعراف: ١٥٧ .

(2) المنتظم ج٥ ص ١١١، الحديد: ١٣ .

(3) المائدة: ٦ .

في الظاهر ، فإذا انتبه بكسر كاسر ـ الكاسر من يتفقه بالدعوة ويصل إلى مدخل الفلسفة ـ كسر عليه ، أو بمنبه له من قبل نفسه كما قد يتنبه النائم كذلك من ذات نفسه ، وقد يوقظه عن نومه غيره . وأراد الصلاة قصد إلى بيت الخلاء ، وقد ذكروا أنّ مثله مثل الدعوة التي فيها يتخلى من كل كفر وشرك ونفاق وخطيئة كما يتخلى في بيت الخلاء من أمثال ذلك من النجاسات والأقذار ، يتخلى من ذلك في الظاهر من أراد الطهارة في الظاهر ، وفي الباطن من أراد الطهارة الباطنية بالتبري من جميع ذلك ، ثم يقبل على استماع العلم والحكمة اللذين مثلهما في الظاهر مثل الماء الذي منه أصل الحياة الظاهرة ، كما أنّ من العلم أصل الحياة الباطنة الدائمة للأرواح(١) .

ويُدخلون الإمامة في سياق معتقداتهم ، فبعد أن يذكروا أنّ القلب أوّل متكوّن من الجنين ، ككون الشمس أوّل ما تكون من الفلك ، والناطق أوّل ما ظهر في عالم التكوين ، وهذه النفس النامية لا توجد إلّا بوجود موضوعها الذي هو جسمها ، فبوجوده وجودها وبعدمه عدمها . . . يقولون ثم إنّه كان إلى الأئمة الأطهار الذين هم حجب الإبداع على مرّ الأعمار ، وإلى باب كل واحد منهم حجة وداعية ، وما دونه حججه الاثنا عشر ـ عدد المراتب في الدعوة الإسماعيلية ـ الذين لا يفارقون إقامة الدعوة الباطنة . وإلى الأبواب الظاهرة والحجج والدعاة والمأذونين إقامة الدعوة الظاهرة ، فحدود الظاهر يستخرجون الأنفس من عالم الطبيعة ويهذّبونها أوّلاً بالرياضة والشريعة ، وينقلونها إلى المعارف الحكيمة ، ويصوّرونها بالصور العلمية لكون الأئمة المستقرين هم الذين أقاموا وأحلّوهم في منازلهم على قدر الاستحقاق

(١) تربية المؤمنين من كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ص٥٥.

ورتبوهم ، فكان أول قائم بالدعوة في دور الستر آدم ، وتبعه نوح ، وقام إبراهيم الخليل ﷺ واجتمع عنده أهل المستقر ، فكان لها كالشمس وهي له كالقمر ، لأن هيكله من جملة الهياكل النورانية...[١] .

وعندهم آدم الجزئي وآدم الكلي ، والفرق بين آدم الكلي وآدم الجزئي هو أوّل دور الستر ، وآدم الكلي هو صاحب الجثة الإبداعية ، لأنه أوّل الكل ، وإليه انتهاء الكل في الابتداء ، وآدم دور الستر جزئي بالنسبة إليه . وآدم الجسماني يقع على كل ناطق من نطقاء دور الستر ، وضده إبليس الجسماني في دور كل ناطق . ويقول صاحب النص : فاعلم ذلك وإبليس ناطقنا الله عليه هو «... كتابة سرية رمزية . . .» لعنه الله ، فاعلم ذلك ، ولذلك قال رسول الله ﷺ «قُرنَ بكل نبي شيطان ، وقُرن بي شيطانان» يعني أبا جهل وأبا لهب «كتابة سرية»، لأنهما كانا معاديين له ولمقيمه في أوّل دوره[٢] .

وهم يبقون عمل النبوة في أئمتهم لا على أساس النيابة وبقاء الدعوة إلى الشريعة ودوام الهداية إلى الرسالة ، فيقولون : إنّ الإمام رسول إلى الخلق بأمر الله تعالى ونص رسوله من قبل الوحي والإمام الثاني كذلك من قبل الإمام الأوّل ، الأوّل بأمر الوصي ، والنبي بأمر من الله عزّ وجلّ ، وهلمّ جرّا من واحد الى واحد إلى يوم القيامة ، يصح ذلك ويثبته قوله سبحانه لنبيه : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٣] عنى ههنا بالمؤمنين : الوصي والأئمة من ولده وقوله تعالى : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ

---

(١) الذخيرة في الحقيقة للداعي الفاطمي اليماني علي بن الوليد ص١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) الذخيرة في الحقيقة للداعي الفاطمي اليماني علي بن الوليد ص١٠٢ ـ ١٠٤.

(٣) المائدة : ٥٥.

عَمَلَكُمْ ﴾[١] فقوله في هذه الآية: «والمؤمنون» عنى به الأئمة الطاهرين من ذرية الرسول أولاد الوصي والبتول عليهم السلام فلفظ «المؤمنون» ههنا عام ومعناه خاص ، فلو لم يكن ذلك يُدْرَ مَن المأمور بالعمل ومن الذي يراه ، وكذلك جميع الحدود الذين هم دون الإمام : الباب والحجة إلى المكاسر ، كل واحد منهم رسول إلى من دونهم بنص من هو فوقه ، بأمر متسلسل إلى الله سبحانه[٢] .

ومن الواضح اختلاف المضمون عند الشيعة في أمر الوصاية والنص عنه في هذا السياق ، فهو تشبه بهم ، ولكنه يفترق عنه من حيث تقييد الإمامة بحدود الولاية والنيابة عن صاحب الرسالة والمبعوث بالنبوة ، فالإمامة عند الشيعة امتداد لأمر الدعوة ومداومة على الأحكام والعمل بالأصول . أما الإسماعيليون فقد أوقعهم الغلوّ في الادعاء بأن محمّد بن إسماعيل مشهود له بالرسالة في الأذان عند قوله : أشهد أنّ محمداً رسول الله ، لأنّ شهادته لنفسه غير جائزة ، وإنّما كانت شهادته لمحمّد بن إسماعيل[٣] .

كذلك فإنّ الغلوّ نال من جوهر العقيدة بالصفة الروحية للأئمة التي يعتقدها الشيعة في الأئمة المعصومين، لكي يكون الدين كاملاً ويناط أمر الشريعة بإمام له من صفات صاحب الرسالة ما يعصمه ، فقد قال الإسماعيلية : إنّ النبي صلى الله عليه وآله نقل إلى الإمام علي بعض علومه الإلهية مباشرة؛ ليتوارثها الأئمة

---

(١) التوبة: ١٠٥.

(٢) كتاب الأزهار ومجمع الأنوار للداعي ابن آدم الهندي البهروجي ص ١٨٤ منتخبات إسماعيلية تحقيق د. عادل العوا.

(٣) الأنوار اللطيفة في فلسفة المبدأ والمعاد للداعي طاهر بن إبراهيم الحارثي ص ١٦١ الباب الخامس من السرادقة الرابع للفصل الثاني . والمسائل المجموعة من الحقائق ص ٩٩.

من نسله بعده ، وهي علوم تتمثل على الخصوص في تفسير القرآن ، أو ما عرف بالتأويل، أو المعنى الباطن ، إذ لكل تنزيل تأويل ، وكل كتب الإسماعيلية تشير إلى ذلك .كما ردّوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم وهي المعروفة بالأخبار ، وقد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة إلهية[١]؟ وهو ما يبرأ منه الشيعة ، وقد اتخذ أعداؤهم ذلك ذريعة للطعن ، وأنكروا كل حقائق التنزيه ودلالات النقاء والسمو في عقيدة الشيعة .

وقد بيّن الأئمة ـ أنفسهم ـ منازلهم الدينية ومراتبهم ، ووضحوا معالم الإمامة وصفات صاحب الأمر الشرعي ، ولم يدّعِ أحد منهم صفة إلهية .

ولا ننكر أنّ الحركة الإسماعيلية قد اتسمت بأساليب تنظيمية وبهيأكل سرية ومناهج دعائية تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى ، وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر ، ولا يبعد عن الواقع من يقول إنّ للإسماعيلية سحراً خاصاً وجاذبية قوية كانت تهفو بنفوس فريق من الناس وتستميلهم ، وتستأثر بأهوائهم ، وتبلغ منهم مبلغاً يدفعهم إلى المخاطرة والمجازفة والإتيان بغرائب الأعمال ، وقبول الطاعة العمياء والاستسلام المطلق ، وأنّ في الكتمان والسرّية والخفاء والغموض ما يستهوي الخيال ويرغب النفوس ويطلق الأوهام والأحلام ، وكلما كان السرّ أدق وأخفى ، أو كان اللغز أعوص وأغمض كان سحر الخفاء أشدّ جاذبية وأقوى إطلاقاً للخيال . وما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعاً بالغرائب والعجائب ، محبّاً لاستطلاع الأسرار وكشف المخبآت واستجلاء الغوامض المحجوبة والأسرار المنيعة[٢] . وجميع ذلك

---

(١) الحاكم بأمر الله ص١٣ ـ ١٤.

(٢) القرامطة ص٧٨.

من مقتضيات الأفكار الفلسفية والعقائد الغامضة التي عبّرت عن نفسها بالحركة ، وليست من التقية في شيء . فما أوضح الاختلاف ، وما أجلى الفرق بين الاثنين!

ويصرح الكتاب الإسماعيليون بأنّ حركتهم كان لها القدح المُعلّى في مضمار التنظيمات من حيث الدقة ، وإنّهم برعوا براعة لا توصف في تنظيم أجهزة الدعاية على قلة الوسائل في ذلك العصر ، واستطاعوا أن يشرفوا بسرعة فائقة على أقاصي بقاع المسلمين ، ويتنسمون أخبار إقناعهم . فقد كان الإمام الإسماعيلي ـ والذي يعتبر رئيساً للدعوة ـ يعتبر الدعاة عصباً مهماً للدعوة؛ فينتخب الدعاة من ذوي المواهب . ووفقت الحركة الإسماعيلية بين جهاز الدعاية الذي نظمته وبين نظام الفلك ودورته ، فجعلوا العالم ـ الذي كان معروفاً في عصرهم ـ مثل السنة الزمنية . فالسنة مقسمة إلى اثني عشر شهراً ، فقسّموا العالم إلى اثني عشر قسماً ، وسمّوا كل قسم جزيرة ، وجعلوا على كل جزيرة داعياً ، وقالوا : إنّ الدعوة لا تستقيم إلّا باثني عشر داعياً يتولّون إدارتها ، يقابلهم في عالم الفلك الواحد إثنا عشر برجاً ، يطابقها في جسد الإنسان إثنا عشر نقيباً ، يقابلها في عالم الحجب إثنا عشر حجاباً . وهكذا إلى بقية تنظيماتهم ، والتي تحتاج إلى بيان يفضي بنا إلى الإطالة والخروج عن القصد ، وقد أغفلنا الكثير من جوانب الموضوع خشية ذلك . ولم نذكر إلّا ما كان إغفاله يخلّ بالغرض .

لقد شقّت الدعوة الإسماعيلية طريقها في المجتمع الإسلامي لعوامل متعددة ولجهازها السري والدعائي ، فتضافرت المواهب التي تنتمي إلى مختلف الجماعات، والأفكار على دراسة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، واشتُرط على الداعي أن يكون ملمّاً بذلك ، ليسهل عليه الدخول

بين طبقات المجتمع الذي يتوجّه إليه . فهو مزوّد بمعلومات عن اختلاف الناس في الدين والمذهب والعقلية ، ويخاطب في دعوته كل جماعة بما يروقها ليجذبها إلى صفوف الحركة ، مع التأكيد على التكتم والتخفي والسرّية ؛ وكان أتباع كل مرتبة منهم لا يعرفون أسرار المرتبة الأُخرى . أما التقوى فهي أن يلزم الداعي الخير ويعمل به ويتجنّب الشرّ ويحذوه[١] .

وحقيقة الحركة أنّها أُممية ، لم تكن حركة قومية عنصرية ،كما أنّها لا ترتبط مع الشيعة الإمامية إلّا بالتسميات الشكلية ، فكل مبدأ لدى الإمامية يتحول لديهم بما ينسجم مع معتقداتهم . والحركة الإسماعيلية استغلّت تذمّر الناس مما ارتكبه حكّام تلك العهود من جرائم ومن سوء السيرة والاستبداد ، ولم تظهر أمام انحراف الحكام وظلمهم دعوة تردعهم ، أو حركة تثور بهم إلّا من قبل شيعة أهل البيت وبزعامتهم ، فالإسماعيلية تنخرط في إعلان المعارضة وتوجيه السخط الاجتماعي والديني في البلاد الإسلامية والمطالبة بحق العلويين الشرعي في الحكم مع الاحتفاظ بالأهداف السرّية ، والتنظيمات الخفية التي تخلو منها ثورات العلويين ، والتي تتميز بوضوح أهدافها واشتهار رجالها بالعلم والدين والدعاية الجلية .

وكان نهج الشيعة الإمامية الزاهر وسبيلها الراشد ينأيان عن الطرق الباطنية وأساليبها السرّيةووسائلها العتيقة . فكان عقائد الإمامية تحكم تصرفات من آمن بها والتزم ، ولم يتردّد علماء الإمامية في شجب وإدانة ما يتجافى مع روح الإسلام ، ويخشى نور عقيدته ووضوح أهدافه ، وينزوي في السرّية والباطن ، وقاموا بدورهم الديني فشملهم الباطنية بأعمال القتل ، فراح الكثير

(١) القاضي أبو حنيفة النعماني الهمة في اتّباع آداب الأئمة ص٥٥ .

منهم ضحايا وشهداء .

وكان التشيع قد انتشر في بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي فرّ من أيدي العباسيين بعد موقعة فخ، في عهد الخليفة الهادي سنة (١٦٩ هـ) وأقام الأدارسة في المغرب الأقصى دولة شيعية سنة (١٧٢ هـ) التفّ حولها البربر ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضاً صالحة للدعوة الإسماعيلية ، وكان ذلك مما سهّل على كل من الداعيين : أبي سفيان والحلواني عملهما ، فلما ذهب أبو عبدالله الشيعي إلى المغرب في أوائل سنة (١٨٠ هـ) وجد الأُمور ممهدة له ،كما وجد التشيع قد دخل في عقول البربر ، واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة[١] . وكان من الحنكة السياسية بحيث استطاع أن يفهم الزعماء المحليين أنّ الخلاف بينهم هو السبب في ضعفهم ، وأنّ الاتحاد تحت لواء التشيع سيكون لهم القوة ، فمهّد الداعي لمجيئ مولاه المهدي عبيدالله بانتصارات ومكاسب ، فدفع قبيلة كتامة إلى مهاجمة دولة الأغالبة ومهاجمة دولة الرستميين في تاهرت بعد ذلك ، وهكذا قامت دولة إسلامية شيعية جديدة ، ودخل المهدي القيروان فاتحاً[٢] .

لقد اجتذبت الدعوة الإسلامية إلى صفوفها جماعة من المفكرين :كما نسبوا إليها جمعية إخوان الصفا . لأنّ حركة الإسماعيلية قامت على أُسس سياسية ثورية عنيفة ومتطرفة مازجت الأفكار والعقائد الفلسفية التي حددت المنحى وصاغت النظرة التي يتصفون بها ، ولذلك كان يطلق على كل متفلسف بأنه إسماعيلي ولو في فترة محدودة اشتهر بها وضع الإسماعيلية

(١) مصر في عصر الدولة الفاطمية محمد جمال الدين السرور .

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي لألفريد بل ص١٥٨ .

وأخبار حركتهم الخيالية التي تجمع بين الأفكار الفلسفية وبين الأعمال الانتحارية التي تقرب من الأساطير، والأساليب التي تعتمد على المنحى الخيالي والدعائي الذي لا يهتم بنوعية الأسلوب.

واقترب الإسماعيلية من الطريقة الشيعية في تبني ظلامات الناس والدفاع عن المحرومين والبائسين، وارتبطوا بالحركة الشيعية بمفهومها العام، فيما كان قادتهم يختارون الأشخاص للإيغال به في عالمهم الخفي. كذلك ارتبط الإسماعيلية بالشيعة من خلال الشعار الذي يقض مضاجع الجبابرة بالنصفة لآل محمد والرضا منهم والانتقام لهم، ولكن كان الأمر بمفهومهم الخاص لا بالمفهوم الشيعي الواضح والصريح الذي تهفو له الأفئدة وتندفع في ظله النفوس إلى الموت والشهادة إرضاء الله وانتقاماً للنبي وآله الطيبين. فكان الإسماعيلية مع الشيعة في مواطنهم في الكوفة وبقية مناطق العراق، واستغل الدعاة الإسماعيليون اضطهاد الشيعة وجور الولاة، واتصلوا بهم. كذلك كانت دعوتهم في اليمن[1] وانضمت إليها بتحدي الخلافة العباسية. وقد ظهرت الحركة الإسماعيلية على مسرح الأحداث السياسية متسلحة بسلاح العقيدة بعد أن بسطت دعوتها في أرجاء البلاد الشاسعة، وحاولت أن تزيل الخلافة العباسية وتقيم على أنقاضها دولة إسماعيلية، ولأنّ دعوتها لم تنجح في بغداد، فقد سرت في كثير من بقاع الأمة العربية غربي العراق لتجعل من العرب من الجزيرة وجنوب سوريا قوام دولتها ولب حضارتها وحملة لواء دعوتها، ثم تتولى الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية، في الوقت الذي انحدرت فيه خلافة بغداد، إلى فرض الصراع السياسي والخضوع

(١) رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد ص٣٣.

للغزاة الأجانب تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين والسوريين بقيادة الدولة الفاطمية[1] والتي كانت في عقائدها حريصة على المظهر الذي يجعلها قريبة من عقائد الشيعة ، وتعمل على إخفاء المضامين الفلسفية والمعتقدات الغريبة التي لحقت بالفرقة الإسماعيلية .

الدولة الفاطمية

قويت الدعوة الإسماعيلية تحت ظل ملوك مصر الفاطميين ولا بأس بالإشارة إلى تاريخ هذه الدولة بموجز من القول ، فإني لا أحاول بهذه العجالة إعطاء صورة عن الدولة الفاطمية ، فهي دولة إسلامية خدمت الإسلام ، وتركت آثاراً تشهد للفاطميين . والتاريخ سجّل لهم صحائف بيضاء . ولكن الأقلام الملوثة بأوساخ الطائفية وأدران التعصب أقامت الحواجز .

كان أوّل ظهورها بالمغرب سنة (٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) ولم يرضَ خلفاؤها بالبقاء في المغرب ، بل حملهم الطموح وساقهم إلى إخضاع ما جاور المغرب من البلاد ، ففتحوا مصر سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) ونقلوا قاعدة حكمهم إليها ، وقد دامت دولتهم زهاء قرنين من سنة (٣٥٨هـ / ٥٦٧ هـ) (٩٦٩ـ ١١٧١ م) .

وأنشأوا مدينة ملكية لتكون مقرّ سكناهم وبلاطهم ، وهذه المدينة هي مدينة القاهرة[2] ـ المدينة الخاصة التي كانت تحيط بها أسوار ضخمة ـ فأصبح في مصر لأوّل مرة بلاط خلفاء ينافس بلاط خلفاء بني العباس . وفي عهدهم انفصلت مصر عن الإمبراطورية العباسية : وأصبحوا أشدّ أعداء تلك الدولة ،

---

(١) الإسماعيليون والدولة الإسماعيلية لبيساف ميشيل لباد ص ١١ ط الاتحاد .

(٢) الدكتور عبد المنعم ماجد نظم الفاطميين ورسومهم ج ٢ ص ٩ .

واتخذت الدولة العباسية أساليب الدعاية ضدّهم ، فقد طعنوا في نسبهم ، وأطلقوا عليهم بدل لفظ الفاطميين ـ العبيديين ـ باسم الخليفة عبيدالله المهدي ، أوّل خليفة فاطمي ، وهو الذي أسس الدولة الفاطمية في المغرب ، وشككوا في صحة نسب عبيدالله ، فأطلق عليهم أعداؤهم هذه التسمية للقضاء على نسبتهم لفاطمة الزهراء ﷺ وسيأتي ذكر ذلك .

كما أنّ بعض مؤرخي العرب سلب عنهم هذه التسمية ، وسمّاهم الخلفاء المصريون ، ومنهم من سمّاهم بالرافضة ، ومن خصومهم من سمّاهم المجوس على اسم أتباع زرادشت الذين كانوا في فارس حتى ظهور الإسلام . وسمّوهم أيضاً الباطنيين .

وأيّاً كانت التسمية والألفاظ ، فقد بسطوا سلطانهم ، ودام ملكهم مدة من الزمن . فقد تأسست الدولة سنة (٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م) في المغرب ، وانتقلت إلى مصر سنة (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) وسقطت سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م).

وكان عدد خلفاء مصر (١١) خليفة هم :

١ ـ المعز أبو تميم معد (٣٤١ هـ ٩٥٢ م) .

٢ ـ العزيز أبو المنصور نزار (٣٦٥ هـ ٩٧٥ م) .

٣ ـ الحاكم أبو علي المنصور (٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) .

٤ ـ الظاهر أبو الحسن علي (٤١١ هـ ١٠٢٠ م) .

٥ ـ المستنصر أبو تميم معد (٤٣٧ هـ ١٠٤٥ م) .

٦ ـ المستعلي أبو القاسم أحمد (٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م) .

٧ ـ الآمر أبو علي المنصور (٤٩٥ هـ ١١٠١ م) .

٨ ـ الحافظ أبو ميمونة عبدالمجيد (٥٤١ هـ ١١٤٦ م) .

٩ ـ الظافر أبو منصور إسماعيل (٥٤٤ هـ ١١٤٩ م) .

١٠ ـ الفائز أبو القاسم عيسى (٥٤٩ هـ ١١٥٤ م) .

١١ ـ العاضد أبو محمّد عبدالله (٥٥٥ هـ ١١٦٠ م) .

وأبرز شخصية في الدولة الفاطمية اشتهرت في التاريخ هي شخصية الحاكم ، حتى غلا فيه مجنوه . وسنشير لذلك .

وكانت الإسماعيلية وحدة لا تنفصم تحت زعامة الفاطميين ، وكانت الدولة وقتئذٍ الفاطمية تسمى الدعوة القديمة، وبموت الخليفة المستنصر الفاطمي حصل ذلك الانشقاق على الدعوة القديمة وانتهى المنشقّون إلى نزار ابن المستنصر ، وقالوا إنّ أباه عيّنه في الإمامة والخلافة من بعده ، واستطاع زعيم هذه الدعوة الحسن الصباح أن يكوّن دولة نزارية لهاكيانها الخاص في فارس ، وأن ينشيء دعوة عرفت في التاريخ (بالدعوة الجديدة) وعرف أنصارها بالإسماعيلية النزارية، أو الإسماعيلية الحشيشية، وأخذت دولتهم تغالب الدهر منذ سنة (٤٨٨ هـ) حتى سقطت في سنة (٦٥٤ هـ) على يد هولاكو المغولي ، ولم تمت الدعوة النزارية بموت دولتها ، وظل أنصارها يعملون في الخفاء حتى بُعثوا اليوم باسم الآغاخانية أتباع آغاخان ، وهؤلاء هم النزارية المحدّثون .

وأما أنصار الدعوة القديمة ، فأولوا دعوتهم للمستعلي الابن الأصغر للمستنصر ، وسمّوا المستعلية ، ولمّا مات الخليفة الآمر ، وولي الخليفة الحافظ اعترف إسماعيلية مصر له بالرياسة ، فسمّيت دعوتهم الدعوة الحافظية ، واعترف إسماعيلية اليمن بالطيّب فسمّوا الطيبية .

لقد كان من أكثر الأحداث تأثيراً في إضعاف الدولة الفاطمية توالي الانقسامات المذهبية السياسية ، وتعرّض الدولة إلى هزّات قوية ، فقد كانت الاختلافات حول القائم بالحكم والبيعة له سبباً في تمزيق رعيتهم وتشتيت

أتباعهم ، فعند وفاة المستنصر ـ كما قلنا ـ فإنّ نزاراً ـ الابن الأكبر ـ كانت له ولاية العهد ، وقد أجلسه أبوه في حياته ، فلما مرض المنصور أراد أخذ البيعة له ، لكن الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمّال كان يكره أن يكون الحكم لنزار لعداوة كانت بينهما بسبب أنّ نزاراً قال للأفضل يوماً: إنزل يا أرمني يا نجس[1] . وكان نزار قد وعد محمود بن وصال اللكمي بالوزارة والتقدم على الجيوش مكان الأفضل .

وكان الأفضل هو الذي بادر بإخراج أبي القاسم ومبايعته ونعته بالمستعلي وقال : بأن النص والوصية للابن الأصغر ، وبادر وخرج من وقته وأخذ معه أخاه عبدالله ، وتوجهوا إلى الاسكندرية ، ولا نخوض في تفاصيل النزاع؛ لأنّ ذلك ليس مقصدنا ، وقد انتهى النزاع بهزيمة نزار ، وانقسام الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى :

١ ـ الإسماعيلية النزارية .

٢ ـ الإسماعيلية المستعلية .

ولاقت الدولة الفاطمية بعد هذا الانقسام الأمرّين من معارضة النزارية ومقاومتهم[2] .

وحدث انقسام آخر بعد وفاة الآمر ، فقد خولفت أُصول المذهب ، وولي الخلافة ابن عم الآمر ، وحدث ذلك لأوّل مرة ، وليس لذلك من سبب؛ لأنّ الآمر قد ولد له قبيل وفاته ابن اسمه الطيب ، فأخذت له البيعة بولاية العهد ، ولكن الحافظ قد استقرت له الأُمور بعد أن ضعفت قوته لما أبداه وزير

---

(١) النجوم الزاهرة ج٥ ص١٤٢ .

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية جمال الدين الشيّال ص٢١ .

أحمد بن الأفضل من رغبته في الاستقلال والدعوة إلى نفسه .

والغرض أنّ الحافظ في ولايته الخلافة ، وظهور مخالفة أُصول المذهب كان يمثل جماعة تخالف أغلبية الفاطميين الذين يرعون الحكم ؛ فقد كان الحافظ محبوساً في حياة الآمر . وأدى ذلك إلى انقسام جديد كان من عوامل إضعاف الدولة . وأصبحت الإسماعيلية منقسمة إلى :

١ ـ إسماعيلية حافظية .

٢ ـ إسماعيلية طيبية .

وتعرّضت الدولة إلى خلافات ومنافسات في عهد الحافظ بسبب الولاية على العهد ؛ فقد عهد الحافظ أولاً لابنه الأكبر سليمان ، ولكنه مات بعد قليل ، فعهد لابنه الثاني حيدرة؛ مما آثار حقد ابنه الثالث واسمه حسن ، فقام بثورة عنيفة انقسم بسببها الجيش الفاطمي إلى فريقين يحارب كل منهما الآخر؛ مما أدى إلى إضعاف الجيش في مجموعه[١] .

وحدث في السنة التالية لوفاة الآمر فترة من أهم فترات التاريخ الفاطمي ، ودامت لمدة سنة . فقد ولي الحافظ ـ وهو ابن عم الآمر ـ غداة وفاة الآمر كولي للعهد وكفيل لطفل منتظر ، ثم ثار به أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه ، وخلعه في اليوم التالي وسجنه واستقل هو بالحكم .

وهذا الذي فعله الوزير أحمد يُعدّ انقلاباً سياسياً تام الأركان ، وأوشك بفعلته هذه أن يقضي نهائياً على الدولة الفاطمية ، فقد كان أبو علي الحامي المذهب ، ولهذا فقد عمل على إلغاء الكثير من الشعائر الإسماعيلية . ويروي صاحب النجوم الزاهرة بأنه أظهر التمسك بالإمام المنتظر في آخر الزمان؛

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية، جمال الدين الشيال ص٢٢.

فجعل الدعاء في الخطبة له ، ويغلط بشكل شنيع في مذهبه لأنّ ابن تغري يروي على المنقول والموروث من أنّ الشيعة هم كل من حمل الاسم ، فلذلك لا يرى في انقلاب الوزير ومخالفته إلّا مضادة تامة ومخالفة كاملة تضع الوزير في الصف المعادي .

وكاد أبو علي أحمد أن يقضي على الدولة الفاطمية ، وأن يقيم في مصر دولة جديدة ، لكن أمراء الإسماعيلية وقوادهم ثاروا عليه ، وتمكنوا من قتله وإعادة الحافظ .

ولهذا اعتبر الإسماعيلية اليوم الذي أطلق فيه سراح الحافظ وإعادته إلى الحكم عيداً من أعيادهم الهامة وأسموه (عيد النصر)(١) وظلوا يحتفلون به إلى آخر أيام دولتهم؛ لأنّهم اعتبروه نصراً للمذهب الإسماعيلي وللدولة الفاطمية وإيحاءً لهما بعد أن حاول الوزير أحمد تغييرهما .

وقد أنجبت زوجة الآمر بعد وفاته ولداً آخر غير الطيب ، ولكنها أخفته في القرافة خوفاً عليه من الحافظ الطامع في الخلافة .

ولمّا عاد الحافظ للحكم ، ظل دائب البحث عن الطفل المختفي ، إلى أن عثر عليه ، وتخلص منه ، وأعلن نفسه خليفة(٢) .

والبوهرة اليوم هم الإسماعيلية المستعلية ، يعتقدون أنّ إمامهم الحادي والعشرين الطيب ابن الآمر المستعلي قد استتر ، وبدأ سلسلة الدعاة المطلقين ؛ وقد ظهر منهم ثلاثة وعشرون في اليمن ، ثم ثلاثة وعشرون في الهند .

(١) يقول المقريزي في الخطط عيد النصر هو السادس عشر من المحرم عمله الخليفة الحافظ لدين الله؛ لأنه اليوم الذي ظهر فيه من محبسه ويفعل فيه ما يفعل في الأعياد الأُخرى من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة في النفقة ج١٠ ص٤٩٠ .

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية ص٢٤ .

ويعتقدون أنّ الأيوبيين لم يتسلموا الحكم من الورثة الحقيقيين ، بل من الخلفاء المزيفين؛ لأنّ الحافظ وأولاده يُعَدّون غاصبين[١] .

وعلى أي حال فإن أهم شخصية برزت في التاريخ الإسلامي للطائفة الإسماعيلية هي شخصية الحاكم بأمر الله ، ودارت حول تلك الشخصية أقوال وأساطير ، فنقتصر على ذكره منهم .

الحاكم بأمر الله

هو المنصور بن نزار العزيز بالله ، ولد بالقاهرة ليلة الخميس ٢٣ من شهر ربيع الأول (٣٣٥هـ ٩٨٥م) .كنيته أبو علي ، ولقبه الحاكم بأمر الله ، وهو أوّل خليفة من الفاطميين ، ولد في القاهرة .

ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٣٨٦ هـ) في شهر رمضان ، وكان له من العمر إحدى عشرة سنة ونصف .

وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلي ، وكان يطمع بالاستئثار بالسلطة ، وشعر الحاكم بخطر برجوان وما يقصده ، فعمل على التخلص منه ، فاحتال على قتله سنة (٣٥٠هـ) وبذلك استعاد الحاكم سلطته ، وقلّد الحسين بن جوهر أُمور الدولة ، ولقّبه بقائد القواد .

واتصف الحاكم بصفات النبل والشهامة والأخلاق الفاضلة ، ومثّلوه بعمر ابن عبدالعزيز بعدله .

وكانت تقوى الحاكم البالغة قد جعلت أتباعه يبالغون في تقديرهم لشخصيته ، فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب الإسماعيلي تبيّن أنّ

---

(١) الحقائق الخفية لمحمد حسن الأعظمي ص١٨.

الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة ، وإنما بشرت به الأنبياء ، وأشير إليه بالرمز في التوراة على أنه الزاهد الراكب الحمار ليأتي بهذه الأعمال الباهرة[1] .

ولقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعده كذلك : توحي بأنه شخص متميز عن الآخرين ، وتؤكد لديه هذا الإحساس . فلقد وصفته الروايات المعاصرة له فقالت : (كان منظره مثل الأسد ، وعيناه واسعة شُهل، يخالط سواد عينيه زرقة، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهر مخوف[2]، فإذا أشرف عليهم ، سقطوا على الأرض وجلاً منه ، وفحموا عن خطابه)[3] .

وزاد الطين بلة أن الغلو في ذات الحاكم وصل إلى حد التأليه ، وأن الغلو جاء من بعض المقربين إليه ، بحيث انفرط عقد مبادئ المذهب ، واختلطت عقائده .

ويعبر أحد الدعاة عن هذه الحالة في زمن الحاكم بقوله : فغلا فيه صلى الله عليه من غلا ، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا ، ووقع في أهل الدعوة والمملكة في الاختباط ، وكثر الزيغ والاختلاط[4] .

ولعل المتدخلين في صفوف المسلمين - والذين يسعون بكل جهد لمحو العقيدة الإسلامية - قد استغلوا هذا الشعور وغلو الأتباع في شخصية الحاكم ، فنفثوا السموم في جسم ذلك المجتمع المتماسك في عقيدته بالوحدانية والنبوة ، فراحوا يبثون تأليه الحاكم ونفي التوحيد والنبوة .

---

(١) عبد المنعم ماجد الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ص١٠٦ .

(٢) هكذا في المصدر .

(٣) محمد عمارة، عندما أصبحت مصر عربية ص٩٧، نقلاً عن الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبدالله عنان .

(٤) الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ص٩٧ .

ومن أولئك : الفرغاني المعروف بالأخرم ، رجل من بلاد فارس ، تسمّى بالحسين بن حيدرة ، وهو رجل أجدع الأنف أو مثقوبه ، فعرف بـالأجدع ، وكان ظهور دعوته سنة (٤٠٩ هـ ـ ١٠١٨ م) على خلاف في ذلك .

قام الأخرم بنشر الإلحاد ، وقال إن المعبود هو الحاكم ، ودعا لإبطال النبوة ، فأسقط اسم الله واسم النبي ﷺ واعتبر التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشوراً .

ودخل في خمسين رجلاً من أعوانه إلى الجامع الذي كان فيه قاضي القضاة ابن أبي العوام ، فدخلوا فيه راكبين ، وأخذوا أموال الناس وثيابهم ، وسلّموا لابن أبي الهوام رقعة ليقرأها الناس ، وقد بدأ باسم الحاكم الرحمن الرحيم ، فرفع القاضي صوته منكراً ، وهجم الناس على الأخرم وقتلوا أصحابه ، أما هو فقد هرب وقيل قتل ؛ وإنه يقوم بعمليات أمثال هذه في البلاد الإسلامية ليقتل المسلمون بعضهم بعضاً ، وتبقى آثار هذه الهجمات المنكرة يتوارثها أجيال لم يمحصوا الأمور كما يراد ، فيكيلون الذمّ ويتّهمون الأبرياء .

وكذلك ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل سنة (٤٠٨ هـ ـ ١٠١٧ م) وقيل اسمه : أوشتكين أو هشكتين . ويظهر أنه تركي ، ولقب بالدورز الذي لا يعرف لها أصل . وهذا الداعية قرّبه الحاكم في أوّل الأمر ، حتى عرف بأنّه غلام الحاكم ، وارتفعت منزلته في الدولة ، وأظهر الغلو في الحاكم ، وأنّه الإله الذي صنع العوالم ، وصنّف كتاباً أسماه الدستور ، وحصل له أتباع عرفوا بالدرزية بلغ عددهم ستة عشر ألفاً كانوا يأتون بأمور مبتذلة...[1]

واختلف في نهاية الدرزي ، وخلط بينه وبين الأخرم ، فبينما تقول رواية

---

(١) الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ص١٠٨ .

إنّه قتل وجماعة من الدرزية على يد الأتراك وهو في موكب الحاكم ، وإنّهم لم يقتلوه بسبب اعتقاده ؛ بل لأنّه نصح الحاكم بإزالة الألقاب التي كانوا يباهون بها .

وتقول رواية ثانية إنّه هرب إلى الشام ، ونشر دعوته فيها ، وتقول ثالثة إنّه قتل في إحدى المعارك .

والذي يهمّنا في هذا الموضوع هل أنّ طائفة الدروز في سوريا وغيرها ينتمون إليه أم لا؟

والذي يظهر أنّهم لا يحبّون أن يلقبوا بهذا اللقب ، ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعي نوشتكين الدرزي المسمى محمد بن إسماعيل الدرزي ـ وهو كما يظهر ـ يرمونه بالإلحاد والخروج عن عقيدتهم ، ويطلقون على أنفسهم اسم الموحدين وتسميتهم بالدروز تسمية خاطئة ، ومع ذلك فقد أصبح اسم الدروز لهذه الفرقة ملازماً لهم . والباحث يجد نفسه مضطراً لإطلاق هذا الاسم لاختصاصه بهم في الدلالة والاشتهار .

وكذلك اختلف الكتّاب والمؤرخون في أصل الدروز هل أنهم فرس أم أتراك ؟ وقيل : إنهم مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهند .

وذهب البعض من مؤرخي الأفرنسيين في القرن السابع إلى أنّ الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت «دي دروكس» الذي أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا، فكلمة الدروز هي تحريف «دي دروكس» .

والتاريخ يدلّنا على أنّ هذه القبائل التي اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان وحوران ووادي التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون ، وأنّ قبائلهم وعاداتهم معروفة بأُصولها

وتقاليدها الرفيعة .

يقول الأستاذ محمد كامل حسين : وربما أراد المؤرخون الفرنسيون بهذا القول أنّ عدداً كبيراً من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز ، فاتخذهم الدروز عبيداً لهم ، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماءً وسبايا(١) .

والذي يبدو أنّ عقيدة الدروز في تأليه الحاكم أخذت عن الداعي حمزة بن علي الذي قدم مصر سنة (٣٩٥ هـ) وأخذ بنشر الدعوة سرّاً إلى تأليه الحاكم ، وكان الأخرم الفرغاني من أعوانه ، قد شجّعه حمزة على الجهر بتأليه الحاكم كما تقدم .

ولمّا قتل الفرغاني حلّ محله الدرزي محمد بن إسماعيل الذي تنسب إليه الدروز ، وهم يتبرأون منه .

وقضية علاقة الدرزي بالحاكم تضمّ الإشارة إلى إنكار الحاكم لما ادّعاه الدرزي ، ولكن اتفقت النقول وتطابقت الآراء على أنّ الحاكم إنّما أنكر خوفاً من الرعية بعد أن قدم الدرزي مصر ـ وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ ـ فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية ، وصنّف له كتاباً ذكر فيه أنّ روح آدم ﷺ انتقلت إلى الإمام علي ، وأنّ روح الإمام انتقلت إلى أبي الحاكم ، ثم انتقلت إلى الحاكم ، فأظهر الحاكم الانقياد له وإطاعته . ولمّا ثار الناس ، قال له الحاكم : أُخرج إلى الشام ، وانشر الدعوة في الجبال ، فإنّ أهلها سريعو الانقياد . فقرأ الكتاب على أهله ، واستمالهم إلى الحاكم ، وأعطاهم المال ، وقرر في نفوسهم الدرزي التناسخ ، وأباح لهم شرب الخمور ، وأخذ مال من خالفهم ، والزنا ، وإباحة دماء أعدائهم . ولعل موافقة المصادر

---

(١) محمد كامل حسين طائفة الدروز ص٦ ط دار المعارف بمصر .

الإسماعيلية لعلاقة الدرزية بالحاكم هي الأصل في اعتقاد صحة الاتهام ، فقد جعلت شخصية الدرزي في الصلة بين الإسماعيلية والدروز ، أو تروي أنّ الدرزي تمكن في وقت قليل من السيطرة على الموقف في وادي التيم ، وإعادة الهدوء والسكينة إلى صفوف الإسماعيلية هناك بعد فرقة واختلاف ، وعمل جاهداً لتوسيع وانتشار الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد ، وبقي الدرزي رئيساً للدعوة وكبيراً لدعاتها في بلاد الشام، حتى إعلان وفاة الحاكم وولاية الظاهر ، فلم يعترف الدرزي بوفاة الحاكم مدّعياً بأنّ وفاته لم تكن سوى نوع من الغيبة لتخليص أنفس مريدي الحاكم من الأدران . وبقي متمسكاً بإمامة الحاكم ، ومنتظراً عودته من تلك الغيبة . وبذلك أعلن انفصاله عن الإسماعيلية التي لا تعتقد بالغيبة ، وتقول بفناء الجسم وبقاء سرّ الإمامة بالروح ، فينتقل بموجب النص إلى إمام آخر ، وهو المنصوص عليه من قبل الإمام المتوفى ، وسمّيت الفرقة التي تبعت (الدرزي) بالدرزية نسبة إليه[1] .

وعقائد الدروز تلتقي مع عقائد الإسماعيلية في الأُمور التي انشقّوا بها عن المجتمع الإسلامي الشيعي ، وتطرّفهم في أُمور لا يقرّها التشيّع ، وانقسموا عن المسلمين في عقائدهم التي لا يقرّها ولا يؤمن بها أتباع أهل البيت . لأنّ هناك عقائد هي مجموعة من أفكار وفلسفات قديمة صيغت في صورة إسلامية ، وهذا أبعد ما يكون عن نهج أهل البيت وأتباعهم ، وقد بيّنا ذلك .

وأيّاً كان ، فالحديث عن الدروز وعقائدهم صعب ، فإنّ لهم كتباً مقدّسة وآراء يشذّون بها عن المسلمين ، فهم يتّبعون حمزة في تعاليمه وتأليهه للحاكم ، وهناك نقول : إنّ الأيدي العابثة أو الفئات الحاقدة استطاعت خلق

---

(١) تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

هذا الاعتقاد ـ تأليه الحاكم ـ وتشويه عقائد المسلمين بعقائد بعيدة عن روح الإسلام ، واستغلال ظروف الناس العامة وأوضاع الأشخاص .

وذلك عندما حاولت بعض الطوائف إحياء نِحَلها القديمة ، واتخذت لها مبادئ كان من أهمها : مناوأة سلطان الإسلام السياسي ، وإعادة مجد أسلافهم . مما يحملنا على القول بأنّ هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر ، وحاولوا نشر ألوهية الحاكم ،كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف ، وقد عمدوا من وراء دعوتهم التي قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن والقلاقل في القاهرة ، ليمهدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية ، غير أنّ محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل[1] .

ولكنهم نجحوا في نشر العقائد الفاسدة وبث روح الفرقة بين الطوائف ، وأوجدوا تجمعاً على الباطل ، وتفرقاً وابتعاداً عن الحق .

فهؤلاء الذين دعوا إلى تأليه الحاكم لم تكن عقولهم بهذا المستوى من الجهل والغرور ، وأن يسندوا خلق الأكوان إلى مخلوق عاشروه ، ولكنهم استغلوا شخصية الحاكم وموقعها في النفوس ، فراحوا ينشرون ضلالهم وإلحادهم ، وقد تألفت هذه الجماعة من ثلاثة : الفرغاني ومحمد بن إسماعيل وحمزة ، وقد وقع الاختلاف بينهم، واختص حمزة بنشر الدعوة . ومن رسائل إلحاده : توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره في جميع الأمور مُعِلّ علة العلل صفا صفاة العلة . من عبد أمير المؤمنين ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين، المنتقم من المشركين بسيف أمير المؤمنين وشدّة سلطانه ، ولا معبود سواه .

(١) انظر كتاب طائفة الدروز للدكتور محمد كامل حسين ط دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

وأصبح حمزة يلقّب بالإمام ، ولمّا غاب الحاكم ، صرّح حمزة بأنّـه هـو الإمام ، وأنّه سيغيب أيضاً على أن يرجع مرة أُخرى .

ولا نخوض في تفاصيل سيرة الحاكم ، فحديثها يطول ، وفيها ما يدعو إلى الاستغراب والدهشة من الأعمال الكثيرة والقدرة الفائقة على تحرّي العدل فـي أوضـاع العامة ، والمبالغة فـي العقوبات والأحكـام ، إلى غـيرها مـن التحوّلات في الأوامر والتغييرات في الأُمور التي يقرّرها ، وقد كانت سبباً في الطعون والنقمة على الحاكم .

وكان سبب اختيارنا له في البحث ، واقتصارنا في الحديث عليه للعبرة في فعل الأهواء وتأثير الأحقاد التي استخلصت من سيرة الحاكم الأعمال التي تدل على روح العدل والحرص على مصالح الرعية . ووافت بـها مـا يـنسجم مـع الهوى والحقد للانتهاء إلى أنّ الحاكم دعا لـنفسه بـالألوهية ، وارتكب مـن الأفعال ما ارتكب . والتحقيق يثبت أنّ الحاكم في كل أمر يخرج عن سيرة العدل كان يقابله بالإنكار ، ولا أريد هنا أن أقف مدافعاً عن الحاكم بأمر الله ، بقدر ما أقصد إلى التأكيد على مسألة الأهواء والتعصب ، وما تفعله في التاريخ من تشويه؛ حتى تمكنت من إخفاء آثار أعماله وأوامره التي ألزم الناس بها وهو يعالج بها أوضاعاً في المجتمع ، ويقصد إلى القضاء عـلى الفساد فـيها وتـستهدف المحافظة على الأخلاق ، ومعالجة موجات الانحلال التـي بـدأت تشيع بسبب الترف في الأوساط الغنية أو تنتشر بسبب المجاعات في أوساط الفقراء ، فحرّم عمل الفقاع وبيعه وكان من مسكرات ذلك العصر . . . ولقـد جاء في سجل أصدره بـتحريم المسكـرات فـي سـنة (٤٠٠ هـ ـ ١٠٠٩م) أنّ المسكر هو مجمع السيئات ، والقائد إلى قبائح الأفعال .

ومما يؤكّد أنّ الحاكم إنّما كان يواجه موجة من التحلل الخلقي في المجتمع

القاهري في ذلك الحين ، ذلك المرسوم الذي أصدره في سنة (٤٠١ هـ) والذي يمنع فيه اللهو والغناء ، وخاصة بالنسبة للنساء ، والذي يحرم الاجتماعات الماجنة التي كانت تعقد في الخلاء بالصحراء ، وعند ذلك هوجمت أماكن البغاة بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وطهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون في معظم جنباتها .كما سبق وحرّم على الناس دخول الحمام إلّا بمئزر يستر بعض عوراتهم ، وحرم على غير الباعة والمشترين للأرقاء دخول أسواقهم حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت في التمتع بالجواري بحجة الشراء ،كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان والإماء في مكان واحد ، وأن يفرد لكل منهم مكان خاص بالبيع والشراء[١] .

ويقوم الحاكم بقتل قاضيه حسين بن علي بن النعمان ، وكان من أسباب قتله أنّ الحاكم كان قد ملأ عينه ويده ، وشرط عليه العفة عن أموال الناس . فرفع إلى الحاكم شخص متظلم رقعته يذكر فيها أنّ أباه مات وترك له عشرين ألف دينار ، وأنها كانت في ديوان حسين ، وكان ينفق عليه منها مدة معلومة ، فحضر يطلب من ماله شيئاً ، فأعلمه القاضي أن الذي له نفذ . فاستدعى الحاكم القاضي ، فدفع إليه الرقعة ، فأجابه بما قال للرجل ، وأن الذي خلفه أبوه استوفاه في نفقته . فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضي في الحال ، فأحضر ففتش فيه من مال الرجل ، فظهر أنّه إنّما وصل إلى القليل منه ، ووجده أكثره باقياً ، فعدّ على القاضي ما رتبه وأجراه عليه وإكرامه إياه وما شرط عليه من عدم التعرّض لأموال الرعية ، فجزع وهاله وقال : العفو وأتوب . وانصرف بالرجل ، فدفع إليه ماله ، وأشهد عليه . فحقد الحاكم عليه

(١) محمد عمارة عندما أصبحت مصر عربية ص١٠٧ ـ ١٠٨ .

ذلك ، فأمـــر بــه فـحبس ، ثـم أخـرج بـعد ذلك عـلى حـمار نـهاراً والناس ينظرون[١] .

وأمر الحاكم قاضيه عبدالعزيز بن محمد بن النعمان بالنظر في المساجد ، وتفقد أوقافها ، وجمع الريع وصرفه في وجوهه . ففعل ذلك وبالغ فيه.

وبنى الحاكم جامع القاهرة وجامع راشدة على النيل بمصر ، ومساجد كثيرة ، ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة ، ومنع من صلاة التراويح ، وقطع الكروم ، ومنع من بيع العنب ، ولم يبق في ولايته كرم ، وأراق خمسة آلاف جرة من عسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً[٢] .

ولم يرض الحاكم بعادة من سبقه من الحكّام في حمل الناس على تقبيل الأرض بين أيديهم ، فنهى عن ذلك ، ونهى عن الصلاة عليه في الخطب والمكاتبات ، وجعل مكان الصلاة عليه : السلام على أمير المؤمنين .

وأمر الحاكم قاضيه عبدالعزيز في يوم عاشوراء أن يمنع النساء والناس وهم في مواكب العزاء من المرور في الشوارع ، لكي لا تمتدّ يد العامة إلى أمتعة الباعة ، وأن يختص النوح والنشيد خارج المدينة .

ولما منع الحاكم النساء الخروج من دورهنّ ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن ، اتفق أنّ القاضي مرّ على دار امرأة ، فناشدته أن يقف لها ويسمع كلامها ، فوقف ، فبكت بكاءً شديداً إلى أن رقّ لها ، وحلفت له أنّ لها ابناً أنه في السياق ، وأنها تريد أن تراه قبل أن يموت . فأمر بعض رجاله

---

(١) ولاة مصر الكندي ص٥٩٩.

(٢) النجوم الزاهرة ج٤ ص١٧٧.

بأن يمضي معها إلى دار أخيها ، فأغلقت بابها ، وأعطت مفتاحها لجاريتها ، وذهبت مع الرجّالة إلى دار طرقتها ، ففتح لها ، فدخلت واستمرت مقيمة فيها ، فكشف عن أمرها ، فإذا هو منزل رجل كانت تهواه ويهواها . فأخبر القاضي بذلك ، فتعجب من فطنتها حتى توصلت إلى مرادها ، وإذا بزوجها قد جاء إلى القاضي وقال : ما أعرف زوجتي إلّا منك . وحلف أنها ليس لها أخ وإنّما ذهبت إلى عشيقها . فسقط في يده ، وخاف القاضي أن يبلغ الخبر الحاكم ، فيكون سبب غضبه عليه ، فركب في الحال إلى الحاكم ، وقصّ عليه القصّة وبكى . فأمر الحاكم بإحضار المرأة والرجل ، فمضى الأعوان إليهما ... السكر ، فحملوهما إلى